المسيح عيسى بن مريم



مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعمٍ للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تُعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شحّ الخدمات المتوفرة للمكفوفين؛ حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية، وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

المسيح عيسى بن مريم
عبد الحميد جودة السحار

إهداء

إلى صديقي محمد محمد فرج..
الذي دفعني إلى إخراج هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

(قرآن کریم)

-1-

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۞ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۞ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

(قرآن كريم)

تنفس الفجر، فانبثق في الأفق الشرقي نبع من الضوء، راح يبعث أشعته الفضية لتبدد ظلام الليل.. وصاح الديك إيذانًا بمولد نهار جديد، فهبت الشمس تقطع رحلتها الأبدية، وأرسلت أشعتها الأولى إلى الناصرة، فانقشعت الغشاوة عن التلال، وعن أشجار السرو العتيقة التي حَنَت يد الزمن أطرافها، وسقط الضوء على أشجار التين والزيتون، وراح ينسل إلى البيوت الصغيرة المبعثرة في الوادي الخاشع عند أقدام التلال.

وتألق زهر البرتقال الأبيض كالزنابق، وتفتح نوّار الرمّان الأحمر، وبدا كأنما يبتسم لنور الصباح، ورجع اليمام على الأشجار، تسبيحًا لخالق الكون والجمال، وراح الأخيل الأزرق ينتقل في مراحٍ بين الحقول، ويحط على الأشجار، فتلوح كأنما أثمرت ثمارًا من الفيروز.

وأُريق النور من كوّات المنازل، فقام عمران من نومه، واعتدل في فراشه، ومدّ يده، وتناول التوراة، ففتح سفر دانيال، وراح يقرأ ويفكر فيما يقرأ، فيهيم في دنيا من الأحلام. إنه ليجد فيما يقرأ غذاءً لروحه، ومادة لتأملاته. إن أسعد أوقات حياته لهي تلك السويعات التي يمضيها في قراءة التوراة في الصباح، وتلك السويعات التي يمضيها مع جيرانه في المساء، يتحدث عن الأنبياء وعمّا فعلوه لبني إسرائيل، وعن النبوءات التي تحققت، وعن النبوءة الكبرى التي يترقبها الجميع: نبوءة مجيء المسيح ملك اليهود، الذي سيرسله الله إلى بني إسرائيل.

كان يستشعر الزهو يملأ جوانحه إذا قرأ قصة راعوث أو قصة داود، فهو من نسل ذلك البيت العريق، إنه سليل الملك داود، وكذلك زوجه من نفس ذلك البيت الكريم، فما كان لإسرائيلي أن يتزوج إلا من طبقته، إنه من نسل الأنبياء وقد تزوج من امرأة يجري في عروقها دم النبوة الكريم.

وكانت حَنَّة زوجه، تقدم له طعام الفطور. وتجلس تشاركه في طعامه. فيدور الحديث عن الدين والأنبياء، فما كان هناك حديث في الناصرة إلا عن

الأنبياء والدين، فأهلها جميعًا من نسل هارون وداود.

وكانت الناصرة تتكون من أُسْرات قليلة فقيرة، ولو أنها أُسْرات تنحدر من أصلاب الأنبياء، وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فقد احترف فرع داود التجارة، واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب ويجلبونها من التلال، واحترفت الفروع الأخرى صناعة النعال أو تجفيف التين.

وكان عمران يخرج إلى عمله، وينطلق في شوارع الناصرة الضيقة، يلقي السلام على كل من يقابله، فالرجال يعرف بعضهم بعضًا، ويرجع ذلك التعارف إلى أجيال، فالزواج محصور في تلك الأسر الهابطة من الأنبياء، حتى لا يضيع الدم الزكي بين الناس.

كان عمران يمارس عمله، فإذا نزل بحانوته زائر أو صاحب عمل، طفق يحدثه عن قصص التوراة، ويردّد مزامير داود في صوت أخاذ يهز المشاعر، ويُنزل الخشوع بالقلوب، فترتيلاته تنبعث من قلب نقي، مفعم بالإيمان العميق.

وأقبل يوم السبت، فارتدى عمران أفخر ثيابه، وارتدت حَنَّة ثياب الخروج، وانطلقا إلى الكنيس، وذهب عمران إلى مكان الرجال، وذهبت حَنَّة إلى الشرفة العالية المعدة للنساء المحجبات، وراح الجميع يصلون، فانبعثت الأصوات ملائكية تأخذ بالألباب، فأحسّ عمران كأنما يهيم في السموات. وما أن انتهت الصلاة حتى عادت تراوده الفكرة التي طالما راودته في يقظته، وطافت به في منامه، فكرة الذهاب إلى أورشليم لخدمة المعبد العظيم، فقد رأى في منامه أنه يقوم بسدانته وطهوره وتجميره، وتقديم الذبائح إلى إله إسرائيل.

إن زكريا، زوج إليصابات أخت حَنَّة، هناك في معبد الرب، يقوم بخدمته ويكرس حياته للعبادة، فلماذا لا ينطلق هو من إساره، ويتحرر من قيود الدنيا، ويهب نفسه خالصة لله رب العالمين؟

عاد عمران إلى بيته، وقد مُلئ عزمًا على الخروج إلى أورشليم، ليكون من خُدّام المعبد المخلصين، وأفضى إلى حَنَّة بما قرّ عليه رأيه، فجعلا يتأهبان للخروج، حتى إذا تم لهما ما أرادا انطلقا في الطريق المنساب بين التلال، مخلفَيْن وراءهما بيوت الناصرة الناصعة، وهبطا إلى السهل الأخضر اليانع، وراحا يطويان الأرض حتى أشرفا على السامرة فأخذا يتقدمان تقدمًا في حذر، فالسامريون يبغضون اليهود، فهم يعتقدون أنهم أبناء إسرائيل الحقيقيون، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة، دون باقي التوراة، ويعتزون بنسخة من هذه الكتب دونت على الماعز، ويقولون إن هارون كتبها بخط يده.

تأصلت العداوة بين السامريين واليهود، فكان حجّاج الناصرة والبلاد الشمالية يتجنبون المرور بالسامرة في عيد الفصح، في طريقهم إلى أورشليم، خشية أن يقع بينهما ما يكدّر صفو الجميع، وما كان السامريون يذهبون إلى أورشليم لذبح قرابينهم، بل كانوا يترقبون في الجبل، يسوقون ذبائحهم، حتى إذا كان القمر بدرًا، أمر الكاهن بالذبائح فتنحر، وتلطخ أبواب الخيم بالدم، كانت لهم تقاليدهم ومعتقداتهم وشريعتهم، وكانوا يعتقدون أنهم وحدهم الذين يعرفون الله.

ونام عمران وحَنَّة ليلتهما، وما تكاد تغمض عيونهما حتى يفرّ النوم خوفًا، وأشرقت الشمس وقاما يستأنفان سفرهما. كان النهار رائعًا، والحقول مخضرة، والتلال أقل وحشة، والرعاة ينطلقون أمام الأغنام يرسلون أصواتهم العذبة بالغناء القوي فيعبث بأوتار القلوب، والفلاحون يعملون: هذا يبذر الحب، وذاك يحرث الأرض، وثالث ينتظر الثمار من الرب، والفتيات يحملن الجرار في طريقهن إلى الدور، وطويت الأرض، وإذا بأشجار قليلة على جانبي الطريق، وبينها بئر يعقوب، فذهبت حَنَّة تملأ الماء، واستلقى عمران في ظل شجرة، فالبئر مكان اجتماع النساء، في الصباح وفي المساء، وما كان ليذهب إليها رجل.

وعادت حَنَّة وجلست إلى جوار زوجها، وجعلا يتحدثان عن البئر التي حفرها أبوهم إسرائيل، ثم استأنفا سفرهما وفي قلبيهما أمل، أمل الوصول إلى أورشليم، لخدمة المعبد العظيم.

وفيما هما منطلقان إذا بغِلْمان يلعبون، فهزّ مشهدهم أوتار قلبيهما، وهفَت روحاهما إليهم، فما رزقهما الله أولادًا، وبلغا بئر راعوث، فنزلا عندها وقد سرت فيهما بهجة، وطاف برأسيهما ما ورد في التوراة عن هذا المكان الذي عاشت فيه جدتهما الكريمة التي انحدر من نسلها الملك داود.

وناما ليلتهما عند البئر الحبيبة، وإنهما ليستنشقان عبير الماضي، ويتمثلان حوادثه الهادئة التي مرت بجدتهما كحلم لطيف بين مآسي التاريخ، وانقضت الليلة بهيجة، ثم قاما إلى الطريق يضربان فيه، يخترقان الصحراء والحقول، ويمران بالقرى التي كانت تبدو كصناديق من الطين مبعثرة.

بلغا أرباض المدينة المقدسة فخفق قلباهما، لاحت أورشليم شامخة في الفضاء وبدت قبة المعبد الذهبية تتألق تحت ضوء الشمس الوهاج، فأحسّ عمران روحه تخفق بين جنبيه، وطفرت الدموع من مآقيه.

وانطلقا بين التلال المغطاة بالكروم وأشجار التين والزيتون، وانسابا في مسالك المدينة يشعران بالغبطة، حتى وصلا إلى بيت زكريا، فراحت حَنَّة تعانق أختها إليصابات، وصافح زكريا عمران في شوق وترحيب.

ومرت الأيام، وانقطع عمران للعبادة، وكانت حَنَّة وإليصابات تذهبان إلى المعبد، تجلسان في الشرفة المثلثة التي أعدت للنساء، وقد دثرهما إيمان عميق، فالأنوار السماوية تتلألأ، والأصوات الملائكية تتردّد في المكان، فتحلق الأرواح في عوالم من الصفا، والرجال في مسوح الرهبان أطرقوا خاشعين، فانعكست على وجوههم طمأنينة النفوس، وزكريا وعمران يخدمان المعبد، فقد وهبا أنفسهما لله، ربطت بينهما المصاهرة، وألف بين قلبيهما حبهما لله، وجعلا يسارعان في الخيرات، ويدعوان الله رغبًا ورهبًا، وكانا له خاشعين.

وكرَّت الأيام حلوة هنية، وحملت حَنَّة، فهزها الفرح، لأن أعظم ما تفعله فتاة في إسرائيل، أن تنجب لزوجها أولادًا، وشغلت بما في بطنها، فراحت تفكر فيه وتتمنى أن يكون كجده داود.

كانت تقضي جزءًا من نهارها في المعبد، وتصغي جزءًا من ليلها إلى قصص موسى وهارون ودانيال، فكانت تعيش مع الأنبياء، وكانوا محور تفكيرها، فإذا فكرت فيمن في بطنها، أمدّتها ذاكرتها بما رسب في واعيتها على مرّ السنين وكرّ الأيام، ولطالما رأته بعين خيالها نبيًا من أنبياء بني إسرائيل، كانت تراه مرة كالنبي دانيال، وتراه تارة أخرى كالصبي داود يصرع جالوت، ورأته أكثر من مرة كموسى على الجبل يناجي ربه.

ومرض عمران، واشتدت عليه وطأة المرض، فراحت حَنَّة تمرّضه، وشغلت به عما في بطنها، ولم ينفعه حب زوجه وتمريضها، فذهب إلى ربه ليجد ما عمله من خير محضرًا. وتأهبت حَنَّة للعودة إلى الناصرة، وقبل الرحيل انطلقت إلى المعبد، ونظرت فوجدت زكريا قائمًا، فحرك ذلك أشجانها، وزاد في حزنها أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد الذي كان في بيتها، فأطرقت أسفًا، وداعبتها فكرة أضاءت ظلام نفسها، لماذا لا تنذر ما في بطنها لخدمة المعبد، فيقوم بما كان يقوم به أبوه، فيعود إلى البيت شرفه، واطمأنت إلى الفكرة، فشخصت ببصرها إلى السماء، وقالت في حرارة:

- ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ورجعت إلى الناصرة، وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها، ثم جاءها المخاض، ووضعت ما في بطنها، فإذا به فتاة، فنظرت إلى السماء من خلال كوّة في الجدار، وقالت معتذرة:

- ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، وفكرت في اسم لها، وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية، فلماذا لا تسمي ابنتها به تيمنًا؟ شخصت إلى السماء ثانية وقالت:

- ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

تقبل الله مريم بقَبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، فكانت تمضي سحابة يومها مع أمها في خدمة البيت، وتنطلق إلى البئر تجلب لها الماء، وتسقي الأغنام القليلة التي تملكانها، وتذهب في طرقات الناصرة تقضي حاجتها، فإذا جنّ الليل وفد إلى الدار الأقارب، وأخذوا يتجاذبون بأطراف الحديث، وكان حديثهم يدور حول الدين والأنبياء، فكانت تعيرهم سمعها، فذلك الحديث يصادف هوًى في نفسها، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود، فالمدن اليهودية تستيقظ لتتحدث عنه، وتهجع وصدى الحديث عن ملك اليهود المنتظر يتردّد بين جنباتها.

وكبرت مريم، وصار على حَنَّة أن تفي بنذرها، فأخذت ابنتها وانطلقت إلى أورشليم، لتسلمها إلى العبّاد المقيمين في المعبد، ودخلت على إليصابات تنتظر، وأقبل زكريا فذكرت له ما جاءت من أجله.

وذاع بين العبّاد المنقطعين للعبادة أن امرأة عمران جاءت بابنتها تدفع بها إلى من يكفلها، فتنازعوا في أيهم يكفلها، وأراد زكريا أن يستبدّ بها دونهم، فإليصابات خالتها، فقال للمختصمين:

- أنا أحق بها منكم.

- ما أحدٌ أحقَ بها من أحد.

- فما ترون؟

- نرى أن نقترع، فمن خرجت قرعته فإن له حق كفالتها.

وجاء كل منهم بقلم معروف به، وحملوا الأقلام ووضعوها في موضع، وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث أن يُخرج قلمًا منها فأخرج واحدًا فكان قلم زكريا، فقال الرجال:

- لا، نقترع مرة ثانية.

فقال لهم زكريا:

- ماذا تطلبون؟

نلقي أقلامنا في النهر، فأينا جرى قلمه على خلاف جريه فهو الغالب. وذهبوا إلى النهر، وألقوا أقلامهم، فسارت جميع الأقلام مع التيار، إلا قلم زكريا فقد جرى على خلاف جريه في الماء.

فكفّلها زكريا، وأخذها لتكون خادمة من خُدّام المعبد، وخصّص لها مكان للعبادة في الطبقة العلوية، فكانت تصغي إلى النقاش الدائر بين العبّاد، وإلى المعلمين الذين يعلّمون تعاليم الدين، فإذا أسدَل الليل سُدوله، وخلت بنفسها في غرفتها، راحت تقرأ في التوراة عن المسيح ابن الإنسان، الذي سيجيء

من نسل داود ليقيم العدل، ويُنزِل أمراء الأرض والجبارين عن عروشهم، وينزَع أسنان مرتكبي الإثم والشرور، فتشخص إلى السماء بعينيها الواسعتين السوداوين، وتشرد في عوالم واسعة من التأمل والتفكير.

وجاء عيد الفصح، فوفد الحجّاج من سورية ومصر وأثيوبيا وآسيا الصغرى وبابل واليونان، يسوقون أمامهم النحائر، يقدمونها للنحر في المذبح، وأصوات المصلين تتجاوب في المعبد، ولما انتهى العيد، خرجت بنات أورشليم إلى الحدائق، وخرج الحجّاج الشبان خلفهن، يبحثون عن زوجات، ولم تبق في منازل أورشليم فتاة، إلا مريم كانت في محرابها تصلي الله.

وفدت حَنَّة مع الحجّاج، وقابلت مريم، ولما انقضى العيد أخذتها إلى الناصرة تعيش معها أيامًا، ثم تعود إلى محرابها للعبادة والصلاة، وانطلقت القافلة من أورشليم، ومرّ يومان، وفي اليوم الثالث أشرفت على الجبل، كان الربيع قد جاء، فبدت الحدائق في ثوبها القشيب، والحقول كأنما فرشت ببساط من سندس أخضر. أخذت الأرض زخرفها وازّيَّنت، فتلفتت مريم منشرحة، فالجليل قد بدا كقطعة من جنات النعيم.

وانسابت القافلة في طريقها حتى أشرفت على الناصرة، فإذا أشجار السرو والتين والزيتون تغطي سفوح التلال، وإذا البيوت في الوادي خاشعة في محراب الكون العريض، وإذا مريم تمدّ بصرها، فلا ترى من بين تلك الدور إلا دارها الصغيرة، التي نبت في فنائها بعض أشجار الزيتون، وراحت بعض الأغنام تجول فيه.

عادت مريم إلى الناصرة، ولكن روحها هائمة بأورشليم، فصلوات الرهبان تنساب رقيقة عذبة في آذانها، ومشاهد العبّاد تترادف في مخيلتها، ومحرابها الذي تقوم فيه ليلها ونهارها ماثل أمام عينيها.

وجاء الليل بهدوئه وأسراره، وبدأت حلقات السمّار تتجمع في الناصرة، وبقيت حَنَّة ومريم وحيدتين في دارهما، وتصرَّم من الليل أوله، وإذا بطارق يطرق الباب، فقامت مريم وفتحته فإذا قريب وافد للمؤانسة والحديث.

جلس الرجل، وبدأ يتحدث فيما جاء فيه، قال:

- أصبحت مريم شابة، وخير ما تفعله فتاة من بني إسرائيل أن تتزوج، وأن تنجب أولادًا، وقد جئت أخطب مريم.

فأطرقت حَنَّة قليلًا، ثم قالت:

- لمن؟

- ليوسف بن يعقوب.

كان يوسف قريبًا لمريم، وكانت حَنَّة تعرفه، ولكنها صمتت قليلًا، فقال الرجل:

- يوسف شاب كريم، وهو من بيت داود، وإني أزكيه.

فرفعت حَنَّة رأسها وقالت:

- أحبّ شيء إلى نفسي أن أزوج مريم قبل أن أموت.

وتجاذب الرجل وحَنَّة أطراف الحديث، ومريم صامتة لا تنبس بكلمة، حتى إذا انتهت هذه الزورة، ودخلت فراشها، أحسّت سحابة من الأسى تنتشر في صدرها، كانت تسمع في المعبد أن المسيح سيأتي من نسل داود، وستضعه عذراء، وكانت تحلم ككل عذراء في إسرائيل أن تكون أُمّ ذلك النبي المنتظر، أمَا وقد خطبت إلى يوسف بن يعقوب، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل.

وأُعلنت في الناصرة خطبة مريم، وأُجِّل الزواج إلى أن يقيم يوسف له بيتًا تنتقل إليه العروس، وأحسّت مريم شوقًا إلى أورشليم، إنها تفتقر إلى الغذاء الروحي الذي كانت تتناوله في المعبد، فاستأذنت من أمها في العودة إلى محرابها، تمجد الله وتقدّس له، حتى ينتهي يوسف من إعداد عشّ الزوجية السعيد.

كان على يوسف أن يعمل في حانوته بيده، ليدّخر المهر الذي يدفعه للعروس، وما يكفيه لإقامة دار قريبة من دار حَنَّة، وذلك يحتاج إلى وقت طويل، فأهل الناصرة فقراء، لا يدفعون إلا أتفه الأثمان فيما يقوم لهم به من أعمال النجارة، فلم يعترض على عودة مريم إلى أورشليم، لتعيش في المعبد، في رعاية زكريا، قريبها الشيخ المبارك...

وعادت مريم إلى محرابها، تمضي نهارها في العبادة والاستغفار، وتمضي ليلها في التطلع إلى نجوم السماء ومناجاة ربها، وتصل إليها ترتيلات المصلين عذبة تنعش روحها. وفي ذات ليلة، بينما كانت غارقة في ابتهالاتها، أحسّت كأن شخصًا في محرابها، فتلفتت فلم تجد أحدًا، فمشى الخوف في أوصالها، وأرهفت حواسها، واتسعت عيناها السوداوان رعبًا، ومسّ أذنيها حفيف صوت، فغمغمت في فزع:

- من هناك؟

وإذا بصوت عذب يقول:

- أنا رسول ربك إليك.

وغرق المكان في ضوء باهر، فخفق قلبها في شدة، وانبهرت أنفاسها وتفصَّد العرق منها، وانبعث صوت عذب مسّ شغاف قلبها:

- ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

وساد المحراب سكون رهيب، وبقيت مريم في ذهول، حتى إذا أفرخ روحها، أحسّت أمنًا يغشاها، وطمأنينة تُسكب في روعها، فملئت نشوة، وسالت دموع الفرح على خديها، وخرجت ساجدة شكرًا لله رب العالمين.

-2-

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(قرآن كريم)

الهدوء يلف كل شيء، حتى كان زفيف النسيم يُسمع، والضوء الخافت المنبعث من الذبالة يبدد الظلام ويفرش المكان بنور واه لطيف ترتاح إليه النفوس، وكان للمكان قدسية وجلال، ولاحت في الضوء الخافت اللطيف مريم، راكعة في خشوع تبتهل إلى الله، تجري الدموع على خديها من الرهبة والوجد، كان في وجهها نورانية وصفاء، وأقبل زكريا يسير الهوينى، وقد نال منه الكبر، يلوح في وجهه التُقى والصلاح، ودخل عليها المحراب، فوجد عندها فاكهة في غير أوانها فتعجب، وقال لها:

﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾؟

- ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وخرج زكريا، وفتحت مريم التوراة، وراحت تقرأ قصص الأنبياء، فأحسّت قربًا منها، فرسل الرحمن الذين أرسلوا إلى موسى وهارون وداود حدثوها، وبشروها بأن الله قد اصطفاها وطهرها، إن الحوادث التي كانت تقرؤها في شغف، أصبحت تلمسها وتحسها في أعماقها، كانت تتمنى أن تكون كراعوث وراحيل اللتين كانتا بركة على بني إسرائيل، فإذا الملائكة تخبرها أن الله اصطفاها على نساء العالمين.

وراح زكريا يفكر في أمره، إنه قارب الثمانين ولم يرزق ولدًا، وحز في نفسه أن يبقى فردًا وقد مسه الكبر، وتمنى أن يهب الله له غلامًا، ولكن ما كان له أن يطمع في ذلك وإليصابات عاقر، ولكن لما وقع بصره على الفاكهة، أحيا ذلك موات الأمل في نفسه، إن الله الذي يرزق مريم بفاكهة في غير أوانها، قادر على أن يهب له ذرية على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر.

وخرج زكريا على قومه، يفيض وجهه بالبشر، ويخفق في إكبار، واستشعر في نفسه أن الله يعدّ مريم لأمر جليل، فهي من نسل داود، وما زالت عذراء، فمن يدري، قد تكون أم المسيح الذي تنبأ بمجيئه وبشر به الناس.

ودخل محرابه، وسجد في خشوع، وجعل ينادي ربه في حرارة:

- يا رب، يا رب، يا رب.

وصفت نفسه، وتفتحت روحه، وأحسّ كأن ينبوعًا من النور تفجر في جوفه، فبدد الظلام الذي كان يحتويه صدره وشعر كأنما دنا من ربه، فقال:

- ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

وأطرق برأسه خاشعًا، وفاض النور في المحراب، وسمع حفيفًا خفيفًا، فتلفت، فرأى ملَكًا كريمًا، يقول في صوت حلو أخاذ:

- ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

فرفع زكريا رأسه وقال:

- ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؟!

قال الملَك:

- ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

- ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

- ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

وخرج زكريا على قومه، يفيض وجهه بالبشر، ويخفق قلبه بالسرور، ورمز إلى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيًا، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى.

وقنتت مريم لربها، وسجدت وركعت، وابتهلت إلى الله في فحمة الليل، وفي رائعة النهار، وبينما هي في محرابها هبّت نسائم رقيقة، وعبق الجو بروائح زكية، وغرق المكان في نورٍ سماوي، وإذا بالملائكة أمامها، وإذا بِأمْرٍ عجيب ينزل بصدرها، ورفعت بصرها وقالت الملائكة:

- ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أذهلتها البشرى، فاضطربت ونسيت أنها كانت ترجو أن تكون أم المسيح المنتظر، ونسيت ما كانت تعرفه من أن أمه ستحمل به وهي عذراء، فنظرت إلى السماء وقالت:

- ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟

قال:

- ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

واجتهدت مريم في عبادتها، فصَفَت نفسها ورقّت. وجاء الصيف، فكان النهار طويلًا، والجو حارًا، فأحسّت عطشًا، فرفعت قلّتها لتشرب، فلم تجد

فيها ماء، فقامت وهبطت إلى المعبد، فطفقت أصوات المصلين تتضح في مسامعها، وألفت روحها تردّد الصلاة في أعماقها، وذهبت وقلّتها في يدها، وخلّفت المعبد وراءها، ولكن أصواتًا ملائكية عذبة ظلت تردّد الصلوات في الفضاء، فخيل إليها أن الكون كله يمجد الله، وأن الريح تسبح بحمده، وأن كل شيء يذكر اسمه، ففاضت بهجتها، وبلغت البئر وملأت قلّتها، وتأهبت للعودة، ولكنها وقفت تتطلع في عجب، فالدنيا خاشعة، كل شيء هادئ، كأنما الأرض تتلقى وحيًا من السماء، وفجأة سمعت حركة بجوارها، فالتفتت خائفة، فإذا بشابٍ وسيمٍ يشع من وجهه نور، فاضطربت وارتدت وقد اتسعت عيناها رعبًا وانبهرت أنفاسها، وقالت:

- ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

فقال في صوت يقطر رقة وعذوبة:

- لا تراعي.

فقالت ولا زالت في خوفها:

- من أنت؟

- ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

- ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؟

- ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾.

ونفخ الله فيها من روحه، ثم عادت إلى محرابها، وقبعت فيه مطرقة تفكر، فغشيها همّ وقلق، لقد حملت بالمسيح، وستظهر عليها علامات الحمل. فهل يصدقها الناس، سيتغامزون عليها، ويرمونها بالفاحشة، ولن تستطيع لاتهامهم دفعًا.

وراحت الأيام تمرّ وهي تعيش في أفكارها، واجتمعت عند البئر بفتيات يتحدثن. فدار الحديث حول الدين، وجاء ذكر المسيح المنتظر، فرأت مريم أن تعرف رأى الناس إذا كاشفتهم بسرها، فقالت لهم:

- لقد حملت به.

فاتسعت العيون دهشًا، وارتسمت على الوجوه زراية، وجرت على الألسن سخرية مريرة، فانسحبت مريم وهي حزينة، تكاد كبدها تنفطر، وعزمت على أن تطوي سرها في صدرها، ولكن حديث البئر ذاع بين بنات أورشليم، وقال الناس: إن مريم تريد أن تخفي خطيئتها بادعائها أنها حملت بالمسيح، عرفت أنها من نسل داود، فوجدت بذلك مبررًا لدعواها الكاذبة.

وانتشر حديث حمل مريم انتشار الريح، وذاع حتى بلغ الناصرة، فساد القوم وجوم، وراحوا ينظرون إلى يوسف النجار في احتقار، وقاطعوه لأنه جنى الثمرة قبل أوانها.

وعجب يوسف لنظرات الناس وكشحهم بوجوههم عنه، وسأل عما دفع الناس إلى احتقاره، فبلغه ما يقول الناس عنه، فنزل به حزن ثقيل، ولم يصدق ما يلصقه الناس بمريم. إنه يعرفها تقية نقية، وقلبه يوحي إليه أنها لا تأتي فاحشة، وما كان قلبه يخدعه، واستمرّ حديث الناس يؤذيه، فلم يستطع عليه صبرًا، فشد الرحال إلى أورشليم، إلى حيث تتعبد مريم.

انطلق وهو حزين، ونفسه موزعة بين الرجاء واليأس، إذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها، وبراءتها، وإذا أراد أن يبرئها ذكر ما يقول عنها الناس، فبقي فريسة لأفكاره لا يهدأ له بال، ولا تغمض له عين، فيستريح من الرؤى التي تهاجمه في قسوة، فتمزق روحه، وتفتت كبده.

وبلغ أورشليم، وتقدم خافق القلب، مضطرب النفس، وقد شغل بإحساساته عن كل ما حوله، وقابل مريم، فألفاها قد رقّ جسمها، واصفرّ لونها، وكلف وجهها، ونتأ بطنها، فانقبض، ونزل بقلبه حزن عميق وغشي وجهه إظلام، ولكنه كبت ما يقاسيه، فقد كانت نفسه كإسفنجة تمتص الآلام ولا تطفح بها، فقال لها وهو مطرق، لا يرفع عينيه إليها:

- بلغني ما يقول الناس عنك، وقد حرصت على أن أُميته وأكتمه في نفسي، فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفَى لصدري.

فقالت مريم في ثبات:

- فقل قولًا جميلًا.

- ما كنت أقول إلا ذلك، فحدثيني: هل ينبت زرع بغير بذر؟

- نعم.

- فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟

- نعم.

- فهل يكون ولد من غير ذكر؟

- نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر. والبذر إنما كان من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر، أولم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة الشجر، بعد أن خلق كل واحد منهما وحده؟ أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته؟

قال يوسف:

- لا أقول ذلك، ولكني أعلم أن الله بقدرته على ما يشاء، يقول لذلك كن فيكون.

- أولم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟

- بلى.

وأطرق مفكرًا، وقع في نفسه أن الذي بها شيء من عند الله، ولم تتركه لفكره، بل قالت له:

- إن الله بشرني بالمسيح عيسى بن مريم.

كان يوسف مؤمنًا تقيًا، يعتقد أن الله سيرسل المسيح إلى بني إسرائيل نبيًا، من صلب داود، وستضعه عذراء، ومريم من تلك السلالة الطاهرة، وهي كفء لحمله، فلم يمار في ذلك، ولم يكذبها. ودخل لينام، فإذا بملك يقول له:

- يا يوسف، إن ما في بطن مريم من عند الله وقد اختارك الله لتكفل رسوله، ولتكون راعيًا له.

فهب يوسف من نومه منشرحًا، وسجد لله شكرًا، أن اختاره حارسًا لمسيحه، الذي سيرسله هداية لبني إسرائيل.

-3-

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾

(قرآن كريم)

رأى رهبان المعبد أمارات الحمل تظهر على مريم، فاستعظموه ولم يدروا على ماذا يحملون أمرها، وساءهم أن تلوّث المعبد من كانوا يظنونها أتقى أهل الأرض طرًا، إنهم تخاصموا في أيهم يكفلها، وقد شبّت بينهم لا تغادر محرابها إلا لضرورة، إن هذا الأمر يقلقهم ويحيرهم ويعصر نفوسهم في أسى، فاجتمعوا يتشاورون، يديرون قِداح الرأي بينهم، فرأوا أن يحاكموها، فإذا ظهر أنها فسقت رجموها، كما تقضي شريعة موسى.

وراح زكريا يذكر لهم ما رأى في محرابها، ويذكرهم ببشارات الأنبياء بالمسيح، وأن هذه التي يتهمونها ظلمًا هي الأم الموعودة، التي يترقب بنو إسرائيل وليدها، إن زوجته ما حملت إلا ببركتها، فلولاها لما رزقه الله يحيى، واستمرّ يبرئها مما نسبوه إليها، ولكنهم أعرضوا عنه، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، وقالوا: ما انبرى للدفاع عنها إلا لأنه كفيلها، ولأن أمها أخت زوجته إليصابات.

وخيَّم الظلام، ودثر أورشليم في غلالته السوداء، ونام الرهبان ينتظرون الصباح، ليحاكموا مريم ويرجموها، ودخل يوسف إلى فراشه، وما أسلم جبينه للرقاد، وأغمض عينيه حتى هتف به هاتف:

- يوسف قم، وأخرج مريم، فالقوم يأتمرون بها.

هبّ يوسف من نومه، فأعدّ حماره، وانطلق إلى مريم وهو يترقب، فأخبرها بما أُوحي إليه، ثم حملها على حماره، وانطلقا في سكون الليل في الطريق الضيق، حذاء الأسوار الهائلة التي تبعث في النفوس الرهبة، تلك الأسوار التي بناها داود حول المدينة المقدسة، وتركا الطرق المتعرجة، وانسابا بين التلال الصُفر، ثم خرجا إلى الفضاء، فصفرت الرياح، ومشت الرعدة في أجسامهما. كانت الليلة شديدة البرودة، وأرسل القمر ضوءه ينور الطريق، فبدت الصحراء الواسعة كبساط أصفر فضيّ وَشَّاهُ الحسك. وانطوى الليل وأشرقت الشمس فدبت الحرارة في الأجسام المقرورة.

ولمحا بئرًا فذهبا إليها، ونزلا عندها حتى إذا استراحا من السفر، قاما يستأنفان رحلتهما، وغابت الشمس في الأفق الغربي، ولاح الطريق الأبيض

الذاهب إلى بيت لحم، فانسابا فيه، وظهرت المدينة بأشجار السرو العالية، والمنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التي تظللها، وأخذت بيت لحم تتضح أمام عيونهما، فخفق قلباهما، وبدت الأغنام بين الأشجار كقطع من الجليد متناثرة.

وبلغا باب المدينة، فإذا النسر الروماني فوقه، وإذا بجند من جنود الرومان، واقفون يُحصِّلون الضرائب، فالملك هيرودس يَجْبيها في كل مكان، ليرفعها إلى أسياده في رومية، إنه يفعل كل ما يرضيهم وإن كان في ذلك إرهاق لشعبه، فغاية ما يبغيه أن يرضى عنه سيده أوغسطس قيصر.

دخلت القوافل بعد أن أدّت الضرائب، ومرّت الجمال كالأطياف، وراحت حوافر الحمير تضرب الأرض فترتفع أصواتها، ودخل يوسف ومريم وقد أرخى الليل سدوله، وانسابا في طريق قامت على جانبيه أشجار الزيتون.

كانت ليلة شديدة البرودة، وكان القمر في ليلة تمامه، يرسل أشعته، فيسدل على الكون وشاحًا فضيًا أخاذًا، وكانت النجوم في رقعة السماء تتلألأ، كأنما جلتها يد ساحرة.

وارتفعت نغمات مزمار، فإذا براعٍ يرعى غنمه في الليل، وإذا بالغنم قد استكانت ورفعت رءوسها، كأنما الأنغام تسكب النشوة في أجوافها فنظرا، فقفزت إلى ذهنيهما صورة داود وهو يرعى الغنم، فقد رعاها في هذه البقاع التي غطيت بالأعشاب، فكانت مراعي طيبة.

وسارا، وما ابتعدا إلا قليلًا حتى أحسّت مريم آلام الوضع، فتلفتت فوجدت حقلًا منبسطًا، إنه الحقل الذي جاءت إليه جدتها راعوث، تجمع منه الحنطة وهي كسيرة الفؤاد، بعد موت زوجها ومجيئها مع حماتها نُعمِي، ووجدت ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم، فرأت أن تتحامل حتى تصل إلى نزل قريب، ولكن فاجأها المخاض إلى جذع نخلة، فاحتمت به تضع ما في بطنها.

كانت الريح تزمجر، والقرّ شديدًا يجمد الأطراف، فوقف يوسف بعيدًا، وقد أطرق أسًى، فمريم تضع أمل بني إسرائيل المرتقب في الخلاء، ليس لها وطاءٌ إلا الأرض، ولا غطاء إلا السماء.

وهدأت الرياح، وهبّت نسائم عبقة بالعطر النفاذ، وتغير الجو فإذا الليلة الباردة تنقلب ليلة رائعة من ليالي الربيع، وسقط من السماء نورٌ باهرٌ أضاء المكان، وانبعثت ترتيلات ملائكية هزّت نفس يوسف، وجعلته ينظر وهو لا يدري، أهو سابح في حلم من أبهج الأحلام أم هو يقظان.

غشي النور أبصار الرعاة، فنظروا مدهوشين، ومسّت آذانهم الأصوات الملائكية التي كانت تسبح لله القادر، فامتلئوا عجبًا، وفطنوا إلى أن المرأة

التي التجأت إلى الشجرة إنما تضع مولودًا مباركًا له شأن عظيم.

وطاف برأس مريم خاطر، جاءت ساعة الوضع، وعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها، فماذا يقول قومها عنها، فحزنت وبرّح بها الحزن، فقالت:

- ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾.

ووضعت ابنها، وما لمس الأرض حتى ناداها من تحتها:

- ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

وحمل يوسف مريم ووليدها، وذهب إلى نزل وضيع، وانطلق الرعاة إلى المدينة يقصّون ما رأوه في الليلة العجيبة.

وخرج ثلاثة رجال من فارس، يرصدون نجوم السماء، فهم يقرءون ما سطر في سجل القدر، ليرفعوه إلى ملكهم. كانوا على علم بالنجوم، وما كان الملك يتخذ أمرًا قبل أن يستمع إلى نصحهم ورأيهم.

كان الملك يحكم شعبه، وهؤلاء الحكماء يحركون الملك، فهم الملوك الحقيقيون: يعلنون الحروب، ويقتلون الرجال، ويوحون -إن أرادوا- بالسلام، فهم القوة المحركة في البلاد، يقبضون على أزِمَّتِها باسم العلم والدين.

شخص ثلاثتهم إلى السماء، يرصدون النجوم المتلألئة في الرقعة الزرقاء، قال قائل منهم:

- طلع الليلة نجم جديد.

- هذا نجم لم نره قبل الليلة.

- ولد الليلة ملك.

- إنه ملك اليهود.

- الملك الذي جاء ذكره في التوراة، ذلك الذي سيرسله الله سلامًا.

- حقًا هذا نجمه.

- وأين ولد؟

- هناك في أرض اليهود.

- فلنخرج إليه، نعلن تصديقنا به، وإيماننا بالله الذي أرسله.

وتجهزوا للرحلة الطويلة، وحملوا هداياهم، وكانت من الذهب والمرّ واللبان، وامتطوا رواحلهم، وخرجوا من فارس وعبروا دجلة والفرات، وانسابوا في الصحراء على امتداد البحر الميت ليبلغوا أرض اليهود، ويسألوا عن المولود الذي بزغ نجمه في المشرق.

بلغ الرجال الثلاثة صهيون، وانطلقوا يتلفتون، إنهم يرون القوافل غادية رائحة، والعربات التي تجرها الثيران ذاهبة إلى الحقول أو خارجة منها، فظلوا في سيرهم حتى رأوا سوقًا، فهبطوا عن رواحلهم، واندسوا بين الجماهير راحوا يتنسمون أخبار المولود الذي رأوا نجمه في السماء، فلم يهتدوا إليه، واقترب أحدهم من عين من عيون هيرودس، وقال له:

- بزغ في المشرق نجم ملك اليهود الذي وعد الله أن يرسله سلامًا، فجئنا من بلادنا نبحث عنه، ألا تدري أين ولد؟

- ماذا تريدون منه؟

- جئنا نؤمن به ونصدقه.

- لم أسمع بهذا قبل الآن.

واستمرّ الرجال في بحثهم وتنقيبهم، وذهب رجل هيرودس إلى القصر، وكان الملك في قصره الجديد في صهيون، يفضي إليه بالنبأ العجيب، فبعث هيرودس رجاله يحضرون له هؤلاء الذين جاءوا من فارس يوسوسون في آذان الشعب، أن ملكًا جديدًا قد ولد، فيزعزعون ثقة الشعب فيه.

خرج رجال الملك إلى السوق، وجاءوا بالرجال الثلاثة، فلما مَثَلوا أمام هيرودس الأكبر، قال لهم:

- من أنتم؟

- نحن أشراف قومنا، شرَّفنا العلم والدين، نقرأ النجوم، ونعرف الغيب، وما كان ملكنا يقضي أمرًا قبل أن يرى رأينا فيه.

- وما الذي جاء بكم إلى أرضنا؟

- هذا أوان نبيّ أظلنا زمانه، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم، نرقب بزوغ نجمه، فلما بزغ شدَدْنا الرحال إليه، نصدقه ونؤمن به، ونقدم إليه هدايانا.

- فما بال الذهب والمرّ واللبان قد اخترتموها من بين الأشياء كلها؟

- تلك أمثاله، لأن الذهب هو سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبي هو سيّد أهل زمانه، ولأن المرّ يُجْبَر به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء، لا يرفع أحدًا غيره.

- وما أدراكم أنه يظهر هنا في أرضنا؟

- إنه رسولٌ إلى بني إسرائيل، إنه ملك اليهود.

انقبض هيرودس، ولكنه أخفى عواطفه، والتفت إلى من حوله وقال:

- عليّ بالكهنة.

- فجيء بهم، فقال لهم:

- اسمعوا ما يقول هؤلاء، ثم أنبئوني أين ولد هذا المولود.

أصغى الكهنة إلى الرجال الثلاثة، ثم قالوا:

- يولد المسيح، نبيّ بني إسرائيل، في بيت لحم مدينة داود.

فتطيَّر هيرودس، وانفجر في جوفه مرجل غضبه، وتحركت عوامل الحقد فيه، إنه طاغية لا يطيق أن يعترض سبيله إنسان، ويا طالما قضى على أفراد أسرته حتى لا ينافسه في ملكه منافس، وإذا بهؤلاء الغرباء يَقْدُمون من بلاد بعيدة، ليخبروه أن وليدًا قد جاء إلى الدنيا ليستلَّ منه عرشه، لو أنه يدري أين هذا الوليد لقتله، ولاستراح منه، ولكنه لا يدري أين هو، فكظم غيظه، وجعل يداري ما به، وقال متكلفًا الرقة:

- اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك، فإني أرغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره.

وانطلق الرجال الثلاثة إلى بيت لحم، ودلفوا إلى الطريق الأبيض الذي قامت على جانبيه أشجار الزيتون، اخترقوا الحدائق، وهم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون، وراحوا يبحثون ويُنَقِّبون، ولكنهم لم يهتدوا إلى الطفل المبارك الذي تجشموا أهوال السفر ليُقدِّموا إليه هداياهم، وكنوز قلوبهم العامرة بالإيمان واليقين.

وأقبل الليل، وبزغ في السماء نجم، إنه نجم ذلك النبي الموعود، فتطلعوا إليه فإذا بالنجم يسير، كأنما يهديهم سواء السبيل، فساروا في أثره، وقلوبهم تخفق في حنايا الضلوع.

وتلألأ النجم فوق نزل متواضع كأنما يسير إليه، فقالوا في فرح:

- إنه هنا، في هذه الدار.

وتقدموا خافقة قلوبهم، يشعرون برهبةٍ ما أحسوا بها قبل الآن، فطالما تقدموا إلى الملوك ثابتي الجنان، يسري في أجوافهم خوف، وطرقوا الباب هونًا، فإذا بالباب يُفتح وإذا بصوتٍ يدعوهم للدخول، فتقدموا خاشعين، وفي ضوء المصباح الخافت تبينوا المكان، فإذا مريم جالسة وعلى ركبتيها ابنها الصغير، تحيط به هالة من نور، ووقف إلى جوارها يوسف، الرجل الذي فتح لهم الباب، ودعاهم إلى الدخول.

دنا الرجال من الطفل الصغير، فنزل بقلوبهم أمن، وانداحت في أجوافهم بهجة، لأن رحلتهم لم تذهب هباء، وقاموا إلى مريم يقدمون إليها ما يحملون من الذهب والمرّ واللبان وقالوا لها:

- خرجنا إلى هنا حاجِّين، وجئنا من فارس نعلن تصديقنا برسول رب العالمين.

ونام الرجال الثلاثة فرحين، وعزموا على أن يرجعوا إلى هيرودس ويخبروه أنهم عثروا على المسيح، ليؤمن به ويصدقه، وما دار بخَلَدهم أن هيرودس وأهل بيته هم أعداؤه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيًا.

وأغرقوا في نومهم، فرأوا من يقول لهم:

- لا ترجعوا إليه، ولا تُعْلِموه بمكانه، فإنما أراد بذلك أن يقتله.

وانصرف الرجال إلى بلادهم، وقد أخذوا طريقًا غير طريق هيرودس، الذي يبغي القضاء على رسول الله إلى بني إسرائيل.

-4-

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

(قرآن كريم)

بقيت مريم في البيت لا تستطيع مغادرته، فما كان لامرأة وضعت ما في بطنها أن تترك البيت قبل أن يمضي على ذلك أربعون يومًا حسب شريعة موسى، وتمت الأيام، فخرج يوسف ومريم والوليد، وانطلقوا في رحلتهم الخالدة، إلى الناصرة، إذا نزلوا بئرًا أطلق عليه من بعد بئر مريم، وإذا استظلوا بشجرة حجت إليها الأجيال، وإذا مدّوا أبصارهم إلى مشهد من مشاهد الكون، هُرِعَ الفنانون والرسامون والكتّاب على مرّ العصور يستوحون الطريق الذي يختارونه الآن، ليمدهم بالمشاعر والانفعالات التي تيسر لهم إبراز لوحاتهم، أو شحن كتبهم بالإحساسات النابضة.

كانت رحلة هينة، لم يستشعروا فيها آلام النفس التي كانت تضنيهم، فقد أقلع الخوف بعد أن صدَق الله وعده، ووهب لمريم ابنها في بيت لحم اليهودية، إن الله حارسهم ومؤيدهم ومُظهرهم، فلن تفتّ في أعضادهم الشدائد، ولن تعرف قلوبهم القلق وإن حاقت بهم الكروب، سيمتثلون لأوامر الله صابرين، حت يُتم نوره ولو كره الكافرون.

وانقضت أيام، وانطوى الطريق، ولاحت تلال الناصرة تكللها أشجار السرو والزيتون، وانساب الركب الصغير إلى البيوت الناصعة. وظهر يوسف ومريم والطفل الصغير في شوارع الناصرة، فتطلع الناس إليهم في احتقار، وأشاحوا عنهم بالوجوه زراية، فلم تطرق مريم عارًا، بل ظلّت مرفوعة الرأس، كانت على يقين من أنها تضم إلى صدرها أشرف مخلوق.

وأمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار، فخفّ إليها بعض أقاربها يُقَرِّعُونها أمام الناس، مُظهرين غضبهم مما فعلته، مُبَرِّئين أنفسهم من إثمها الذي ارتكبته، لمحتها أمها، فانطلقت إليها، الخزي يكللها، والحزن ينهس قلبها، والنار تلسع روحها، ودموع العار تجري على خديها.

نظر القوم إلى مريم، مريم التي سميت باسم أخت هارون التقية الصالحة، تيمنًا به، فإذا بها تأتي إليهم وعلى يديها ابنها الناطق بفاحشتها، وقالوا لها:

- ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

طأطأت حَنَّة رأسها في ذلة، وتمنّت لو أن الأرض تنشق وتبلعها، فوقع ذلك المشهد شديدًا على نفسها، عاشت تقية نقية، ما دار بخَلَدها أن الزمن يدّخرها ليومٍ كيومها هذا الذي تمنّت لو لم تشرق شمسه، أما مريم فكانت هادئة، ولم تنبس بكلمة، بل أشارت إليه أن كلموه، فقالوا في غضب:

- إن سخريتها بنا أفجر من فاحشتها، كيف نكلم من كان في المهد صبيًا؟ وإذا بالصبي يتكلم، فتنعقد ألسنة الجميع دهشًا:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

انجلت عن صدر امرأة عمران الهموم، وانداحت فيه نشوةً هزّتها، فانهمرت دموع الفرح من مآقيها.

ودخلت مريم دار أهلها، فإذا أشرقت الشمس جلست أمام الباب تداعب ابنها، وتمدّ بصرها إلى ما حولها، فتحسّ انشراحًا، فالأرض ازَّيَّنَت وارتدت ثوبها الأخضر القشيب، فكانت كأنما ردّت إلى شبابها، والتلال تُوِّجت بأشجار التين والزيتون فلاحت في النور زاهية، وانطلقت الأغنام ترعى العشب هادئة بريئة، براءة ذلك الطفل الراقد في حجرها يهزّ يديه ورجليه في مرح.

خيل لمريم أن الدنيا كلها راكعة تحت قدميها، تتنافس في أن تُدخِل البهجة على قلب ابنها: النسيم يهبّ رُخاءً ينعش الأفئدة، والشمس ترسل أشعتها لطيفة تبعث في النفس الأمل، والطيور ترفرف فوقها في فرح، والأغنام تَفِدُ إليها تتمسح بها، فتضع يده على رءوسها، فتشرق بسمة على ثغره، إن قلبه الصغير ليهفو إلى وداعة الغنم.

كانت الطمأنينة تلُفّ كل شيء في الناصرة، فقرّت عين مريم، وسكن الهدوء قلبها، ولكن ما كانت هذه السكينة لتدوم طويلًا، فما كان الله يدع من يُعدّه للرسالة للراحة والهدوء والدعة، إن الله يُحَمِّله المشاق، ليُعَوِّده الاحتمال والصبر، ويقسو عليه بالحرمان، ليغرس في نفسه العطف، ويرسله يضرب في الأرض، ليُزيد في كنوز قلبه الغالية.

ومن هناك من صهيون جاء الفزع. كان هيرودس يعيش في قصره الجديد بين أشباح الماضي، يرتجف فرَقًا على عرشه، فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابًا، كان حفيد خادم في هيكل أشقلون، واغتصب المُلك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين، وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكًا عليهم، فما

كانوا يُمَلَكون عليهم إلا رجلًا من بني إسرائيل، فأزهق أرواحهم، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة.

كان الخوف من أن يهوي عن عرشه يقلقه، ويثير ضراوته، فإذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته، أمر بخنق زوجته الأميرة مريمني، لأنه ظن أنها تعمل على أن تعتلي عرشه، ولم يشفع لها عنده أنها المرأة الوحيدة التي خفق قلبه بحبها، وسفك دماء الفَرِّيسِيين لأنهم تنبئوا بزوال ملكه، وانقضاء سلطانه، وقتل بعض أولاده، ليقضي على وساوسه التي نبتت في صدره، فقد حامت حولهم شكوكه، وظن أنهم يتآمرون على ملكه.

كان همه الأوحد أن يوطّد سلطانه، ولما كان على يقين أن الشعب يبغضه ولا يؤيده، استمد التأييد من القياصرة الرومان، خضع لهم، ودفع إليهم الضرائب، وثبَّت النسر الروماني على المعبد، وعلى أبواب المدن، وأحاط نفسه بجنود مرتزقة، لا هدف لهم إلا سلب ما تصل إليه أيديهم.

كان حاكمًا قاسيًا فظًا غليظ القلب، غارقًا في الآثام، يَلِغُ في الدماء، فطالما ذبح كهنة ونبلاء، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء بالتنكيل والتعذيب، وطالما سلب لينفق على آثامه، حتى سلب قبر داود، وراح يعبّ كأس اللذات، وعرف عنه الشذوذ، وضاق الناس به، فذهب وفد من اليهود إلى روما يشكون سوء إدارة ذلك الطاغية، فقالوا إن الذين أصابتهم نقمته أسعد حالًا ممن يعيشون في كابوس حكمه، ولكن أوغسطس قيصر صمّ أذنه، فهيرودس خادم أمين لروما، يطبق قوانينها، ويتَّبع سياستها، ويُعلِّم أبناءه بها ليرضعهم حبها، ويغرس فيهم الخضوع لها.

وفد المجوس إليه وأنبئوه أنهم جاءوا من بلادهم لما بزغ نجم ملك اليهود، فأنشب القلق أظافره في جوفه، وانتظر على كره منه أوبتهم ليخبروه بمكانه، فيقضي عليه، ويستريح من أوهامه وطال انتظاره، ولم يرجع إليه الرجال، فعيل صبره، وكشَّر الوحش القابع في أغواره عن أنيابه، فأمر -كما أمر فرعون موسى من قبله- أن يقتل جميع الرضّع في بيت لحم، حتى يقضي على ذلك المولود الذي تطيَّر به، وأقلقه وأنزل بصدره المخاوف والهموم.

كان ذلك في القصر الهائل الشامخ على جبال صهيون، أما في الناصرة فقد عسعس الليل، وأغلق يوسف النجار حانوته، وعاد إلى البيت، إنه يقاسي شظف العيش، كان الفلاحون والفقراء يعهدون إليه بأعمال النجارة، وما كان معهم ما يجزونه به، وتناول طعامه، وراح يقرأ في التوراة، حتى انقضى من الليل ثلثه، ودخل إلى فراشه ونام، ورأى في نومه من يهتف به:

- يا يوسف، قم واحمل الطفل وأمه واخرج إلى مصر، فهيرودس يبحث عنه ليقتله. فهبّ يوسف من نومه، وقلبه يدق في شدة، وأخذ المصباح الخافت، وانطلق إلى حيث كانت مريم، فألفاها نائمة تضمّ إليها ابنها في حنان، فناداها:

- مريم، مريم.

ففتحت عينيها السوداوين الواسعتين، ونظرت فوجدت يوسف أمامها، وتبينت على الضوء الخافت قلقًا في وجهه، فقالت:

- ماذا حدث؟

- انهضي، إن الله يأمرنا أن نخرج إلى مصر.

وقامت مريم تعدّ عدّتها لسفرٍ طويل، وتَجَهَّز يوسف بالزاد والماء، ولما تم كل شيء حملت مريم ابنها، وركبت حمار يوسف وسروا في سكون الليل في طرقات الناصرة الضيقة، وأخذوا يطوون الطريق المتعرج الذي انساب بين التلال كثعبان.

وخرج جنود هيرودس إلى بيت لحم، وانقضّوا على الرضّع انقضاض الكواسر، ينزعونهم من الصدور الخافقة بالحنان، ليذبحونهم ذبح الأغنام، بين النواح والعويل والصراخ. وسجا الليل وقد تجللت بيت لحم بسواد الحداد، وانبعث من دورها النحيب والنشيج، فما تركت سيوف هيرودس بيتًا إلا طعنته في سويداء الفؤاد.

وأشرقت الشمس والمدينة غارقة في الدماء، والركب الصغير الهارب من وجه الطغيان ينطلق رويدًا رويدًا في جوف الصحراء، ونظر يوسف خلفه، ثم أخذ بزمام حماره، وتقدم يخوض محيط الرمال في ثقة، فقد كان على يقينٍ أن الله يرعاهم، وأنه لن يضيعهم.

-5-

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.
(قرآن كريم)

ارتفعت الشمس، ومرت الساعات ولا شيء غير الشمس والرمال والسماء، لا حركة ولا حس، كأنما فارقت المكان الحياة، حتى الرياح خمدت، ولولا الحرارة المنبعثة من الرمال، لخُيِّل للركب الصغير المنطلق في سبيل الله أن كل شيء قد مات.

وظلوا في سيرهم، ليلهم ونهارهم، حتى بلغوا طريق القوافل، فراحت مشاهد التوراة تتمثل حية أمام أبصارهم، ففي هذا الطريق بيع يوسف بدراهم معدودة، وفي نفس الطريق سرى يعقوب بأهله ليدخلوا مصر بسلام، بعد أن صار يوسف على خزائن الأرض، وفي هذا الطريق ذهب موسى هاربًا من وجه فرعون بعد أن قتل المصري.

كانت تربطهم بهذا الطريق ذكريات وذكريات، ذكريات حلوة مشرقة بالأمل، وذكريات مُرّة تغلفها الأحزان. ساروا يجترون حوادث الأيام! وما دار بخَلَدهم أن هذه الرحلة التي يكابدون مشاقها إنما خلّدت على الأيام.

واستمروا في سيرهم بين شروق وغروب حتى أشرفوا على طور سيناء، فخفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة، فقد تجلى الله لموسى على هذا الجبل، وكتب في الألواح وصاياه، وذهبوا إلى الوادي المقدس طوى، فخلع يوسف نعليه، ووضعت مريم ابنها على الأرض، فشخص ببصره إلى السماء، وخرَّت هي ساجدة، كانوا في تلك البقعة الطاهرة يناجون الله.

ودخلوا مصر آمنين، وتركوا الصحراء، وانطلقوا في الحقول، وجاء الغروب، فراحت الشمس تغوص في الأفق البعيد، فبدت جداول الماء في لون العقيق، ثم انقلب لونها إلى أصفر فضي، وسرعان ما انقلب إلى لجين، وبدا النخيل كأشباح سود سامقة في ظلال السماء، واختفت الصقور والحدأة والغربان، وخفتت زقزقة العصافير.

مضى النهار وبقي الشفق، فما نشر الليل أجنحته على مصر بعد، وخشع الكون وهدأ، وصار كل شيء لا ظل له، وراحت النجوم تبزغ واحدة إثر أخرى في رقعة السماء، وأشرف القمر على الفضاء، فأنار السبل، وغلّف الدنيا بسحره، وانعكس ضوؤه الفضي على صفحة النيل فبدا كمرآة.

رنا يوسف ومريم إلى النيل رنوة صداقة، فقد حمل موسى لما ألقته أمه فيه إلى قصر فرعون، ليشب في كنفه إمعانًا في السخرية منه، وشبّ موسى وكبر وأرسله الله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل، وظل صابرًا حتى أخرج قومه من العبودية والذل المهين.

انفعل يوسف لتلك الذكريات، وانفعلت لها مريم، وكان لها في أنفسهما وقع السحر، قوَّت عزائمهما، وثبتت إيمانهما، وراح عيسى ينظر إلى ما حوله بعينيه الصافيتين، وأشرق على فمه الصغير ابتسامة رضا، فضمته أمه في هيام ووجد.

ودلفوا إلى منف، فإذا العجلات تعج في الطرقات، وإذا الجنود في غدو ورواح، وإذا الناس في إقبال وإدبار، وإذا الأعمدة فارهة عالية، وإذا المعابد هائلة شاهقة، وإذا التماثيل قُدَّت من الصوّان، وإذا الجلبة والضوضاء، فأزعجهم ذلك الصخب المنبعث من أرجائها، بعد الهدوء الشامل المسيطر على الحقول والصحراء. وأدركهم النَّصَب، فهبطوا بها يقضون ليلة.

ثم ولد النهار، فخرجوا إلى منف يجوسون خلالها، فألفوا المتاجر منتشرة على جوانبها، مكدّسة بالبضائع والحلي وأدوات الزينة، والعجلات الفاخرة تنطلق في دروبها. إنها مدينة غنية، ينعم بالعيش فيها السادة الفارغون أصحاب الإقطاعات، أما الفقراء فيحيوْن فيها حياة السائمة. فرأوا أن يغادروها إلى الخلاء حيث الدعة والصفاء.

ذهبوا شمالًا، ونزلوا عين شمس، وما انتظمت أنفاسهم بعد الرحلة الطويلة القاسية، حتى أخذ يوسف يبحث عن عمل يقتات منه، إنه نجار، فامتهن النجارة، ووفقت مريم إلى العمل في حقل من الحقول، فما أشرف أن يأكل المرء من كسب يده.

كانت مريم تخرج مع الشمس، وتعود مع الغروب، وفي وقت الظهيرة تستظل بشجرة جميز عجوز، وتتناول طعامها، ثم تستأنف عملها، المهد في منكبها فما كانت تأمن على ابنها أحدًا، والوعاء الذي تجعل فيه السنبل في منكبها الآخر، فإذا جنّ الليل ذهبت تصلي لله وتدعوه، ثم تنام في المكان الوضيع الذي أعده صاحب الأرض لمبيت عماله.

ومرت شهور وأعوام، وعيسى في مصر، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها، وجريان النيل وزيادته ونقصانه، وبذر الحب وترقب الثمار من الرب، ويصغي إلى أمه تقرأ له التوراة، وتعلمه الدعاء والصلاة، فكان في هجعة الليل يرنو إلى النجوم المتلألئة في سماء مصر الزرقاء، الصافية صفاء القلوب المؤمنة، ثم يأخذ في مناجاة ربه فيحس على صغره، كأنما ملئ قلبه نورًا وحكمة.

وتعاقب الليل والنهار، ومرت الشهور إثر الشهور، وجرت الفصول خلف الفصول، وكرَّت السنوات، وترادفت الفيضانات، وزاد عمر الزمن سنوات،

وعيسى في مصر يرى قسوة الحكام، وذلك الثراء الذي يخرج من الطين دون عناء، ليبدد في الهواء.

وفي ليلة من الليالي دخل على أمه، فألفى الوجوم يخيم على المكان، فنظر إليها فعرف في وجهها الحزن، فدنا منها وقال: - ماذا حدث يا أماه؟

- سرقت خزانة صاحب الدار.

- يا أم أتحبين أن أدله على ماله؟

- نعم يا بني.

- قولي له أن يجمع لي من في الدار.

ذهبت مريم إلى الرجل، والتمست منه أن يجمع كل النازلين بداره، فلما اجتمعوا، عمد عيسى إلى رجلين منهم، أحدهما أعمى والآخر مقعد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى، ثم قال له: - قم به.

فقال الأعمى في مسكنة:

- أنا أضعف من ذلك.

فقال عيسى:

- فكيف قويت على ذلك البارحة؟

فلما سمعوه يقول ذلك، بعثوا الأعمى حتى قام به، فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة.

قال عيسى للرجل:

- هكذا احتالا لمالك البارحة، فقد استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينيه.

فلم يستطع الرجلان نكرانًا، فقالا: - صدق.

وردّا المال إلى الرجل، فجاء إلى مريم وقال: - يا مريم، خذي نصفه.

- إني لم أخلق لذلك.

- فأعطيه ابنك.

- هو أعظم مني شأنًا.

-6-

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾. (قرآن كريم)

تحت ظلال نخيل أريحا قام قصر هائل.. إنه قصر هيرودس الذي شيده لمسرّاته، يجتمع فيه بجواريه وبمن يصطفي من زوجاته اللائي أكمل عدتهن عشرًا، كانت الراقصات العاريات يتثنين في أبهائه، وأصوات المغنيات تتردّد في جنباته، وضحكات المجون تعلو على صخب الندماء والمخمورين.

ولفّ القصر -على غير عادة- سكون، وخيم عليه هدوء شامل، وراح الجنود والخدم يسعون هونًا في طرقاته، فالملك الطاغية طريح الفراش، يشكو ما ألم به من أسقام. كان مسجى في سريره الفاخر، يغوص في الديباج، ولكن القروح كانت تأكل جسمه، والدود يسري فيه.

اصفر لونه، وذبل وغارت عيناه، ولكن لم تختف قسوته وضراوته، فإذا ضاق بمرضه حطم كل ما تصل إليه يداه.

وذاع في البلاد خبر مرضه، ولما كان الشعب يبغضه من كل قلبه، استراح الناس إلى هذا النبأ، وباتوا يترقبون الخلاص القريب، إن هي إلا أيام ويموت الطاغية، ويتنفس الشعب بعد حكم قاس دام أطول السنين.

وشاع في أورشليم أن هيرودس الكبير قد مات، فعم الفرح وأمر المعلمان اليهوديان يوداس ومتياس تلاميذهما أن يُهبطا النسر الروماني الذهبي الذي ثبته على باب الهيكل الكبير؛ ليتخلصوا من ذلك العار الذي دمغهم، وجثم على صدورهم ككابوس بغيض.

ونُكِّس النسر الذهبي، وارتفعت أصوات السرور، ولكن لم تدم هذه البهجة طويلًا، فقد كان في عمر الشقي بقية، وبلغته وهو في مرضه أنباء هذه الثورة، فبعث أقسى جنوده ليؤدبوا الثائرين، وفي طرقات أورشليم دار القتال، فانهزم الثوار، ورُفع النسر ثانية على باب الهيكل الكبير، وجيء بأربعين من تلاميذ يوداس ومتياس، وأراد هيرودس الراقد في فراشه أن يبرهن على قدرته وجبروته، فأمر بحرقهم أجمعين.

واشتدت وطأة المرض عليه، وفكر في أمره، فساءه أنه سيموت ولن يذرف عليه أحد دمعة، وحركت هذه الفكرة الوحش الكامن في نفسه، فأرسل إلى رؤساء القوم ومشايخ الأسرات أن يوافوه إلى قصره في أريحا، وأمر أن يذهبوا إلى ملعب الخيل، ليرفِّهوا عن أنفسهم ساعة ثم يأتوا إليه،

وانطلق سادات القوم إلى هناك، وما دلفوا إلى المكان حتى أغلقت دونهم الأبواب.

وأرسل إلى أخته سالومي، وأسرّ إليها أن تقتل هؤلاء الرجال يوم موته، فما ينبغي أن يكون ذلك اليوم يوم فرح وابتهاج، بل ينبغي أن يكون يوم بكاء ونحيب، وأن يسيطر على البلاد حزنٌ عام، ولن يكون ذلك إلا إذا قتل أشراف القوم وساداتهم.

أضناه المرض، وضاق بالقروح المنبثقة في جسمه، فهاجت قرحة نفسه، وفكر في أن يتخلص مما يقاسيه من كرب وعذاب. فهم بالانتحار سأمًا من الجحيم الذي يحيا فيه، فالقمل يسري في بدنه، والنار تسري في روحه، فتعذبه عذابًا ما أقساه، ولكن أخفقت محاولته، فلا زال له نصيب من الضنى في دنياه.

وفي سكرات الموت لم يفارقه طبعه، خيل إليه أن ابنه أنتيباس يتعجل موته، ليتربع في الحكم بعده، فأمر بقتله، ولكن لم يجرؤ أحد على أن ينفذ أمره، فما كان هناك من يصغي إلى رجلٍ يلفظ آخر أنفاسه، ويخرج مع تلك الأنفاس أمره بهلاك من سيئول إليه السلطان.

واستسلم الطاغية للموت، وأشباح ضحاياه تطوف بفراشه، مستنزلة عليه لعنة السماء، انسل الروح الخبيث من الجسد الذي لم يعرف إلا الخطايا؛ ولم يسعَ إلا إلى الشر والفساد، وما ذاع نبأ هلاكه، حتى اشتعلت الثورات، فالشعب يريد التخلص من حكم أسرة هيرودس الطاغية، فما يريد أن يحكمه انتيباس ولا أرخيلوس. لكن أرخيلوس اعتلى العرش، ولم ينفذ وصية أبيه في أشراف القوم، لا حبًا فيهم، بل خوفًا من الفتنة التي أطلت بخطمها.

وطالب الثوار أرخيلوس بمعاقبة نصحاء هيرودس ومستشاريه فلم يفعل فأعلنت أورشليم العصيان، وشاء أرخيلوس أن يعلم رعاياها، إنه ليس أقل ضراوة من أبيه، فأمر بذبح ثلاثمائة منهم في الهيكل.

ثار الأردن، وثارت اليهودية، ودعا يهوذا الجليلي إلى حرب روما للتخلص من نيرها، ففي ظلها يستبد بهم أمثال هيرودس وأرخيلوس، فاجتمع الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتلوها، وحوصر الفيلق الروماني الذي كان يحميها.

ونادي قائد من القواد بنفسه حاكمًا على أريحا، وافتتح عهده بأن دمّر قصر هيرودس وأشعل فيه النار.

ورفع علم الثورة في جميع المدن اليهودية، وخفّ الناس إلى يهوذا الجليلي يؤيدونه في ثورته، ويشُدُّون أزره في حربه ضد روما.

وغضب أوغسطس في روما فأمر حاكم سوريا أن يؤدب العصاة، فخرجت الجنود العربية والفرسان الجرمان الذين كانوا تحت إمرة القائد الروماني،

ودخلوا فلسطين، يقتلون الرجال، ويتركون المدن طعمة للنيران، ففر الثوار منهم إلى التلال، فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع.

وسيطر الرومان على أورشليم، ورفع الحصار عن حاميتها ونزل الكرب بالمدن اليهودية، فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود، وبعثوا سفراء إلى أوغسطس يلتمسون منه أن يُنَصِّب عليهم ملكًا يعيد الهدوء والسلام.

أصغى أوغسطس إلى الوفد القادم إلى روما، يلتمس صيانة الأرواح، فألفى الفرصة سانحة ليقسم فلسطين إلى ولايات، تُشْغَل بحزازاتها الداخلية عن النسر الروماني الجاثم عليها، يكاد يكتم منها الأنفاس.

قسم فلسطين إلى ولايات، ونَصَّب أبناء هيرودس الخمسة حكّامًا على تلك الولايات، فهيرودس عبدٌ مخلص لروما، غذَّى أبناءه بحبها، وسيتنافسون في إرضاء النسر الروماني، وحمل الضرائب، وخيرات البلاد إليه. واحتفظ بأرض اليهودية، وجعلها ولاية رومانية، يحكمها حاكم روماني، يتلقى الأوامر من روما، فما كان ليترك أورشليم، القلب المقدس، في يد حاكم قزم من حكام الولايات.

وهدأت العواصف التي اجتاحت فلسطين، وعاد الصنّاع إلى أعمالهم، والتجار إلى تجارتهم، والتلاميذ إلى مدارسهم، ولكن لم يرضَ المؤمنون الذين مُلئت قلوبهم حقدًا على الحكم الروماني، والقوانين الرومانية، كانوا يرون طريق الخلاص في العودة إلى شريعة موسى، فلن يعرف الناس راحة القلب، وهدوء النفس، ولن يقوم العدل، وتسود المحبة مكان التشاحن والبغضاء، وتنقشع المظالم، وتنمحي الفوارق، ويتساوى الجميع، ويعطف الأغنياء على الفقراء، ويحب الفقراء الأغنياء، إلا في ظل حكومة تستمد قوتها من السماء.

مات هيرودس في قصره في أريحا، وعيسى في مصر، يشبّ غريبًا، بعيدًا عن أهله.

وجاء الليل، وذهب يوسف لينام، فرأى في نومه من يقول له:

- قم وخذ الصبي وأمه، واذهب إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي.

وراح يوسف يتجهز للعودة، حتى إذا تمّ كل شيء، انطلق الركب المبارك في الطريق الذي خرج منه موسى وقومه، إن موسى خرج خائفًا يترقب، يخشى أن يلحق به فرعون، أما يوسف وعيسى ومريم فينطلقون آمنين، تداعبهم الآمال إذ هم مقبلون على قومهم، ينتظرون وعد الله ومكتوبه.

خلَّفوا مصر وراءهم ووطئت أقدامهم أرض فلسطين، وانطلقوا لا يرون إلا الصحراء المترامية، في الطريق الموصل إلى بيت لحم، فقد كان يوسف

يبغي أن ينزل بها، ففيها ذكرياتٌ حبيبةٌ إلى نفسه، وهي قريبةٌ من أورشليم، لا يفصل بينهما إلا ساعاتٌ قليلةٌ على ظهر حمار، ولكنه علم وهو في الطريق، أن أرخيلوس خلف هيرودس، ولمّا كان يعلم أنه سر أبيه، انطلق إلى الجبل، ثم إلى الناصرة، الوطن الأصلي ومنزل الجدود.

هبطوا الناصرة، يحيون فيها حياة بسيطة، في الصباح تذهب مريم إلى البئر تملأ جرّتها، ثم تعود لتعنى بشئون بيتها، ويذهب يوسف إلى حانوته، يعمل في النجارة، وعيسى معه يحمل الكراسي والصناديق إلى أصحابها، فما كان يذهب إلى المدرسة، بل كان يعمل ليُحَصِّل قوته.

وفي ذات يومٍ أقبل أحد الفَرِّيسِيين إلى حانوت يوسف، فرنا إليه يوسف في قلق، فالفَرِّيسِيون هم رجال الدين المُتزمِّتون الذين يراعون تطبيق حرفية شريعة موسى، أوصى موسى بالطهارة فراحوا يفتشون على الإسرائيليين، ليتحققوا أنهم يسيرون على الناموس، كانوا يأمرون بغسل كل شيء، ولو كان الماء يُغسَل لأمروا بغسله.

تناول الفَرِّيسِي الأوعية، وجعل يعاينها، فلما اطمأن إلى نظافتها، راح يجوس خلال الحانوت، ويمرر أصبعه على الحيطان، ويوسف يرنو إليه، حتى إذا انتهى الرجل وخرج راضيًا تهلل وجه يوسف انشراحًا، أما عيسى فكان يتطلع إلى ما يجري أمامه في امتعاض، فما كان يطمئن إلى مثل ذلك الرياء.

وجاء يوم السبت فخرجوا إلى المعبد، يوسف وعيسى إلى حيث يجلس الرجال، ومريم إلى المكان المعد للنساء. وجاء خادم المعبد بالتوراة، وقام رجل ووقف على الشرف، وراح يقرأ سفر التكوين، في صوتٍ عذبٍ خشعت له القلوب.

وقُضيت الصلاة، واجتمع اليهود حلقات يتناقشون، فضاق عيسى بنقاشهم، وانسل من بينهم، وانساب في طرقات الناصرة، وراح يرتقي تلًا، وجلس يرنو إلى السماء.

كان يحب الوحدة، ويحس راحة إذا انفرد بنفسه ورنا إلى السماء. وطالما قالت له أمه إن الله هناك، فكان ينظر في شرود، فيمتلئ غبطة، فروحه تتصل بملكوت الخالق المتعال.

وهبَّ النسيم من البحر رقيقًا، فداعب أوراق التين والزيتون، فبلغ أذنيه حفيف الشجر، فخيِّل إليه أن الكون يفضي إليه بأسراره.

وانحدرت الشمس، وراحت تختفي وراء التلال، وهو ينظر، يخيَّل لمن يراه أنه وَسْنَان، ولكنه هائم في الفضاء، يفتح قلبه للمعرفة الهابطة عليه.

-7-

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

(قرآن كريم)

سجا الليل، وخيَّم على أورشليم ظلام ثقيل، وتلألأت النجوم في السماء، ولكن نورها كان خافتًا لا يقوى على مصارعة أمواج الظلام، وقامت التلال المحيطة بالمدينة موحشة، وهجع الكون، وسيطر سكونٌ يبعث الرهبة في القلوب، وهبَّت النسائم خفيفة، فكأنما كانت أنفاسه يردّدها في انتظام.

وخرج يحيى يسعى في الطرقات المتعرجة، وسار وحده في حلكة الليل، يتوقّى الأخاديد الموحشة، وينطلق إلى جوار التلال الجُرْد الشامخة كأنها المردة والشياطين، فلا يستشعر رهبةً، بل يرى في هذه الوحشة جمالًا تنفعل له نفسه، وتشيع فيها طمأنينة عجيبة. ما كان يرتجف فرَقًا من الظلام، كما يرتجف أترابه من الصبيان، بل كان يسري فيه وهو مشغول عنه بالنور المنبثق من روحه، يبدّد له ظلمات الحياة.

وبلغ الهيكل الكبير، فإذا الهدوء شامل، وإذا الظلام سائدٌ في أروقة الهيكل، وإذا الرهبان يغدون ويروحون، وإذا العبّاد راكعون في خشوع، ومدّ يحيى بصره، فألفى أباه زكريا قائمًا يصلي في المحراب، فوقف يرقبه متفتح الروح، فمشاهدة العبّاد وصلواتهم تنزل على قلبه بردًا وسلامًا.

وظلّ يحيى في مكانه، يردّد في حرارة صلاته، وانتهى زكريا من ابتهالاته، وتأهب للعودة إلى داره، فألفى ابنه شاخصًا إلى السماء وفي عينيه دموع، فانشرح صدره، وتريّث يرنو إليه في وجد، ثم ذهب إليه ولفّ ذراعه حوله، وسارا في ردهات الهيكل حتى خرجا إلى الطريق.

وما لاح الصباح حتى خرج يقلّب وجهه في السماء، ويمدّ بصره إلى مُلْك الله، فيحسّ رهبة وجلالًا، ويخشع قلبه، ويعمل فكره، كان يرى الله في كل ما تقع عليه عيناه، شبّ في بيت النبوة، فرأى أباه في محرابه يعبد الله ويقدّس له، فعرفه وصار يهابه ويخشاه.

وانطلق وهو مشغول في طرقات بيت المقدس المغبرة، فلمحه أترابه من الصبيان، فهُرِعوا إليه وقالوا له:

- يا يحيى، اذهب بنا نلعب.

فقال لهم وهو ذاهب في طريقه:

- ما للعب خلقت.

ثم دلف إلى الهيكل الكبير، فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان، وعليهم مدارع الشَعْر، وبرانس الصوف، وهم يعبدون الله في خشوع، فتفتحت نفسه، وهَفَت روحه إليهم، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه، وسكنت الطمأنينة قلبه، وأحسّ هدوءًا عجيبًا.

وبقي في الهيكل هانئًا، تهيم روحه لتتصل بالله، ثم قام وخرج إلى طرقات أورشليم، وسار شارد اللبّ، يقلب الفكرة التي احتلت رأسه، وعاد إلى الدار، فذهب إلى أمه وقال لها:

- يا أماه، انسجي لي مدرعةً من شَعْر، وبرنسًا من صوف، حتى آتي إلى الهيكل، وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان.

فنظرت إليه أمه وقالت:

- حتى يأتي نبي الله زكريا، فأُؤامِره في ذلك.

وجعل يحيى ينتظر مجيء أبيه، وتعلقت روحه بالعبادة، فعزم أن يكرّس حياته لله، يعبده في قنوت، إن أصوات المصلين تمسّ أذنيه عذبةً رقيقة، وإن صدى صلواته في نفسه يشرح صدره، ويسكب في قلبه نورًا طاهرًا لألاءً، يرى على ضيائه جمال ما صوّره المبدع الخالق من بدائع، تُنزل البهجة بأفئدة المؤمنين.

وسمع وقع أقدامٍ، فأرهف حواسه، ودخل زكريا وقد مسّه الكِبَر فنظر يحيى إلى أمه، كأنما يوحي إليها أن تكلمه، فقالت إليصابات:

- إن يحيى قد طلب مني أن أنسج له مدرعة من شَعْر، وبرنسًا من صوف.

فالتفت زكريا إلى ابنه وقال:

- يا بني، ما يدعوك إلى هذا، وإنما أنت صغير؟

فنظر الصبي إلى أبيه بعينين يشعّ منهما بريق الذكاء وقال:

- يا أبت، أما رأيت من هو أصغر مني ذاق الموت.

نطق الصبي بالحكمة، إنه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لأخراه، إنه يريد أن يدّخر ليومٍ شديد، لا ينفع فيه إلا ما قدّمت يداه، إلى يوم يجد ما عَمِلَه من خيرٍ محضرًا. فانشرح قلب زكريا، والتفت إلى زوجه، وقال:

- انسجي له مدرعة من الشَعْر، وبرنسًا من الصوف.

ووهب يحيى نفسه للمعبد، يصلي فيه ولا يفارقه، فتفتَّقت الدنيا أمام عينيه، وكشفت له عن أسرارها، كان يصغي إلى الكَتَبَة والفَرِّيسِيين العاكفين على

العبادة، ولكن الحكمة التي يستنبطها من خشوع الليل، وصخب النهار، وزئير الرياح، وهبوب النسيم، أعظم مما يلتقطه من المعلمين الرافلين في رغد العيش. كانت مواعظهم تخرج من الفم لتذهب في الهواء، أما آيات الله فكانت تترادف عليه تُصْقِل نفسه، وتُغذّي روحه.

كانت زقزقة عصفورٍ، أو لألأة نجمٍ، أو هبوب موجةٍ من البرد، أو لفحةٍ من الحر، تترك في روحه أثرًا أعمق من موعظةٍ طويلةٍ لا تخرج من القلب، كانت روحه كوعاءٍ على قمةٍ شامخةٍ لا يملؤه إلا ما ينزل من السماء.

-8-

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

(قرآن كريم)

نما عيسى واشتد عوده، وبلغ الثانية عشرة، فأصبح بحسب شريعة موسى بالغًا «جادول»، يمتاز بالروح، ويُعامَل معاملة الرجال، فما صار لأحدٍ عليه سلطان، إنه ابن الناموس «ابن هاتوراه»، يفعل ما يوحيه إليه عقله، ويتحمل كل ما تجني يداه.

وكان عليه أن يختار مهنة، ففي هذه السن ينبغي لكل يهودي أن يحترف حرفة، كان يخرج مع يوسف إلى حانوته، ولكنه لم يكن قد احترف النجارة، فكان عليه أن يختار بمحض إرادته العمل الذي يمارسه. وجاء يوسف إليه يعرض عليه أن يعمل معه، فقبل الفتى، وذهب يتدرب ليكون نجارًا.

وراح يعمل في الحانوت المتواضع من شروق الشمس حتى غروبها، فإذا جنّ الليل خرج يقلّب وجهه في السماء، وإذا جاء السبت ذهب إلى المعبد، وما تنقضي الصلاة حتى ينسلّ إلى التلال يصغي إلى موسيقا الطبيعة، فهمسات النسيم، وتفتح الأزهار، وتعاقب الليل والنهار، تملأ قلبه علمًا وحكمة.

أشرف موسم الحج على أورشليم، فالفصح، ذلك العيد الذي اتخذه اليهود تخليدًا لذكرى خروجهم من مصر، على وشك الحلول، كان على كل يهودي أن يحجّ مرة كل سنتين، فتأهبت مريم للحج، ولما كان ابنها قد بلغ، أصبح عليه أن يخرج مع الخارجين.

فرح عيسى لأنه سينطلق إلى أورشليم، إلى المدينة التي طالما حدثته عنها أمه، والتي رآها بعين خياله شامخة تناطح السحاب، سيخرج من الناصرة المحصورة بين التلال، إلى العالم الواسع الفسيح، ليرى بدائع خلق الله التي تنطبع في نفسه، وتعمل على صقلها.

راحت مريم تتجهز للرحلة، فتملأ أباريق الزيت وتضع التين المجفف في الأكياس، ثم تَصُرُّ بعض الأطعمة الجافة في صُرّةٍ لا تفتحها إلا في أورشليم، وتعد صُرَّةً أخرى لطعام الطريق، وظلت في غدو ورواح، حتى إذا جاء المساء جلست تعدّ عباءة جديدة لابنها، عباءة بيضاء من الصوف سيبدو فيها رائعًا ككاهن صغير يشعّ من وجهه نور التُقى والصلاح.

وحل آذار، فهبّت نسائم الربيع تنعش القلوب، وخرج الحجّاج من بيوتهم، وتجمعوا في سوق الناصرة، قبل الانطلاق إلى أورشليم، ووضعت الأحمال على حمار، وحمل يوسف صُرَّةً، وحمل عيسى صُرَّة، وانطلقوا يحدوهم فرح عظيم.

وتقاطر الناس من بيوت الناصرة البيض، وازدحمت السوق بهم، حتى إذا انتظم عقدهم، تقدم أَسَنَّ سبعة بينهم ليسيروا على رأس القافلة، وفصلت العير، وانسابت في الطريق الضيق بين التلال المغطاة بأشجار السرو والزيتون، وهبطت إلى الطريق الجيري متدفقة إلى سهل يزرعيل.

كان الربيع يمس الكون بيده الساحرة، فأخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنَت، وبدت سنابل القمح في ضوء الشمس كأمواج من الذهب، وقامت الورود حمراء وصفراء وزرقاء على جانبي الطريق، فكانت الحقول كثوب عروس وشي باللؤلؤ والزبرجد والياقوت.

سارت القافلة على ضفة نهر قيشون، فراح عيسى يصغي إلى خرير المياه، فكان له في أذنيه وقع التسبيح، وراح يدور بعينيه فيما حوله، فيحسّ كأنما شَفَّت منه الروح، ودخلت القافلة إلى يزرعيل العاصمة ذات المباني الشاهقة، ثم سارت إلى جبل جلبوع المتقشف، كان عاريًا من كل ثوب، فما كانت الأمطار تهبط عليه لتنسج له ثوبًا من ثيابها الخُضْر الزاهية، التي تجود بها على الوديان والسفوح. وخاضت القافلة رمال تاناس، ثم لاحت «ماجِدّو» في الأفق البعيد.

وارتفعت أصواتٌ عذبةٌ رقيقة، تسري مع النسيم، كان الفرح يداعب النفوس، فانساب في المشاعر أنغامًا حلوة، تُشيع البهجة في الصدور، وطويت الأرض. وبلغ الركب عين غانم، فنزلوا يبيتون ليلتهم، في أحضان الطبيعة التي سَخَتْ بالجمال، حتى بدا المكان كجنات النعيم.

وأقبل الحجّاج من كل صوب إقبال الروافد إلى النهر الكبير، أقبل حجّاج كفر ناحوم وحجّاج المجدل، وانضموا إلى حجّاج الناصرة، وأخذ الرجال يتحدثون إلى الرجال، والنساء إلى النساء، والأطفال يلعبون ويجرون في مرح، زالت الفوارق، وتدانت القلوب، فالجميع متوجهون إلى الله بقلوبٍ صافيةٍ، عامرةٍ باليقين.

ووضعت مريم الطعام، وكان من زيتونٍ وعسل، فلما فرغوا منه، قام يوسف يجوس بين الحجّاج الذين كانوا يتسامرون في سرور، وفيما هو في سيره، إذ قابل صديقه زَبَدِي، فصافحه في حرارة، وعرض عليه أن يرافقهم في الطريق، وكان مع زَبَدِي ابناه يعقوب ويوحنا، وكانا في مثل سن عيسى، فراح الغِلْمان يتحدثون، يعقوب ويوحنا يذكران البحر والمراكب، فهما يعاونان

أباهما صياد الأسماك في عمله، وعيسى يتحدث عن الله وملكوته، فعيناه لا تتطلعان إلا إلى السماء.

وأسدل الليل ستائره، وأخذت الأصوات تخفت، ورفرف النعاس، فتناول عيسى غطاءً، ونام مع يعقوب ويوحنا ابني زَبَدِي تحت النجوم.

وأشرقت الشمس، فهبّ الناس من نومهم، وقاموا يتأهبون لاستئناف رحلتهم، حمل الفقراء أمتعتهم، وقادوا حميرهم وبغالهم، أما الأغنياء فأسرع عبيدهم يحملون عنهم الفراش الوثير، وانطلق الركب في طريقه، ولاحت حدائق التين وغابات الزيتون. وخلّفوا تلال السامرة الجميلة التي تبدو كغادة أبرزت مفاتنها، واقتربوا من بئر يعقوب، فأغذُّوا السير، ليحطوا الرحال عند البئر، ويستريحوا من وعثاء السفر الطويل.

وانقضى الليل، ووُلد النهار، فدوَّى في المكان قرع الطبول، فقام الحجّاج يستعدون للسير، وفصلت العير، وانطلقت في قطار طويل، النساء على الدواب، والرجال آخذون بزمامها، والغِلْمان يجرون ويلعبون ويضحكون.

الأرض تُطوَى تحت أقدامهم، ها هم أولاء يمرون بشيلوه، ثم بجبعة شاول، ثم ببيت إيل، وها هو ذا النهار ينسحب بعد أن قطعوه، وأقبل الليل وبئر راعوث على مرمى حجر، الأشجار عندها تبدو لهم كأملٍ حلوٍ مرتقب، فنزلوا يسقون ويطعمون.

وفي البكرة انسابوا في الطريق، ولاحت لهم أورشليم، فخفقت القلوب في الصدور، فمدينة داود المقدسة قائمة أمامهم، الأبراج والقصور شامخة في الفضاء، عالية في كبرياء، والهيكل العظيم يتألق في الشمس كجوهرة تخطف الأبصار، والدور البيض غارقة في الضوء، وقصر هيرودس على جبل صهيون يرنو إلى المدينة كأنما يعدّ عليها أنفاسها.

ونظر عيسى إلى أورشليم، فأحسّ قلبه ينجذب إليها، إنه يراها بروحه، ويشعر بقدسيتها تراق في نفسه، إنه يحبها بكل مشاعره وإنه ليخيّل إليه أنها تبادله عواطفه.

واندفعوا إلى الوادي حيث قابلهم سفراء عن المعبد مرحبين بمقدمهم، وتفرقت الجموع، وراحت كل أسرة تهتم بشئونها، تبحث عن قريب لها في المدينة تقضي عنده موسم الحج. ولما كانت الشريعة تحرّم أخذ نقود مقابل إيواء الحجيج، فمن لا أقارب له ولا أصدقاء يقاسي في إيجاد مأوًى له، فراح كثيرٌ من الناس يقيمون لأنفسهم أكواخًا صغيرة من حُصُر البوص، ونزل آخرون في العراء، وزخرت أورشليم بآلاف الوافدين من سورية في أرديتهم الوطنية، ومن بابل في ملابسهم السود، ومن آسيا الصغرى وروما وفلسطين، وراح يوسف ومريم وعيسى يشقّون طريقهم بين الجموع، حتى بلغوا بيت

زكريا، فصافح زكريا يوسف وعيسى، واحتضنت مريم خالتها إليصابات، وراحتا تتبادلان القبلات.

وفي الصباح ذهبت الأسرة إلى السوق لشراء الزيوت والعطور، ثم انطلقت إلى المعبد، كان الصيارفة جالسين أمامهم أكداس النقود، يستبدلون العملات المصرية والبابلية والعملات الأخرى بشاقل إسرائيل، وكان تجار الأغنام يعرضون على الحجّاج خرافهم وعجولهم، وجلس تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدمونه قربانًا لله، وأخذ يوسف يشتري أضحية، فما ساق معه خروفًا من الخراف التي عنده، خشية أن ينفق في الطريق، أو يصاب بإصابة تجعله غير لائقٍ للتضحية، فلا يُقدِّم إلى الله قربانًا إلا إذا كان بارئًا من العيوب. وذهب عيسى ومريم مع الناس إلى صندوق النذور يضعون فيه صدقاتهم.

ونظر عيسى، فألفى حلقات العلماء، وقد جلس كل كاهن على شرفٍ عالٍ، يحيط به تلاميذه، فهفت نفسه إليهم، أحسّ رغبة في أن يذهب يصغي إلى ما يقولون، ويسألهم عن بعض ما يجول في خاطره، فهذه الزيارة تركت في نفسه آثارًا، لم يعجبه بعض ما رآه، وهو يريد أن يعبر عما يخالجه، وهمّ بالذهاب إليهم، لكن أمه جذبته من يده، ليدخلا يقدمان صلاتهما لله رب العالمين.

كانت شرفات النساء تعج بالزائرات، والمعبد يموج بالمصلين، وارتفعت الأصوات خاشعة، شُحِنَت إيمانًا وطهرًا، فأشرقت الوجوه بالنور، فقد كانوا يقدّمون إلى الله القلوب.

وقضيت الصلاة، وخرجت الأسرة إلى أورشليم، كان هِلّيل العظيم موضع احترام اليهود، كان سقاءً يحمل الماء، وعالمًا من أبرز علماء بني إسرائيل، وكان صديقًا وفيًا لعمران أبي مريم، فذهبت الأسرة لزيارته، وتحدث هِلّيل وعيسى يلقي إليه سمعه وهو مشغوف.

وتجاذبوا أطراف الحديث، وتكلم عيسى، فألفى هِلّيل قلبه ينجذب إليه، فالحكمة تتدفق من فم الفتى الصغير، وما أتم عيسى حديثه حتى قال هِلّيل في إكبار:

- ذريةٌ بعضها من بعض، إنك ابن حق لإبراهيم الخليل.

وتتابعت الأيام، وعيسى يذهب إلى المعبد، في عباءته البيضاء، يجلس إلى حلقات العلماء يعيرهم سمعه، وتنبعث في قلبه نشوة، فحديث الدين والأنبياء إلى قلبه حبيب.

وجاء ميقات التضحية، فخرج يوسف وعيسى وزَبَدِي وولداه يوحنا ويعقوب، وذهبوا إلى قاعة الإسرائيليين، وكانت تزخر بالحجّاج يقودون القرابين، وصعد يوسف إلى المذبح، وذبح خروفه، وتلقى الكاهن الواقف عند المذبح بعض دمه

في فلجانة من الذهب، وأعطى تلك الفلجانة إلى كاهن آخر، وهذا أعطاها آخر، وراحت تنتقل من يدٍ إلى يد، حتى بلغت الكاهن الأعظم، فألقى الدم في المذبح الكبير.

وارتفعت في القاعة الأخرى أغنيات الليفيين وقرع الطبول ورنين الأجراس، ولكن عيسى شغل عن تلك الأصوات بالمشاعر النابتة في جوفه، والمشاهد التي تجري أمام عينيه.

تصَرَّمت أيام العيد السبعة، وتأهب الحجّاج للعودة إلى دورهم، وخرجت القوافل من أورشليم، وقفل ركب الناصرة وكفر ناحوم والمجدل راجعًا في نفس الطريق الذي جاء منه، وانقضى اليوم الأول، ونزل الناس عند بئر راعوث، ونظرت مريم فلم تجد ابنها، فسرى في قلبها قلق، وراحت تنقب عنه فلم تهتدِ إليه، فخفق قلبها رهبةً، وذهبت إلى يعقوب ويوحنا ابني زَبَدِي تسألهما عن عيسى، فأخبراها أنهما لم يرياه مذ خرجا من أورشليم، فزادت مخاوفها، واستمرت في بحثها تسأل كل من تقابلها عن ابنها، ومرّ الليل وهي في قلقها وأرقها، وما لاح نور الصباح حتى عادت ويوسف إلى أورشليم، يبحثان عن ابنها.

وراحت تمرّ على الأسرات التي تعرفها في أورشليم تسأل هذا وذاك عن عيسى دون جدوى، فزادت مخاوفها، وأخذت تفحص عن كل غلام تراه بعينيها السوداوين القلقتين، وانقضى النهار ثقيلًا بغيضًا، وأقبل الليل ومضى ومريم في قلق وحيرة. وما أقبل الفجر حتى خرجت تستأنف بحثها.

كانت تبحث في الأسواق، وطرقات المدينة المتعرجة، وعند سور الملك داود، وعند الآبار ولكنها لم تجد له أثرًا، فدثرتها رهبة، وعصر الأسى قلبها، وطفرت الدموع من عينيها.

وانقضى اليوم الثاني كسابقه، ذهاب هنا وهناك، وعيونٌ تتلفت في كل مكان، وقلبٌ ينزف أسًى أو حزنًا، ولكن ما من أثرٍ له، ووفد الليل ومريم تكاد تسقط من الإعياء.

وفي اليوم الثالث تذكرت ما كانت نسيته، إن ابنها قد هفت روحه إلى المعبد، وأمضى معظم أيام العيد بالقرب من حلقات العلماء، فلماذا لا يكون هناك؟ إنها بحثت عنه في كل مكان ولكنها لم تذهب إلى الهيكل.

هُرِعَت مع يوسف إلى المعبد، وفي حجرة من حجراته لمحته، عيسى بعباءته البيضاء جالسًا على الأرض وسط المعلمين، فخفق قلبها في شدة، وراح الخوف ينقشع عن صدرها، ليحلّ مكانه طمأنينة وأمن، ونظرت فإذا ابنها بين شيوخ أجلاء، اشتعلت رءوسهم شيبًا، كان هناك هِلّيل العظيم، وابنه الحاخام سيمون وشَمّاي الكبير، ونيقوديموس، وأكابر بني إسرائيل، فداعب

قلبها فرح، ولكنها لم تجد في ذلك غرابة، فقد كانت على يقين أن الله يعدّه ليكون معلمًا لمن هم أعلم من هِلّيل وشَمّاي وسيمون.

ونادي يوسف:

- عيسى.

وانطلق إليه وأخذه من يده، وعاد به إلى أمه، فضمته إلى صدرها في حنان، وقالت له:

- لماذا فعلت هذا بنا، لقد بحثنا عنك وانتابنا خوف وحزن، وخفنا أن نفقدك.

فنظر إليها في هدوء وقال:

- ما كان الله ليضيعني.

وخرجوا من أورشليم، وسرَوا وقد خلَوا بالكون، فجعل عيسى يفكر فيما سمع، كان ما سمعه رائعًا بالغ الروعة، ولكن ارتفاع الشمس وهبوطها، وبزوغ القمر وأفوله، وهدوء الليل وتألق نجومه تمده بحكمة أروع مما سمع، كان في قلبه كنوز من العلم والحكمة، تفوق كل كنوز العلماء والرهبان، فهؤلاء حصَّلوها بالدرس وحفظوها في الصدور، أما هو فقد وهبها له العليم، وغرسها في قلبه، وجعلها تجري فيه مجرى الدم.

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(قرآن كريم)

عاد عيسى إلى الناصرة، واستأنف العمل في حانوت يوسف، كان حاضرًا بجسمه، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء، أصبح يحب الليل، لأنه فيه ينفرد بنفسه وبالله، إذا أراد أن يناجي ربه ابتهل إليه في خشوع، وإذا أراد أن يصغي إليه فتح التوراة وقرأ الآيات.

وأحب العزلة، فإذا جاء يوم السبت، ذهب إلى المعبد، فإذا قضيت الصلاة انسل إلى قمة التل الذي بنيت عليه الناصرة، يقف بين أزهار الجبل المتفتحة، ويملأ رئتيه بالنسيم العليل الذي يداعب شعره الأسود، ويمدّ بصره إلى ما حوله، فيرى حقول التين، وبساتين النخيل، والمنازل البيض ساجدة كعابد في محراب الله.

ويمسّ أذنيه رفيف الطيور، وحفيف الشجر، وزفيف النسيم، فيصغي إليها كأنما يتلقى وحيًا من السماء، كان يحسّ وهو في عزلته شفافيةً في روحه، ورقةً في قلبه، وصفاءً في نفسه، فكان يخيّل إليه أنه امتزج بالكون، أو أن الكون ذاب فيه.

كان قلبه ناصعًا أنصع من الثلج الذي يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون، وروحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل في يوم صاف هدأت عواصفه، ونامت رياحه.

كان أترابه من الصبيان يتلقون علومهم في مدارس الرِّبِّيين ومدارس الكَتَبَة، أما هو فكان يتلقى الحكمة في مدرسة الله، تحت أشجار التين، وفي الحقول في الظهيرة، وتحت نجوم الليل، كان يستمد حكمته من السماء الصافية، والسحب المتلبدة، وزمجرة الرياح، وهبوب النسيم، وقيظ الحر، وقرّ الشتاء، حتى الخشب الذي يصنعه بيديه، يجد فيه مادة لتفكيره وغذاء لروحه، تتلمذ لثلاثة علماء: العمل، والطبيعة، والتوراة.

كان يجالس الفقراء ويستمع إلى شكاتهم، فقد كان فقيرًا، ويحادث الخطائين دون أن يلتفت إلى نظرات الاستنكار التي تصوّب إليه، ولم يكن خطاءً، بل كان ذا قلب كبير، يرحم ضعفهم، ويرى أنهم أحقّ بالرعاية والعطف من المتزمِّتين المتظاهرين بالتقى والصلاح، كان إنسانًا يغفر ضعف الإنسان.

أصغى إلى الكَتَبَة والفَرِّيسِيين، ولكنه لم ينفعل لمواعظهم، فكلماتهم تخرج من الفم كلماتٌ ميتة بلا روح، فلا تجد طريقها إلى القلب، يقول الفَرِّيسِيون ويردّدون القول: إذا جلس اثنان يتحادثان ولم يكن حديثهما عن الشريعة، كان اجتماعهما في سبيل الشيطان، قولٌ منمقٌ لكن ما كانت العبرة باللفظ، ولكن بأثره في الفؤاد.

الفَرِّيسِيون ينطلقون في الطرقات يتجسسون على الفقراء، ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم، ولكنهم لا يهتمون كثيرًا بطهارة النفس، فالفواحش تُرتَكب دون أن يحركوا ساكنًا، فإنما كل ما يهمهم نظافة الثوب!

وأصغى إلى كبار الحاخاميين في المعبد في موسم الحج، فألفى شريعة موسى البسيطة قد عُقِّدت، وتفرعت مذاهب، فما يحلله هِلِّيل يحرمه شَمّاي، فأعرض عن حلقات السفسطة والجدل ومعارض الكلام، وأقبل بنفس متفتحة على الكون يغترف علمًا وحكمة من مَعِينِه الرقراق.

أكبّ على عمله في حانوت يوسف النجار، وأخذ يشكل قطعة الخشب التي في يده في مهارة، ويبذل جهده ليجعلها ملساء، إنها ستوضع حول رقبة ثور ثم يُشدّ إلى المحراث، فإذا كانت خشنة آذته، ليخفف من آلام ثور من الثيران في حقل من حقول الجليل المترامية.

راحت الشمس تختفي خلف تلال الناصرة، فأغلق يوسف حانوته، وذهب هو وعيسى إلى الدار، كانا في طريقهما يتبادلان الأحاديث عن الدين، وكان يوسف يسبغ عطفه عليه، ولكن يوسف انطلق الليلة وهو صامت، فاحترم عيسى صمته، ولم يحادثه، وشغل بما يدور في نفسه من أفكار.

ودلفا إلى الدار، واتجه يوسف إلى فراشه، وقبل أن يندسّ فيه، توجه إلى الله، وأخذ يقرأ الشِمَة: «اسمع يا إسرائيل..» وانتهى من صلاته، وارتمى في الفراش مبهور الأنفاس، فقد كانت الحمى تسري في بدنه.

وأقبلت مريم وفي يدها مصباح، ودنت تنظر في وجهه، فإذا العرق يتفصد من جبينه، وإذا نَفَسه مضطرب، فراحت تُمرِّضه، وانقضى الليل ومريم وعيسى إلى جواره يخفق قلباهما بالحزن العميق، إذ يريان يوسف راح في غيبوبة طويلة، ولم ينبس بكلمة، ولم يفتح عينيه مرة.

وأشرقت الشمس، وغرقت الدور البيض في النور، فخرج عيسى إلى الحانوت، يعصر قلبه الأسى، فما خرج وحده قبل يومه، وخطر الموت على ذهنه، فراح يفكر فيه.

ونظرت مريم إلى يوسف المسجى أمامها وهي حزينة، صدَّقها يوم كذَّبها الناس، وآمن بابنها وصدَّق به قبل أن تكتحل برؤيته عيناه، وفرّ بهما من وجه

الطغيان في سبيل الله. كان مؤمنًا عميق الإيمان، نفذ أوامر الله، فكان نعم الحارس ونعم الكنف.

وشخص يوسف ببصره إلى السماء، وغمغم في صوت خافت:

- إلهي، أعيد إليك وديعتك، فقد انتهى عملي، إلهي إني ذاهب إليك وأنت أقدر على حفظ رسولك، فأنت خير الحافظين.

وأسبل جفنيه، وذهب إلى حيث يذهب المؤمنون الصادقون، وغطّت مريم وجهه بنقابها، وجرت عبراتها على خديها، وأقبل عيسى يذرف الدمع الهتون.

-10-

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

(قرآن كريم)

قصور حكام الأقاليم مراتع اللهو، فأنتيباس هيرودس غارق في الشهوة، تساق إلى قصوره أجمل الفتيات. راقصات عاريات، وأغنيات ماجنات، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء، فتنطلق الوحوش الكامنة في النفوس تعب اللذات في نهم.

وقصور الأغنياء مسارح للخلاعة، وأوكار للمجون، يحاكون رؤساءهم، ويتقربون إليهم بالمعاصي والمنكرات، ويتنافسون في نيل الحظوة عند أنتيباس بتقديم العذارى الكاعبات إليه، فقد قرّ في أذهانهم أن المناصب لا تُنال إلا بالنساء، فهذان قيافا وحَنَّان تقربا إليه بالأبكار الأتراب، فتقاسما رياسة الكهنوت.

كانا ضالعين مع الرومان، يشاركانهم حياة الفسق والمجون، ويتظاهران أمام الشعب بالتقوى والصلاح، يقدمان إلى مذبح الرب القرابين، وفي نفس الوقت يقدمان إلى ولي نعمتهم النساء على مذبح الشهوات.

ودبّ الفساد في مجلس السنهدرين، ذلك المجلس الذي كان للدين حصنًا، صارت الكلمة فيه للهيروديين الوالغين في الفساد، أو للصَدُّوقِيين المخادعين الذين يتخذون من الدين ستارًا.

وفي أروقة الهيكل اشتد الخلاف بين الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين، أولئك يعتقدون في الملائكة وهؤلاء لا يعتقدون فيهم، وأولئك يقولون بالبعث، وهؤلاء ينكرونه.

وساد أورشليم والبلاد اليهودية ظلام، ونزل بنفوس الناس همٌّ ثقيل، وحاق بهم ضيقٌ، ودب في قلوبهم اليأس، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبي، يخرجهم من الظلمات إلى النور.

كان يحيى عاكفًا على العبادة في الهيكل، وكانت تصل إليه نتف من حياة قيافا وحَنَّان ذات الوجهين، ويرى عيشة الرغد التي يحياها الرهبان الفَرِّيسِيون، ويصغي إلى سفسطة الصَدُّوقِيين، فرأى أن يخرج إلى البَرِّيّة، يعيش بين الوحوش، فارًا بنفسه من ذلك النفاق والرياء.

هام يحيى في البراري، يأكل من ورق الشجر، ويَرِد ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد، وتستر جسمه مدرعة من الشَعْر، وعلى حقويه منطقة من جلد، وظلّ في عزلته يتلقى وحي السماء.

وذهب إلى الأردن يدعو الناس إلى الله، فاجتمعوا يسمعون إليه، قال:

- إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات، أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئًا، فإن مَثَل ذلك مَثَل من اشترى عبدًا من خالص ماله بوَرِقٍ أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام، فإن مَثَل ذلك كمَثَل رجلٍ معه صُرَّة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مَثَل ذلك كمَثَل رجل أسره العدو، فشدّوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله عزّ وجلّ كثيرًا، فإن مَثَل ذلك كمَثَل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا فتحصن فيه، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجل.

وراح يحيى يقول للوفود التي توافدت عليه:

- توبوا فقد اقترب ملكوت السماء.

وذاع في البلاد أن نبيًا خشنًا قام في البَرِّيّة، يدعو إلى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء، ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد، قالوا إن إيليا قد قام. وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فجّ، مهطعين إلى الأردن، الأغنياء يحدوهم حب الاستطلاع، والفقراء عامرة قلوبهم بأعمق الإيمان، وجاءوا إليه يعترفون بخطاياهم، فيُعَمِّدُهم ويطهرهم.

وبلغ نبؤه أورشليم، وسمع الناس أن نبيًا جديدًا قام في إسرائيل، فنزل ذلك الخبر على قلوبهم نزول الغيث على الأرض المجدبة، فنبت الأمل، وأرهفت الإحساسات، ولاح في الأفق تباشير عهدٍ جديد، عهدٍ زاخرٍ بالخيرات.

وقال قائل لأنتيباس إن نبيًا في البَرِّيّة يدعو الناس إلى الثورة على دولة الأغنياء، يحضّ من له ثوبان على أن يعطي من لا ثوب له، فبعث إلى

السنهدرين، يأمرهم أن يوافوه بخبر ذلك النبي الجديد، فاجتمع المجلس وقرر إيفاد رسله إلى ذلك الرجل الخشن، الناحل من شدة التقشف، الذي رنَّت كلماته في القصور، فزلزلت قلوب المردة الطغاة.

وفي شوارع الناصرة تحدث الناس عن النبي الجديد، وتجاوبت في أرجائها أنباؤه، وبلغ عيسى دعوة يحيى بن زكريا، فأحسّ كأنما يترجم أفكاره، ويعبّر عما يجيش في صدره، إنه يهاجم الغِنى والأغنياء، ويدعو إلى المساواة، ويفضح رياء الكهنة والكَتَبَة. فلم يستطع عيسى صبرًا، فشد إليه الرحال.

وأقبل الفَرِّيسِيون، رسل السنهدرين في كبريائهم، الغرور يجري فيهم، ويعتقدون أنهم أهل علمٍ وكتاب، فهم لا يغادرون نضد التوراة، يقرءون فيه ويقرءون، ثم يعودون فيقرءون، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة، حتى حفظوا النصوص، وتزمَّتوا في تطبيقها، أما الروح فكانت شيئًا لا يؤبه له.

نظروا إلى ذلك الرجل الناحل، العاري إلا من مدرعة من شَعْر، وأصغوا إليه وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء. إنه لا يدعو إلى نفسه ولا يستغل النور المنبثق من روحه إلا في إنارة طريق النبي القادم بعده، ويطهر الناس ليكونوا أهلًا لاستقباله، إنه صوت منطلق في البَرِّيّة، يُعَبِّد الصراط المستقيم.

دنوا منه وقالوا له:

- من أنت؟ حتى نخبر من أرسلونا، المسيح أنت؟

- لا.

- أإيليا أنت؟

- لا.

- النبي أنت؟

- لا. أنا صوتٌ صارخٌ في البَرِّيّة. قَوِّموا طريق الرب، كما قال إشعيا النبي.

فنظروا إليه في زراية، وقالوا له:

- فما بالك تُعَّمِد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟

- أنا أُعَمِّد بماء، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه، هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قُدَّامي، الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه.

فنظر بعضهم إلى بعضٍ يسخرون، كان يحيى صلبًا كالصخر، لا يخشى في الحق لومة لائم، لا يرجو عطف الناس، ولا يخشى مقتهم، إنه قويٌ في الحق، خشنٌ خشونة الصحراء التي يهيم فيها، يرى غطرسة الفَرِّيسِيين وتكبرهم، لأنهم من نسل إبراهيم، فقال لهم في صوت كالرعد:

- يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا، لأني أقول لكم، إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تُثمر ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النار، أنا أُعَمِّدكم بماء التوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، هو سيُعَمِّدكم بالروح القدس.

وتدفق الناس عليه، العوام والخواص، حتى الذين يخدمون هيرودس جاءوا يلقون إليه السمع.

وأشرف عيسى على وادي الأردن، كانت الشمس ترسل أشعتها الحامية، وكانت تتألق متوهجة في كبد السماء، لم يظهر لشيء على الأرض ظل، كانت أريحا قائمة بين أشجارها، والبحر الميت يعكس وهج الشمس كمرآة تخطف الأبصار، وجبال مؤاب شامخة على الشاطئ الشرقي، والصخور الصُفر عارية خامدة ميتة، ولكن النهر لم يكن ميتًا، فيحيى غائص في مياهه إلى ركبتيه، يطهّر الوفود الزاخرة المتدفقة، التي وهبت للصحراء قلبًا خفاقًا ينبض بالحياة.

وهبط عيسى إلى الوادي، وذهب إلى يحيى بن زكريا، الذي جاء يبشر الناس بقرب رسالته، ويُعَبِّد الطريق أمامه حتى يُبَلِّغ الناس رسالات الله.

-11-

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

(قرآن كريم)

السماء فوقه، والرمال تحت أقدامه، والفضاء أمامه، والأفكار تنثال على رأسه. أصغى إلى يحيى فألقاه يُذكِّر الناس باقتراب ملكوت السماء، وهو يعلم أن الله يعدّه ليبعثه رسولًا إلى قومه، فقد بشّرت الملائكة أمه به قبل مولده، وقالت لها إن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولًا إلى بني إسرائيل.

إن موسى قد ذهب للقاء ربه، وانفرد فوق طور سيناء أربعين يومًا وليلة يناجيه حتى تجلى له وكتب له في الألواح شريعته، فعزم عيسى أن يمكث في الخلاء يتعبد، ويتأهب لوحي السماء، فالخلوة تطهر نفسه، والمناجاة تشحذ روحه، وتملأ قلبه نورًا على نور.

وركع على ركبتيه، وتطلع طويلًا إلى السماء، وجعل يبتهل إلى الله في حرارة، وجرت دموعه، وبكى بمثل حنين الإبل، بكاء من ودّع الأهل، وقَلا الدنيا، وظلّ في مناجاته، لا يحسّ شيئًا حوله، فقد تعلقت روحه بالله.

واحتجبت الشمس وراء تلال مؤاب، فصبغت التلال بلون القرنفل والأرجوان، وملئت الأخاديد في سفوحها بظلالٍ زرقٍ قاتمة، وبدا نهر الأردن كخيطٍ أزرق ملقًى في الصحراء، وعيسى في خشوعه غائب عن كل ما حوله من جمال، فهو ينشد جمال الله.

ونامت عيون الأبرار وهو يقظان، يدعو الله في هجعة الليل، وسكر بصره، خيّل إليه أن بابًا فُتح في السماء، وأن روحه عرجت إليها، تهيم في الملكوت ما شاء الله لها أن تهيم.

كرت الأيام، ومرت الليالي، وهو لا يحسّ مرور الأيام ولا كرّ الليالي. وغاب عن الزمن، وغاب عن المكان، وغاب عن كل شيء إلا عن الله، فهو يفكر فيه بذهنه، وتنبض بذكره خفقات قلبه، ويردّد لسانه وهو ساجد: «إلهي، أرني نور وجهك»، فتردّد ذلك النداء في حرارة كل خالجة من خوالجه. باتت حواسه كلها ألسِنة تتضرع إلى الله أن يمن عليها بالنور.

شفَّت نفسه، وأُرهفت حواسه، وانقشعت الحواجز المادية أمام عينيه، فبدت الدنيا صافية نِقية، وإذا نورٌ سماويٌ يغشى المكان، وإذا ذلك النور يُراق

في جوفه، فيحسّ كأنما خلق من جديد.

ومسّ أذنيه حفيف صوت، فالتفت خافق القلب، فرأى جبريل، فجفل في خوف، ثم أخذت الطمأنينة تعود إليه رويدًا رويدًا، فلما أفرخ روعه، قال له الروح الأمين: إن الله أرسله رسولًا إلى بني إسرائيل، وراح يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

تصرَّمت أربعون ليلة وعيسى في مناجاته، يتلقى وحي السماء وهو على قمة الجبل منفردًا بالله، كما تصرَّمت من قبل أربعون ليلة وموسى على طور سيناء يتلقى كلمات ربه.

سار عيسى وقد استرسل شعره، وطالت لحيته، وغاضت تلك الوداعة التي كانت تشع من وجهه. وبان فيه قوةٌ وعزمٌ. انقضت أيام الدعة والهدوء، وأقبلت أيام الكفاح والجهاد، أيام الاضطهاد والتعذيب، فما جاء أحدٌ بمثل ما جاء به إلا اضطهده الناس وعادوه.

عاش عيسى تلك الأيام بروحه، فلم يحسّ حاجات الجسد، أما الآن فقد عاد إلى نفسه، إنه يشعر بالجوع يعضّ أحشاءه، وبجفاف العطش في حلقه، فتلفت لعله يجد ما يُسكت به ذلك الصراخ المنبعث من جوفه، ولكنه لم يجد شيئًا، فانطلق وهو يفكر في أمره. ووقعت عيناه على الحجارة المبعثرة في الفضاء، فرنَّ في أذنيه صوت يحيى القوي الخشن: «إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم».

وتحرك جوعه، فوضع يده على بطنه، وأحسّ أنه لم يعد في البَرِّيّة وحده، فالتفت فإذا رجلٌ إلى جواره يرنو إليه من ود، ودنا الرجل منه وقال له:

- سل ربك أن يقول لهذه الحجارة كوني خبزًا.

وقفزت إلى ذهن عيسى صور طالما عاش فيها بروحه، فطالما قرأ أن إسرائيل وهو في البَرِّيّة وقد نهكه الجوع، سأل الله أن يطعمه فأنزل عليه المنّ من السماء، وطالما رأى بين سطور التوراة ملاك الرب وهو يقود إيليا، المُضنى من الجوع، إلى الطعام، إنه لو سأل ربه أن يحيل تلك الحجارة خبزًا لاستجاب له، ولكن ما كان يسأله، فالتفت إلى الرجل وقال له:

- مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله.

وصمت عيسى قليلًا، ثم قال:

- أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كُتب لك؟

فأطرق الرجل قليلًا ثم قال:

- فارْقَ إلى ذروة هذا الجبل، فتَرَدَّ منه، فانظر هل تعيش.

فأقبل عيسى على الرجل، وقال له:

- أما علمت أن الله قال: لا يجربني عبدي، فإني أفعل ما شئت.

فبان في وجه الرجل القهر، واستمرّ عيسى في حديثه:

- إن العبد لا يبتلي ربه، ولكن الله يبتلي عبده.

وراح الرجل يوسوس له:

- لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبدًا، فقد بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبيًا، ولم يتكلم فيه أحد قبلك.

- بل الربوبية لله الذي أنطقني. ثم يميتني ثم يحييني.

- تعال.

وارتقيا جبلًا عاليًا، وأشار الرجل بإصبعه إلى ممالك الأرض وقال له:

- انظر، إن كان لك عينان.

فنظر عيسى، فرأى جميع ممالك الأرض، فقال له الرجل:

- سأمنحك هذه الممالك، سأجعلك الحاكم المطلق على البشر، ستتألق في المجد، ستكون المسيطر على كل الأرض، سأمنحك كل هذا لقاء شيء واحد، أن تسجد لي.

فصرخ فيه عيسى:

- ابتعد عني يا شيطان، ابتعد يا رجيم، مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد.

فلم يشأ الشيطان أن يعلن اندحاره، فابتسم في خبث وقال:

- إن غضبك ليس بغضب عبد، ولكن أدعوك لأمرٍ هو لك، آمر الشياطين فليطيعوك، فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك، أما إني لا أقول أن تكون إلهًا ليس معه إله، ولكن الله يكون إلهًا في السماء، وتكون أنت إلهًا في الأرض.

فغضب عيسى غضبًا شديدًا، وصرخ فيه صرخة زلزلته، فابتعد إبليس مذمومًا مدحورًا، وهو يغمغم في يأس:

- يا عيسى، لقد لقيت فيك اليوم تعبًا شديدًا.

ووقف بعيدًا يرنوا إليه منهزمًا، عجز أن يفتنه، ولكن ما كان الشيطان ليُقِرَّ بهزيمة، وقفزت إلى ذهنه الشرير فكرة، إذا كان قد عجز عن فتنته، فسيجعله فتنة، فقال وهو يختفي في الأفق البعيد:

- سأضلّ بك يا عيسى بشرًا كثيرًا، وأبث فيهم أهواء مختلفة، وأجعلهم شيعًا، ويجعلونك وأمك إلهين من دون الله.

-12-

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

(قرآن كريم)

«لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»

متَّى (15 : 24)

الناصرة غارقة في الصمت، تطوف بها أحلام، راح الناس في النوم، حتى نجوم السماء هجعت، فقد كانت ليلة لم يبزغ فيها نجم، وفي ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلي، فابنها خرج إلى يحيى بن زكريا، الذي بعثه الله بشيرًا بملكوت السماء، وتقضت أيام وليال وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها. كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن، ولكن تلك الغيبة أقلقتها، إنها لم تفارقه مذ وضعته، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التي فقدته فيها، وهو جالس في الهيكل بين العلماء، وإنها لترجو أَوْبَتَه ليعود إليها الاطمئنان.

كانت العيون غافلة إلا عيني مريم في بيتها الراقد في تواضع عند أقدام التلال، وعيني عيسى وهو فوق الجبل، قد تعلقت بالرجاء.

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار، إلى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولًا إلى بني إسرائيل؟ أيذهب إلى الناصرة تلك القرية المغمورة في الجليل، وينطلق إلى حانوت النجار يدعو الناس منه إلى عبادة الله؟ أيقوم بين الناس داعيًا إلى الهدى، وما قام بينهم واعظًا قبل الآن؟ ونبتت في جوفه رهبة، ولكن ما كان له بعد أن أيّده الله بروح القدس أن يخاف.

وقفزت إلى ذهنه صورة يحيى وهو في مدرعة الشَعْر، ناحلًا من التقشف والوجد، يعظ في قوة، لا يهاب أحدًا، ولا يخشى بطشًا، ينزل القوارع بالفَرِّيسِيين ويهاجم دولة المال، فأمدّته تلك المشاهد، التي تتوافد على رأسه، بقوة وعزم أكيد، فاتضح الطريق أمام عينيه، سيجوب المدن اليهودية داعيًا إلى الرشاد، موطدًا النفس على احتمال الأذى والعذاب، فما أحلى الاضطهاد في سبيل الله.

وسار في ذلك الفضاء العريض، يحس كأنما ملئ علمًا وحكمة، فالصحراء والحجارة والسماء تمدّه بألوان جديدة من التفكير، وذلك الانطلاق في

الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعًا، بل صار مؤانسة، فما كان في تلك المفاوز وحده، بل كان فيها مع العليم الخبير.

وفي الطريق لاحت له أرباض مدينة، فيمم شطرها، ودخلها ليدعو أهلها إلى الصلاح، وألفى الناس في السوق غادين رائحين، فاعتلى مكانًا عاليًا وراح يقول: - يا بني إسرائيل، يا بني إسرائيل.

فاجتمع الناس إليه يصغون، فقال:

- يا بني إسرائيل، اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله، فقد حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار فارتفعت أصوات تسأله:
- من أنت؟

- إني رسول الله إليكم.

- وما أدرانا أنك رسول؟

- جئتكم بمعجزة من ربكم.

- وما هي؟

- أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله.

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ([1])، ثم نفخ في الطين، فدبّت الروح فيه، وطار في الجو، وعيون الناس معلقة به، وعقد الدهش ألسنتهم، وبانت في وجوههم الحيرة، وظلوا في ذهول حتى سرى همس: - هذا سحر.

وأفاقوا من دهشتهم، فقالوا في توكيد: - إنْ هذا إلا سحرٌ مبين.

وانفضوا من حوله وتركوه وحده، وابتعد عنهم رويدًا رويدًا وهو حزين، إنه يدعوهم إلى النجاة، فيعرضون عنه، ولو أنه دعاهم إلى الضلال لأقبلوا عليه يتسابقون.

وأطرق يفكر فيما كان، إنه دعا الناس فجاءوا يصغون إليه، وتركوه يبلغ رسالات ربه، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما قال ولم يصدقوه، فسيأتي يوم يسارعون إليه وقلوبهم عامرةٌ باليقين، فرأى أن يعتصم بالصبر، فالصبر من عزم الأمور.

وغابت الشمس، وراحت تختفي وراء تلال الناصرة، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة في الشفق كأنما لصقت على لوحة في لون العقيق، فخفق قلبه وأغذّ السير. أحسّ شوقًا إلى أمه، ورغبةً في أن يفضي إليها باصطفاء الله إياه، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل.

وانساب في طرقات الناصرة، وقد سيطر السكون، ونشر الليل ألويته، ودلف إلى البيت، فلما رأته مريم هُرِعَت إليه تضمه إلى صدرها في حنان، وجلسا في جوف الليل يتناجيان، وقال لها فيما قال: - وفيما أنا في صلاتي وابتهالي فوق الجبل، سقط من السماء نورٌ باهر، وإذا بجبريل الأمين يخبرني أن الله بعثني رسولًا إلى بني إسرائيل.

وصمت عيسى قليلًا ثم قال:

- سأغادرك يا أماه لأبلغ الناس أوامر الله، وسأحتمل اضطهادهم ونكرانهم وتكذيبهم في سبيل الله، لن أستطيع بعد اليوم أن أقيم معك، وأن أعاونكِ بخدماتي، لم أعد يا أماه لك، بل أصبحت لله.

ونظر إليها فألفى في عينيها دموعًا، فحسبها تبكي لفراقه، فقال لها: - لا تبكي يا أماه.

- هذه دموع الفرح، إني نبئت يا بني بكل ذلك قبل أن تولد.

فقال عيسى لأمه في رجاء:

- صلي يا أماه من أجلي، وابتهلي إليه أن يؤيدني ويثبتني ويمدني بنصر من عنده، صلي يا أماه، فصلاتك درعي.

فقالت مريم في حرارة:

- فليباركك رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما بارك آباءك.

وسجدا يصليان لله في جوف الليل، وقد غرقت الناصرة في الصمت.

-13-

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(قرآن كريم)

انتقل هيرودس أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طبرية، إنه حاكم الجليل، ولكنه يريد أن يرتفع بعاصمته، ليجعلها قطعة من روما، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهي، وبث فيها الحدائق، فهو يقتفي آثار أبيه هيرودس الأكبر في التقرب من روما، وفي خضوعه لنزواته وشهواته، وكان معجبًا بأبيه، فراح يستمد منه وحيه ويحاكيه.

وكان يُظهِر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة، ذهب خاشعًا إلى الهيكل بأورشليم، يقدم أنفَس الضحايا والقرابين، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين، ترك قصره وذهب إلى قلعة ماكيروس القائمة على تلٍ عالٍ متحدية صحراء بتراء، وهناك يتحرر من قيوده، ويعيش لشهواته ونزواته، وهو آمن من أن يطَّلع عليه أحد اليهود فهذه القلعة قائمة في أرض سدوم، وكانت مدينة زاهرة دمّرها الله بخطيئة أهلها، وما كان بنو إسرائيل يدخلون أرضًا حلَّت عليها لعنة السماء.

كان يتظاهر لليهود بتقواه، وإن كان في قرارة نفسه يشتهي أن يكون في هيئة رومانيٍّ أصيل، يتكلم اليونانية واللاتينية، ويرتدي ثياب الأسياد، ويقوم مثلهم بالحفلات، ويتخذ لنفسه بلاطًا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه السامرية تفضحه وتصرخ به أنه رجلٌ شرقي، نابت في لفحة الصحراء.

وتأهب للخروج إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان، ليقدم له فروض الولاء، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهدرين الذين بعثهم إلى الأردن ليروا ذلك الصوت المنبعث في البَرِّيّة يبشر الناس بقرب ملكوت السماء، وقالوا له إن ذلك الرجل يفتن الناس، ودعواه تهدد الأمن العام، فهو يبشرهم بنبي جديد، يستل الملوك من عروشهم، إنه يحضّهم على الثورة ضد المال والسلطان.

وفكر هيرودس أنتيباس في ذلك الثائر الجديد، فهاجت وساوسه، وخشي إن سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه، فإذا عاد وجده قد أفسد الناس، فأمر جنوده أن يقبضوا عليه، وأن يسجنوه في قلعة ماكيروس.

وانطلق جنود أنتيباس إلى الأردن، وألقوا القبض على يحيى الذي كان يبشر بملكوت الله، وانفض الناس من حوله، ليتجمعوا في جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق بنبيهم الذي أحبوه وآمنوا به، ووجدوا فيه المبشر بالخلاص..

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس، بل كانت تحت حكم بيلاطس، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ زميله بزيارته، بعد أن عُيِّن حاكمًا على ولايته، فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنًا من زميله، ولم تقع الزيارة المرتقبة، فتغيرت النفوس، وحلَّ الجفاء.

بعث بيلاطس جنوده إلى الثائرين اللائذين بالجبال، وقتل بعضهم وفرق شملهم، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه في ذلك الرجل الذي سجنه، والذي تعلَّقت به قلوب المؤمنين المتعصبين.

شغل هيرودس أنتيباس بذلك السجين الذي لا يملك من دنياه إلا مدرعته من وبر الجمل ومنطقته من جلد، وبيانًا يزلزل عرش الطغاة، إنه لو أطلق سراحه جمع قلوب المتعصبين حوله، وهدَّد ملكه بالزوال، وإذا أبقاه في سجنه أوغر صدور الناس، فرأى ألا يشتط، وأن يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذًا، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه، وأن يبعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء.

وأقبل يوم السفر إلى روما، فجاءت تودعه زوجته ابنة الحارث أمير العرب، في جمالها الشرقيِّ الأخاذ، فرنا إلى عينيها السوداوين الواسعتين، وإلى وجهها الذي استدار كبدر، وإلى شعرها الذي بدا كليلة حالكة من ليالي الصحراء المظلمة، فرفّت على شفتيه ابتسامة لم تكن منبعثة من القلب، فقد سئم ذلك الجمال، وهو يرجو أن يجد في روما مفاتن تجدد شباب الفؤاد.

ونزل على الإمبراطور طيباروس ضيفًا عزيزًا، وفكر وهو في روما أن يزور أخاه فيليبس الذي حرمه هيرودس الأكبر من الميراث، فعاش في روما عيشة الرومان. دخل هيرودس على أخيه فيليبس، فأعجبته هيروديا زوج أخيه، كانت رائعة الحسن، أندى من الندى، وأنضر من أزهار الربيع، كانت ذات جمال يعبث بالأفئدة، وتهفو إليه القلوب. وراح يحادث أخاه، ويرنو إلى زوجه في إعجاب، ويرمقها في اشتهاء، وتلاقت عيناه الوالهتان بعينيها، فأحسّت حرارتهما، وفهمت لغتهما، فرفت على شفتيها ابتسامة مشجعة، واشتعلت عيناها برغبة طائشة مغرية، زادت حب هيرودس ضرامًا.

كانت هيروديا مغامرة، تهفو إلى أن يزيِّن تاج الملك جبينها، وقد تقربت من البلاط الروماني، وصادقت الإمبراطور طيباروس لعلها تؤثر فيه، وتقنعه أن يعين زوجها فيليبس حاكمًا على ولاية من ولايات فلسطين، ولكنها لم تتمكن

من تحقيق حلمها، وها هو ذا هيرودس أخو زوجها وحاكم الجليل يغازلها، ويفتح أمام أطماعها أبواب الأمل، فما كان لها أن تنكص وتغلق ما يفتح أمامها من أبواب.

هام هيرودس بزوجة أخيه حبًا، وبادلته هيروديا ذلك الغرام، فراحا يتلاقيان في غفلة من العيون، وملك حبه لها حواسه وسيطر عليه، فلم يُطِق أن يعود إلى ولايته مسلوب الفؤاد، فزين لها في نجوى الهرب معه، فقالت له في خبث الحية:

- وزوجتك؟

- أطلقها.

ما أيسرها من كلمة في بيت هيرودس، إن هيرودس الأكبر طلق وتزوج مرات ومرات، حتى إن رجال الدين ضاقوا بذلك، ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة الناس، وإن هيرودس أنتيباس، سرُّ أبيه، لا يجد في طلاق زوجه أي إثمٍ، ما دام ذلك الطلاق يمَّكنه من إرضاء نزواته، وإطفاء شهواته.

وفي غفلة من فيليبس، الأخ المخدوع، والمضيف الكريم الذي رحب بأخيه، فرَّ هيرودس وهيروديا وابنتها سالومي الصغيرة الجميلة، التي لم تتفتح عن أكمامها، ونزلت هيروديا القصر الرائع في طبرية، ولم تحتمل الزوجة العربية، ابنة الحارث أمير العرب، العار الذي لحق بها من جراء فعلة هيرودس الطائشة، فالتمست من زوجها الاعتكاف في قلعة ماكيروس حتى تهدأ غيرتها، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة.

امتلأت ابنة الحارث حقدًا، وما بلغت قلعة ماكيروس حتى فاض غضبها، طعنها في كبريائها، ولن تنطفي تلك الوقدة التي أجَّجها في أحشائها قبل أن تشعل مُلْكَه نارًا، ففرت إلى صحراء بتراء، إلى قلعة أبيها، لتُضرِم نار العداوة في قلب الحارث، الذي ثار للإهانة التي ألحقها أنتيباس بابنته التي يحبها.

وتزوج هيرودس أنتيباس من هيروديا زوج أخيه فيليبس، وابنة أخيه أرسطو بولس في الوقت ذاته، وغضب الشعب لذلك الزواج، ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين، الوافدين من روما، ليزينوا بلاط هيروديا.

وضاق هيرودس بالحفلات والرسميات، وأحسّ رغبة في أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية، إن الوحش القابع في أغواره يلحُّ عليه أن يبدو في صورته الحقيقية، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ماكيروس، بعيدًا عن أعين الفَرِّيسِيين المتزمتين، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم، وأنه مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية!

وبلغا القصر، وأطلت هيروديا من القلعة الشاهقة، المطلة على الصحراء المترامية، كانت كحارسٍ ساهرٍ على حدود الجليل الفاصلة بين أنتيباس والحارث أمير العرب، وقعت العداوة بينهما، فما كان لذلك الحارس أن يغفل أو ينام.

وظهرت أمام عينيها أشجار النخيل الباسقة، بسعفها الأخضر، وأشجار الزيتون وكروم أريحا اليافعة، وراحت تجوب خلال القلعة، فصكت أذنيها دعوات يحيى القوية، فأحسّت شيئًا غامضًا ينبعث في جوفها، فعادت إلى هيرودس والتمست منه أن تصغي إلى ذلك الرجل الذي أُغْلِقت دونه الأبواب.

تمدد هيرودس في فراشه الوثير، ووقفت هيروديا خلف الستار، وجاء الحراس بيحيى، فلم تبهره الطنافس الرائعة، ولا الستائر الفاخرة، ولا الحرير الذي يغوص فيه الملك! بلغه ما فعله هيرودس، فارتسمت في وجهه صرامةٌ وثورةٌ للحق. نظر هيرودس إليه، فمشت رهبة في جوفه، كان يهابه في قرارة نفسه، ولكنه شاء أن يتظاهر بالقوة، فقال له في صوت آمر:

- ألا تكفَّ عن هذيانك؟

فلم يأبه يحيى به، بل قال له في قوة، أطارت ما كان يتشبث به من شجاعته الهاربة:

- اهجر هذه المرأة.

- لماذا؟

- إنها لا تحل لك.

ولم يجد هيرودس ما يقوله، فأشار للجنود أن يأخذوه، وأطرق مهمومًا، وخرجت هيروديا من وراء الستار، وذهبت إلى زوجها، يتطاير شرر الغضب من عينيها، وهتفت:

- كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به، مُرْهُم أن يقتلوه.

ولكن هيرودس لم يفعل شيئًا، كان في أعماقه يهابه، ويخاف أن يمد إليه يد السوء، إذا قتله ثار الناس عليه، وحلَّت عليه لعنة السماء.

وعاد يحيى إلى سجنه، وبُذِرت بذور الحقد والكراهية والمقت في صدر هيروديا.

-14-

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

(قرآن كريم)

كانت حياته رحلة، ولد في بيت لحم، ثم عادت به أمه إلى الناصرة وما استقر بها حتى جاء الأمر بالخروج، فهرب يوسف ومريم به إلى مصر، وما درج على أرضها حتى عاد إلى الناصرة، يخرج في المواسم إلى أورشليم، كانت حياته الأولى رحلة تتخللها فترات من الراحة والاستقرار، أما رحلة اليوم فلن تعرف الراحة، سيذهب من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، ومن جبل إلى جبل، داعيًا بني إسرائيل إلى ربه الذي أرسله رسولًا يبشرهم بملكوت السماء. لن يستقر في مكان، ولن يتخذ له بيتًا يأوي إليه، سينام حيث يدركه النوم، وحيث يجد أناسًا يصغون إليه، فقد انقضت أيام الدعة، وأقبلت أيام الكفاح في سبيل الله.

وغادر الناصرة، وسار صوب الجليل، واخترق الوادي الزاهر، ومسّ أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة، ومسّ الجمال المكان بيده الساحرة، فبدت الحقول زاهية ناضرة، وقامت أشجار النخيل سامقة شامخة، وامتدت الكروم رائعة تسرّ العيون، وغردت الطيور، وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية.

ولاحت على شاطئ البحيرة الغربي الجبال الخُضر، وامتدت على الشاطئ الشرقي الصحراء القاحلة الماحلة، ومدّ بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة، وسقطت أشعة الشمس عليها، فبدت كمرمرٍ مصفى.

وشُيّدت على الشاطئ الغربي مدن وقرى، مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك، فهي محاطٌ للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية، وكانت في هذه المنطقة طبرية، العاصمة التي شيدها أنتيباس، وسماها بذلك الاسم متملقًا الإمبراطور الروماني طيباروس، فلا غرو والتملق ديدنه أن يطلق على المدينة التي يبنيها اسم العاهل الذي يستمد منه السلطان، فقد سَمَّى من قبل مدينته قيصرية، إرضاء لإمبراطوره السابق، قيصر.

ووقف على شاطئ البحيرة ينظر، وهبّ النسيم يعابث الماء، فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب، وأقبلت مراكب الصيادين تتهادى، ووضحت

أصوات المجاديف، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصبغ الشفق بالذهب، إيذانًا بانتهاء يوم العمل.

ازدحم الشاطئ بالناس، فقام عيسى يعظهم ويدعوهم إلى الله، إن ما يقوله لم يكن جديدًا على أسماعهم، فقد سمعوا مثله في المعبد، ولكنه يمتاز بشيء، يمتاز بالحرارة التي تصهره، فتجعله يبدو قشيبًا، كأنما يُلقى في أسماعهم لأول مرة.

كان في نبراته قوة، وفي صوته صدق، وكلماته تتدفق من القلب لتصب في القلوب. فأحسوا نحوه انجذابًا وإعجابًا، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة.

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان، كان للكلام وقع السحر في أنفسهما، خيل لهما أنه يدعوهما وحدهما، تفتحت له قلوبهما، وتعلقت به أبصارهما، وأُريق في جوفهما نور، فقد أوحى الله إليهما أن آمِنا بي وبرسولي. فآمنا به وصدقاه.

وانفض الناس من حوله، وسار. وسار في أثره أندراوس ويوحنا، وسمع وقع أقدامهما، فالتفت إليهما وقال في رقة: - ماذا تطلبان؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد، ولكن أُرْتِج عليهما، فقالا: - أين تسكن؟

لم يكن له دار، جاء يدعو إلى الله، وينام في الفضاء في حراسة الله، فقال لهما: - تعاليا وانظرا.

جلسا يصغيان إليه، وهو يبشرهما بملكوت السماء، فأحسا سعادة، إن كل كلمة ينطقها تمسّ شغاف الفؤاد، وظلوا في مناجاة حي تصرّم الليل، فانصرف أندراوس ويوحنا، وقد شهدوا أن عيسى رسول الله.

ذهب أندراوس ينقّب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبي بعثه الله رسولًا إلى بني إسرائيل، وترقّب يوحنا بن زَبَدِي عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى الذي ناما معه عند عين غانم، يوم خروجهم إلى أورشليم هو الأمل المرتقب الذي ينتظره اليهود.

وأقبل سمعان وشرح الله قلبه للإيمان، فما تحدث إليه عيسى حتى صدّق ما يقول، فقد أوحى الله إليه أن يؤمن به وبرسوله.

ووفد نثنائيل إلى الجليل، وكان رجلًا صالحًا، فذهب إلى شجرة التين، وراح يصلي وعيسى يرصده من بعيد، قرأ «الكراشما» وهي خدمة الصلاة اليومية في خشوع، وابتهل إلى الله من قلبه، فشعر بروحه تتفتح، وبالدنيا حوله تزهو، أحسّ كأنما رُدّ إليها شبابها، وكأنما سرى فيها روح.

وذهب عيسى إلى البحيرة، وصادف شابًا صيادًا، فوقف يحادثه قليلًا، ثم قال له في رقة: - اتبعني.

فترك فيليبس شباكه ومركبه، وتبع عيسى كظله، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان والتصديق.

واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتّبعوه، وراح يصلي لله ويناجيه، فتشفّ روحه، ويسكن قلبه إيمانٌ عميق، وانطلق فيليبس يبحث عن صديقه نثنائيل، فلما قابله، قال له في حماسة: - إن الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء قد وجدناه.

- عمّن تتحدث؟

- عن النبي الجديد.

- وأين وجدته؟

- هنا في الجليل.

- ومن هو؟

- عيسى بن مريم، من الناصرة.

فقال نثنائيل في استخفاف:

- من أين؟

- من الناصرة.

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة:

- أيخرج من الناصرة شيءٌ صالح؟!

كانت الناصرة حقيرة في الجليل، أهلها فقراء في العلم والمال، لا يخرج منها إلا نجارون وقرويون بسطاء، يتعلمون ولا يُعلمون، فمن أين جاء هذا الناصري بمواعظه التي يتحدث عنها فيليبس، أصغى نثنائيل إلى فيليبس في عجب، فكل ما يقوله عجيب، حتى فيليبس لاح في عيني صديقه عجيبًا، لم يعرفه مندفقًا في حديثه كما هو شأنه اليوم، ما كانت له حرارة الكلمات التي تخرج في قوة من بين شفتيه، وما قال له: «تعال وانظر» حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ.

وجاءوا إلى عيسى، فرَنَا إلى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال: - ها هو ذا إسرائيلي لا غش فيه.

فعجب نثنائيل وقال له:

- من أين تعرفني؟

- رأيتك وأنت تحت التينة، قبل أن يدعوك فيليبس.

وأصغى نثنائيل إليه منشرح الصدر، أحسّ كأن بلسمًا مسّ روحه، وكأن صوتًا آتيًا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق، فقال في انفعال: - أشهد أنك رسول الله.

وهجر الصيادون شباكهم، ووهبوا أنفسهم لله الذي أوحى إليهم أن «آمِنوا بي وبرسولي»، وذهبوا مع عيسى يصطادون الناس.

-15-

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(قرآن كريم)

خوار ثيران، وثغاء أغنام، وهديل حمام، ورائحة الروث تتصاعد في المكان تُزكم الأنوف، وأصواتٌ ترتفع هنا وهناك، هذا يتحدث باليونانية، وذاك بالرومية، وثالث بالعبرية وآخر بالفرعونية، حتى ليخال السامع أن سوقًا من أسواق بابل دبت فيها الحياة.

وتحت الأقبية جلس الصيارفة، يشعّ الجشع من عيونهم، وأمامهم موائد عليها أعمدة من الفضة، وأكداس من العملات الأجنبية، وانبعث رنين النقود، فكان نغمة من آلاف النغمات المتنافرة المدوية.

وسرت تراتيل اللاويين وصلوات الكهنة، وانمحت في محيط الضوضاء، فما كان المكان سوقًا عامة، بل كان الحرم المقدس في الهيكل المقدس، ساق إليه التجار ثيرانهم وأغنامهم وحمامهم، ليبيعوها للحجّاج الوافدين في الفصح إلى أورشليم، ليقدموا إلى الله القرابين، جلس الصيارفة أمام موائدهم يبدّلون للحجيج نقودهم بالشاقل الإسرائيلي، على جعل قدره خمسة في المائة، فقد فرض على كل إسرائيلي، غنيّ أو فقير، نصف شاقل فدية، وكان يجمعها الكهنة، وخوفًا من أن تدفع لهم بالعملات النحاسية أو البرونزية أو بعملات أخرى قد يضطرون إلى مبادلتها بالجعل المقرر -وفي ذلك خسارة لهم- لذلك حددوها بشاقل إسرائيل ومنحوه القدسية، لأن عصا هارون ضُربت على وجهه، وضُرب على الوجه الآخر قِدر المنّ على شكل كأس وكتب حوله بالسامرية: «شاقل إسرائيل»، وما قدسه في نظر الكهنة إلا فضته النقية!

وثبتوا في أذهان الناس أن حرامًا أن تدخل هيكل الرب ويدك خالية، كأنما الغني الوهاب في حاجة إلى أُعطيات الناس، وكأنما من يرزق عباده يسترد لنفسه بعض ما وهب. إن الله غني عن عباده، أما الكهنة فعلى الرغم من غناهم، كانوا فقراء إلى ما في أيدي الناس، وإن كانوا محاويج يحرمون أنفسهم القوت ليشتروا لمن يتسترون خلف اسم الله هدية، الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.

والفَرِّيسيون المتزمتون المنطلقون في الطرقات يتجسسون على الناس، ليتحققوا أن كل شيء نظيف وطاهر، كما تقضي الشريعة الموسوية، لم تُزكِم أنوفهم رائحة الروث في الحرم المقدس، فتجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفَرِّيسِيين، حتى هِلّيل وشَمّاي وكبار رجال الدين لم يجدوا في قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله!

وفي طرقات أورشليم تدفق الحجّاج، المصريون في ثيابهم الفرعونية والسوريون في أرديتهم الوطنية، والأغنياء في ثيابهم الغالية، والفقراء في أسمالهم البالية، والجنود الرومان في غُدو ورواح، ينظرون إلى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة، جاءوا يقدمون خشوعهم لله.

وفد حجّاج الجليل، النساء المحجبات على ظهور الحمير والبغال، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات، والصبيان يلعبون في مرح، وبين تلك النساء كانت مريم. كانت في كل فصح تذهب إلى الهيكل المقدس، الإيمان العميق يسكن قلبها، أما في هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها في جوفها يخفق كجناح حمامة. الرهبة تكتنفها، والقلق يسري فيها، كانت تعلم أن ابنها سيَقدُم أورشليم يعرض نفسه على الناس، ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه.

دلف عيسى إلى الهيكل، فإذا التجار يحتلون رواق الأمم، رأى فيه هذه الثيران والأغنام وهو صغير، وأحسّ يومها امتعاضًا، ولم يفعل شيئًا غير الامتعاض، فما كان له سلطان، أما اليوم فهذا المشهد يحرك غضبه. لم يعد ذلك الغلام الذي لا يملك إلا الأسى، إنه رسول الله، وما كان يقبل أن يتحول بيت الله إلى سوقٍ للبيع والشراء.

عزم على أن يطهر الحرم المقدس من الثيران والأغنام والتجار والصيارفة، ويعيده كما كان، مكانًا للعبادة والتقديس، فتلفت فوجد حبالًا على الأرض فتناولها وصنعها سوطًا، وراح يطرد الخراف والثيران حتى إذا خلا المعبد منها، ذهب إلى تجار الحمام، وقال لهم في صوت آمر:

- ارفعوا هذا من هنا.

أذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا، كانوا في أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون، فما كان الحرم مكان بيعٍ وشراء، وما عاونهم على الاسترسال في خطئهم إلا أنهم لم يجدوا من يردهم عن غيّهم، فما أيسر هزيمة الرذيلة إذا دفعتها الفضيلة بيدٍ قوية، وما أسرع أن ينجاب الظلام إذا سُلط عليه النور.

وذهب إلى موائد الصيارفة وقلبها، فتبعثرت الشواقل الفضية المقدسة، وجرت النقود تختفي في الروث، وصاح الصيارفة في فزع، ولم يحتجوا على ذلك الذي لم يدروا بأي سلطان يطردهم، كانوا على أموالهم مشغولين.

وتجمهر الناس يرقبون ذلك الثائر لكرامة الهيكل، وقد ملئت أفئدتهم إعجابًا، ورنا الفَرِّيسِيون والكهنة إليه في غَيْرة، ضايقهم أن يقوم جليلي فقير على تلك الثورة التي صادفت في نفوس الحجّاج هوًى، وزاد في غَيْرتهم التفاف الناس حوله، وإلقاء السمع إليه.

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلي، وسارت الجموع خلفه، فلما أتم صلاته، دنا منه رجل وقال له:

- إن الشعب يحب أن يسمعك.

وتقدم عيسى يعظ الناس، هُرِعَت الجماهير إلى المكان. حتى ضاق بهم، وجلست مريم في الشرفة العلوية المخصصة للنساء، تلك الشرفة التي طالما جلست فيها تصغي إلى الوعّاظ قبل أن تبشرها الملائكة بابنها الماثل أمامها كملاك. وانبعثت في جوفها إحساسات متباينة، واستشعرت فرحًا، ولكن لم يكن ذلك الفرح خالصًا، فقد امتزج برهبة، وطأطأت رأسها في خشوع وغابت عما حولها لحظة، صلّت فيها لله، وابتهلت إليه أن يمدّ ابنها بتوفيقه، وأن يؤيده بنصره.

ارتقى الشرفة مهيبًا قويًا، تلك الشرفة التي ارتقاها قبله علماء وكَتَبَة، وأشار بيده أن اصمتوا، فغرق المكان في الصمت، فقال في صوتٍ قويٍ يمتاز بحرارة الإيمان:

- تبارك اسم الله القدوس، الذي من جوده ورحمته أراد، فخلق خلقه ليمجدوه.

تبارك اسم الله القدوس الذي خلق نور جميع الأنبياء والقديسين، قبل كل الأشياء، ليرسله لخلاص العالمين، وقال على لسان داود: «قبل كوكب الصبح في ضياء القديسين خلقتك».

تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الملائكة ليعبدوه، وتبارك الله الذي خذل الشيطان وأتباعه، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يُسجَد له.

واستمرّ عيسى في موعظته، واشتد على الشعب، لأنهم نسوا أوامر الله، وعنّف الكهنة لجشعهم، ووبخ الكَتَبَة الذين تركوا التعاليم الصحيحة ليُعلّموا الناس تعاليم باطلة زائفة.

وأثّرت موعظته في الناس، فجرت دموعهم على خدودهم، وانهمرت دموع مريم، واستشعر الشعب رهبةً، وأحسوا الله في أنفسهم، فقد كانت موعظته قوية تمسّ أوتار القلوب، أما الفَرِّيسِيون والكَتَبَة والكهنة فامتلئوا غيظًا، وتحركت بغضاؤهم، نال منهم على ملأ من الحجّاج، ولكنهم كتموا ما في قلوبهم خشيةً من ثورة الناس إذا مسوه بسوء، وكان أعضاء السنهدرين

حاضرين يسمعون، فحقدوا عليه إلا نيقوديموس، كان لكلامه وقع في نفسه جميل.

كان نيقوديموس غنيًا حكيمًا، وثالث عضو في السنهدرين، أثّرت فيه دعوة عيسى، وأحسّ رغبة في أن يصغي إليه، ولما كان عالمًا كبيرًا، خشي أن يجلس إلى جليلي فقير أمام الناس يتلقى منه علمًا وحكمة.

تريث حتى إذا أقبل الليل خرج متسترًا بالظلام، وجاء إلى عيسى، فألفاه يبشر بملكوت الله، فقد كان يبشر، كما كان يحيى يبشر ويقول: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات». كان عيسى بشيرًا، يدعو قومه إلى التأهب لذلك اليوم الذي يأتي فيه ملكوت الله، إلى اليوم الذي ينزّل الله فيه الذكر ويحفظه بين الناس.

لم يكن عيسى صاحب رسالة جديدة، فما جاء لينقض الشريعة الموسوية، بل جاء يكملها، وكان يتلقى وحي السماء فيحدث به قومه، ولم يكتب منه حرفًا، فقد كان يهيئ بني إسرائيل بذلك الوحي ليوم آت يُنَزّل فيه الله دينه ويوحي فيه كتابه، ويحفظه إلى أن تزول الأرض والسماء، ذلك هو ملكوت الله.

دنا نيقوديموس من عيسى، وألقى إليه سمعه، فراح عيسى يحاوره، ويجاذبه أطراف الحديث، فقال نيقوديموس:

- نعلم أنك أتيت من الله مُعلمًا.

فقال له عيسى، وهو مقبل عليه:

- الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله.

لم يفهم العالم الكبير ما يقوله عيسى، فقال متعجبًا:

- كيف يمكن لإنسانٍ أن يولد وهو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟

لم يفهم العضو الثالث في السنهدرين أنه يكفي للدخول في اليهودية الولادة من الماء، أن ينزل المرء من صلب يهودي، أما الدخول في ملكوت الله فلا بد له من ولادة جديدة، من روح جديدة مؤمنة ينفخها الله في المؤمنين، فقال له عيسى:

الحق الحق أقول لك، إن كان لا يولد من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل في ملكوت الله، المولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح، لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولد من فوق، الريح تهب حيث تشاء، وتسمع

صوتها، ولكنك لا تعلم من أين تأتي، ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من وُلد من الروح.

- لم يفهم الفَرِّيسِي الكبير أن الله يملأ قلوب المؤمنين بروحٍ قوية، روحٍ مؤمنة جديدة غير الروح التي نفخها فيهم يوم خلقهم من ماءٍ. هذه الروح العلوية تجعلهم خلقًا جديدًا، خلقًا صالحًا للدخول في ملكوته، في دينه الذي سيبعثه هداية للعالمين، فقال نيقوديموس:

- كيف يمكن أن يكون هذا؟

فقال له عيسى في دهش:

- أنت تُعلِّم إسرائيل ولست تعلم هذا؟ الحق الحق أقول لك، إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا، ولستم تقبلون شهادتنا، إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات؟

قال له عيسى إننا -نحن الرسل- نتكلم بما يوحى إلينا نحدثكم بما تحسونه فلا تصدقوننا، أفتصدقوننا لو حدثناكم بالغيب الذي في السماء.

أكان عيسى يحدثه بذلك الغيب، ويقول له سيأتي آخر مثلي يؤسس ملكوت الله، وذلك الإنسان لا يزال في السماء حتى الآن، يبعثه الله هداية ورحمة؟!

وقام نيقوديموس من عنده وهو مؤمن أن عيسى رسول الله، أرسله إلى قومه بشيرًا، وانطلق وكلمات عيسى ترنّ في أذنيه، يزيد في روعتها ذلك الغموض الذي يدثرها.

-16-

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

(قرآن كريم)

الفَرِّيسِيون يرصدون فعاله بعين الشر، والناس يصغون إليه في إعجاب، ولا شيء بعد الإعجاب، كان أدرى الناس بالناس، إنهم يُلقون إليه السمع، وينفعلون بما يقول، ولكنهم لرؤسائهم الروحانيين ينقادون، فإذا اشتدت العداوة بينه وبين الفَرِّيسِيين والكَتَبَة وأعضاء السنهدرين، فسيخلون بينه وبينهم، ولن يفزعوا لنصرته أو يمدوه بالعون والتأييد. فرأى أن يغادر أورشليم معقل الكَتَبَة والفَرِّيسِيين المرائين، وأن يذهب إلى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السموات، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه، جاء إليهم عزيز الجانب، يناوئهم في معقلهم، تظاهره قوةٌ تعاونه على إظهار الحق المبين.

هبط من التلال العالية التي شيّدت فوقها أورشليم، يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيليبس وصديقه بَرثولوماوس، الإسرائيلي الذي لا غش فيه، وانطلقوا مع الطريق، فإذا انحنى في حدة انحنوا معه، وإذا انساب في يسرٍ انسابوا فيه، وإذا صعد في جبل، راحوا يصعدون، وعند الآبار كانوا يحطّون الرحال ويستريحون.

خرجوا من اليهودية، ووقفوا على حدود السامرة، وأراد التلاميذ أن يدوروا حولها، فما كان اليهود يدخلونها، فهم يحتقرون السامريين، ويضعونهم في مصاف الوثنيين، لأنهم يعتنقون مذهب غاريزيم، ذلك المذهب الذي لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التي نزلت على موسى، أما المزامير وأما ما كتبه مردخاي فلا يعترفون به، فالتوراة نزلت على موسى، فكيف يكتب موسى ما وقع بعد موته؟

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم، ويجدون وزرًا في محادثتهم، حتى إذا سقط ظل سامري على واحد منهم، أوجب ذلك التطهير من النجس الذي حل به، وقالوا: «إن قطعة الخبز التي تأكلها مع سامريٍّ، هي قطعة من لحم الخنزير».

لم يلتفت عيسى لتلك الأوهام، فراح يخترق السامرة، حتى إذا بلغ منه التعب ذهب إلى شكيم «نابلس».

كانت الشمس في كبد السماء، ترسل أشعتها الحامية، فيتفصد العرق من الوجوه، ونظر عيسى حوله يبحث عن مكان يستريح فيه، فألفى بئر يعقوب،

تظللها أشجار التين، فانطلق إليها وجلس على حافتها يستَرْوِح النسمات التي كانت تهب بين الحين والحين.

بقي عيسى في ذلك المكان وحده، ذهب تلاميذه إلى المدينة يشترون طعامًا، ونام الكون في تلك القيلولة، وهدأت الطبيعة، ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة، وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم، ففي ذلك المكان، كما جاء في سفر التكوين، في ديار «شكيم» سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين.

إنها بقعة مباركة، جاء إليها يعقوب ونصب فيها خيمة، وأقام مذبحًا دعاه إيل إله إسرائيل، وجاء إليها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. إنها بقعة عاطرة بالذكريات النبوية، توحي بالتأمل والتفكير.

ومد عيسى بصره إلى الوادي الأخضر، وإلى الأشجار الشامخة، وإلى سنابل القمح المتماوجة في ضوء الشمس كنهرٍ من التبر، فأحسّ راحة لذيذة بعد التعب المضني الشديد.

وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها، فقال لها عيسى:

- أعطيني لأشرب.

عجبت السامرية لذلك الطلب، وترجمت عن عجبها بقولها:

- كيف تطلب مني لتشرب، وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟

فقال لها في هدوء:

- لو كنت تعلمين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبت أنت منه، فأعطاك ماءً حيًا.

فنظرت المرأة إلى البئر العميقة، وقالت له في استخفاف:

- يا سيد، لا دلو لك، والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحي؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر، وشرب منها، هو وبنوه ومواشيه؟

فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات، أن يرفع هذه السامرية الفقيرة، كما رفع نيقوديموس مُعلم بني إسرائيل، وثالث أعضاء السنهدرين، فقال لها:

- كل من يشرب من هذا الماء يعطش. ولكن من يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء، ينبع إلى حياة أبدية.

أحسّت المرأة أنها في حضرة حكيم، فقالت وقد اختفت نبرات الاستخفاف من صوتها:

- أعطني هذا الماء لكيلا أعطش، ولا آتي هنا لأستقي.

- اذهبي، وادعي زوجك، وتعالى ههنا.

- ليس لي زوج.

فنظر إليها عيسى قليلًا ثم قال:

- حسنًا قلت ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي لك الآن ليس هو زوجك.

أطرقت المرأة قليلًا، فقد كشف عيسى عن سر حياتها الخليعة، كانت تبيع نفسها، فغمغمت:

- أنت نبي.

إنها في حضرته تحس خزيًا، ورفعت رأسها فوقع بصرها على المعبد الذي أقامه السامريون لمنافسة أورشليم، فخطر لها أن تحول الحديث إلى تلك الناحية، فأشارت إلى الجبل وقالت:

- آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجَد فيه.

نطقت المرأة المدنّسة صدقًا، فهنا سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، أما أورشليم فقد فتحها داود، ثم بنى ولده سليمان فيها هيكله. هذه البقعة أكثر قدسية من الهيكل، فلماذا لا يحجّ إليها الناس؟ أيحدّثها عيسى عن أسرار رسالته كما حدّث نيقوديموس؟

حدّثها عيسى عن ملكوت الله، عن دين الله القيم الذي سيختاره للعالمين، فإذا جاء ذلك الدين فلن يسجد الناس في أورشليم أو شكيم، فلله المشرق والمغرب، فأينما يولِ الناس وجوههم فثمّ وجه الله، راح يقول لها:

- يا امرأة صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم.

وسواء أصدقته المرأة أم لم تصدقه، فقد صدقه الزمان، جاء ملكوت الله: الدين القيم الذي جعل الأرض كلها مسجدًا.

قالت له المرأة وقد تأثرت بما قال:

- أعلم أن المسيح يأتي، فإذا جاء أخبرنا بكل شيء.

فقال لها عيسى:

- أنا هو الذي أكلمك.

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة، ذلك المعلم الكبير، الرِبِّي الصادق، يخالف ما يقول به الرِبِّيون، فقد كان محرمًا أن يتكلم الرِبِّي علانية مع امرأة،

حتى ولو كانت زوجته، ولاح الدهش في وجوههم، فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب، بل يحدث سامرية فاجرة.

ذهبوا إليه وقد كتموا دهشتهم، وفرّت المرأة مخلفة جرّتها، وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبي الذي كشف لها عن أسرارها.

ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له:

- كل.

- أنا لي طعام لستم تعرفونه.

فالتفت التلاميذ بعضهم إلى بعض وقالوا:

- لعل أحدًا أتاه بشيء يأكله.

- طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني، وأتمم عمله.

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون، وغصّ بهم المكان، فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السموات، فتفتحت قلوبهم له، ودعَوْه أن ينزل عندهم يومين.

فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيليبس، وبَرثولوماوس، الإسرائيلي الذي لا غش فيه، ليمضوا يومين في ضيافة السامريين أعداء اليهود، غير آبهين لذلك المثل الذي يقول: «إن قطعة الخبز التي تأكلها مع سامريٍّ، هي قطعة من لحم خنزير».

-17-

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(قرآن كريم)

بدا بحر حنيسارت الأزرق الهادئ كصقال مرآة، ولاحت للعيون شمسان، شمس في السماء وشمس في الماء، وامتدت حقول القمح وحدائق الفاكهة، وكُسيت الأرض حُلّة خضراء، وزها الوادي بالألوان، فقد كان مرتعًا للجمال.

وعلى هذا البحر الصافي الرقراق يقع كفر ناحوم، وهي مدينة لصيد الأسماك، ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه، فالمراكب تحمل البضائع، ثم تبحر إلى الشاطئ الآخر، حيث ولاية فيليبس، ابن هيرودس حاكم الرُبع من قبل الرومان.

كان الرجال في غدو ورواح، الحمالون يحملون سلال الفواكه وأكياس القمح، وينقلونها من الشاطئ إلى المراكب، والبحارة في ألوانهم النحاسية، يتسامرون، وتجلجل في الفضاء ضحكاتهم الفضية، والنساء ينشرن الشباك على أشجار التين العارية من أوراقها لتجفيفها، وتجار السمك يجففونه ويرصّونه على سعف النخل، وما كانوا يأكلونه مكتفين بالتين والبلح، فما كان التجار يأكلون رءوس أموالهم.

وراح محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم، يزِنون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدّرون عليه الرسوم، ما كانوا تابعين لسلطة واحدة، بل كانوا فريقين، فريقًا يجمع الضرائب للرومان، وفريقًا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته.

وكان اليهود يمقتون هؤلاء الجباة من أعماقهم، لطبيعتهم التي تبغض الإنفاق، ولأن هؤلاء الجباة يذّكّرونهم على الدوام أن سلطان الدين ذهب، وأنهم أصبحوا رعايا لدولة وثنية، لم تكن في يوم من الأيام شعب الله المختار.

كانوا يكرهون الجباة وينفرون منهم، ولا يحادثونهم ويعتبرونهم عشّارين خطاة، وكان يزداد ذلك المقت، إذا كان الجابي يهوديًا ممن باع نفسه للرومان.

كانت كفر ناحوم مدينة فقيرة مزدحمة بالفقراء، لم يكن فيها مَجْمَع يجتمع يوم السبت فيه الصيادون والحمالون والأُجَراء، يصغون فيه إلى التوراة،

ويقيمون فيه شعائر الصلاة، ومال قائدٌ روماني إلى اليهودية فبنى فوق هضبة تطل على البحيرة معبدًا لله.

بُني المَجْمَع وما كانت الصلاة فيه ميسورة للكادحين الفقراء، فما كان كاهن المعبد الأكبر يعظ الناس لوجه الله، إنه يريد الهدايا والأموال، فكان يفرض عليهم النذور والقرابين، فما كانت الحقيقة سَفَرت عن وجهها، فمن الذي يُعلّمهم أن الله لا ينال لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى من الناس؟ حتى الكهنة واللاويين يجمعون لأنفسهم العشور من الوافدين على بيت الله.

كان الناس في كفر ناحوم يتحدثون في إيمانٍ عن عيسى الذي نزل مدينتهم، إنه أبرأ ابن نبيلٍ من البلاط من مرضه، دون أن ينتقل من موضعه، إن الرجل جاء إليه ضارعًا أن يشفي ابنه، فأخبره أن إيمانه برأه من علّته، فلما عاد النبيل إلى بيته ألفى ابنه الذي تركه مسجًى في فراشه، بارئًا يغدو ويروح هنا وهناك.

راح كل واحد يعلّق على هذه المعجزة ويحاول أن يجد لها شبيهًا في التوراة، فقال بعضهم إنه إيليا قد قام، فإيليا شفى المرضى من أسقامهم، وقال بعضهم إنه النبي الذي بشرت بمَقدَمه البشارات، وقد أيده الله بالمعجزات، ليصدقه الناس ويؤمنوا بما جاء به من عند الله.

وجاء عيسى إلى المرفأ، فلما رآه الصيادون والحمالون والأُجراء فُتِنوا به، فتركوا ما في أيديهم وذهبوا إليه، فنفوسهم صادية إلى نهر الكلام العذب، النابع من قلب ملأه الله علمًا وحكمة، والتفوا حوله، فارتقى حجرًا، وراح يُحدّثهم بما أوحى الله إليه.

وتقاطر الناس، وازدحم المرفأ بهم وهو يحدثهم حديثًا يأسِر أفئدتهم، كان حديثه لا يخرج عمّا جاء في التوراة، ولكنه كان حديثًا مجلوًا أخاذًا، فقد أزال عنها جمود السنين. رمقوه في إعجاب، ونطقت وجوههم بالفرح النازل بالصدور وبدوا كأنما أريقت فيهم نشوة، وزاد في إعجابهم أنه كان يُذكّرهم بيحيى، إنه يبشرهم بقرب الخلاص كما بشرهم ابن زكريا قبل أن يقبض عليه هيرودس أنتيباس، فهو يصيح بهم مثله: «توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات».

تعطل العمل في المرفأ، فقطار الحمير المحملة بإنتاج وادي يزرعيل، لا يجد من ينقل الفواكه والحبوب إلى المراكب، وتلفت أصحاب الأموال، فلم يجدوا الحمالين والأُجراء، فتملكهم الغضب، وذهبوا إلى حيث اجتمع الناس.

ألفوا الصيادين والحمالين والأجراء يصغون إلى عيسى كالمأخوذين الذين لا يحسّون ما حولهم، حتى الجباة العشّارون ألقوا إليه سمعهم، فاشتعلت ثورتهم، وصاحوا به: إن الوعظ ليس في المرفأ بل هناك في المَجْمَع، وإنه يفسد الأُجراء، ويعطلهم عن أعمالهم، وما أن صكت أصوات أصحاب الأعمال آذان الحمالين والأُجراء حتى هبطوا من السموات التي حلقوا فيها لحظات،

وانصرفوا إلى عملهم وهم يغمغمون، إن الأغنياء يكرهون عيسى لأنه يعطف عليهم ويواسي فقرهم.

وانصرف الجميع إلا اثنين، أحدهما كاتب يعرف التوراة ويُعلّم الناس في المجامع، والآخر محصل ضرائب يهودي باع نفسه للرومان، كرهه اليهود وقاطعوه، وإذا تحدثوا عنه قالوا في زراية: متَّى العشّار.

ووقف متَّى مذهولًا عما حوله، فهو مشغول بالإحساسات الجديدة المتفجرة في جوفه، إن نورًا ينبعث من أغواره، فينير كل شيء أمام بصيرته. وإن صوتًا في نفسه يوحي إليه أن آمِن بذلك الرسول، الذي رفعك وقربك من السماء.

وتقدم الكاتب إلى عيسى عارضًا عليه نفسه، قال:

- أتبعك أينما تمضي.

وفي نظرةٍ أحاط عيسى بذلك الكاتب الذي فيه غرور الكَتَبَة، فلم يفرح به، ولم يقبله تلميذًا من تلاميذه، بل قال له:

- للثعالب أَوجِرةٌ، ولطيور السماء أوكارٌ، أما ابن الإنسان فلا يدري أين يضع رأسه.

إنه في كفر ناحوم يمضي ليله في بيت سمعان، ولكنه ما كان يمكث في مكانٍ واحدٍ طويلًا، إنه في رحلة دائمة، يومٌ في أورشليم، ويومٌ في كفر ناحوم، ويومٌ في الناصرة، ويومٌ في غيرها من المدن والقرى اليهودية؛ ينام حيث ينام، وما كان ذلك الكاتب بقادرٍ على أن يعيش هذه الحياة، أو يحتمل ذلك التقشف الذي لا يحتمله إلا رجلٌ عميق الإيمان.

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متَّى يتطلع إليه وفي عينيه صفاء، كانتا كمرآة صادقة تعكس طهارة النفس، وفي لمحةٍ فحص عيسى عن المعدِن النفيس، فذلك الرجل الذي في ثياب عشّار انشرح صدره للإيمان، أوحى الله إليه أن آمِن بي وبرسولي، فأشار له وقال:

- اتبعني.

وسار عيسى ومتَّى يتبعه، لم يعد محصّل ضرائب للرومان بل صار محصّل علم وحكمة، وما انطلقا قليلًا حتى جاء تلميذ من تلاميذ المسيح، وقال له:

- يا سيد، إيذن لي أن أمضي أولًا وأدفن أمي.

فقال له عيسى في هدوء:

- اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم.

وذاع في كفر ناحوم أن عيسى في المرفأ، فجاء الناس والمرضى من كل فج، يتضرعون إليه أن يبرئهم من أسقامهم، وراحوا يتسابقون إليه ليسمعهم أو يمسّوا طرف ردائه. وازداد الزحام فأشار إلىِ سمعان أن يأتي بسفينة،

وصعد إليها، وابتعدت السفينة عن الشاطئ قليلًا، وأخذ عيسى يعظ منها الناس.

وجاء الليل، وبعث القمر ضوءه، فانعكست أضواء القمر والنجوم على صفحة الماء، وظهرت صور المراكب كأنما تنعكس على مرآة متموجة، والجماهير شاخصة إليه، وقد أرهفوا السمع، ثم راحوا ينصرفون، وقد برأ الأكمه والأبرص، وبرأت نفوسٌ من أسقامها.

والتف التلاميذ حوله، ولما كان قد أرسل ليدعو الناس إلى الإنجيل ([2])، إلى البشارة بملكوت الله، إلى كتاب الله الذي سيبقى بين الناس إلى انقضاء العالم، فقد التفت إليهم وقال لهم:

- فلنذهب إلى مكان آخر من المدن القريبة منا لأكرز (أعظ) هناك أيضًا، لأني لهذا العمل خرجت.

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم، ليبشر الناس ويقول لهم: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾.

(قرآن كريم)

في الفجر قبل أن يذهب الليل ويأتي النهار، وهن القمر وراح يُمحى أمام طلائع الشمس التي انتشرت في الأفق الشرقي كمروحة هائلة، أطرافها من فضة، وقاعدتها من ذهب نُضار، وهجرت الطيور أوكارها تغرد مستقبلة النهار بتسبيحة الصباح، وعلى الجبل المطل على كفر ناحوم، كان عيسى يصلي لله، انفرد وحده يدعو ربه في خشوع، ويتلقى وحي السماء.

كان نسيم الفجر رُخاءً ينعشه، وابتهاله إلى الله يشرح صدره، والمشاهد الرائعة تسكب في روحه حكمة، هذه الزنابق وهذه الأزهار، وحقول القمح التي تكسو وادي يزرعيل، وبساتين الفواكه المنتشرة كالجنان، وجمال بحيرة جنيسارت، وماؤها الأزرق الذي يبدو في صفاء البلّور تحرك مشاعره، إنه يراها بعين الشاعر والفنان، وبعين الحكيم ذي البصيرة النافذة، وبعين الرسول الذي كشف الكون له عن أسراره، فتختزن نفسه كل هذه الروائع، وتتحول فيها إلى أمثالٍ يضربها للناس.

وظلّ عيسى في صلاته، فشغل بالطمأنينة المنداحة في جوفه عما حوله، كانت روحه تهيم لتتصل بالسماء، ومسّت أذنيه أصوات، فانتبه إلى نفسه، ونظر فألفى تلاميذه يزحفون نحوه، فقام وأقبل عليهم، وتحت شجرة من أشجار السرو جلسوا يحدثهم ويفقههم في أمر دينهم.

كان تلاميذه كثيرين، يمارسون أعمالهم، ثم يأتون إليه يلقون إليه أسماعهم، ولكنه كان يريد أصفياء لا يفارقونه في الحِل والترحال، أناسًا يهجرون الدنيا ومتاعها، ويهبون أنفسهم لله، فراح يختار من بين التلاميذ حوارييه، فاختار اثني عشر رجلًا ليلازموه. لا يفارقونه في الليل أو في النهار.

وارتفعت الشمس، وعيسى وتلاميذه تحت الشجرة، يعلمهم وهم يسمعون، راح يقول لهم:

- أيها الإخوة ([3])، إن سبْق الاصطفاء لسر عظيم، حتى إني أقول لكم الحق لا يعلمه جليًا إلا إنسان واحد، هو الذي تتطلع إليه الأمم، الذي تتجلى له أسرار الله تجليًا، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم،

لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه الشجرة. بل إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا، تقي رحمته المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان.

ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر، بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمرًا بعد انقطاع المطر زمنًا طويلًا، فهو غمامة بيضاء ملأى بالرحمة، وهي رحمة ينشرها الله رذاذًا على المؤمنين كالغيث.

إني أشرح لكم الآن ذلك النذر القليل الذي وهب الله لي معرفته، بشأن هذا الاصطفاء نفسه، يزعم الفَرِّيسِيون أن كل شيء قُدِّر على طريقة، لا يمكن معها لمن كان مختارًا أن يصير منبوذًا، ومن كان منبوذًا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختارًا، وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير فيه المختارون إلى الخلاص، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك.

لُعِن اللسان الذي نطق بهذا، واليد التي سطرته لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان؛ فيمكن المرء على هذا أن يعرف شاكلة فَرِّيسِيي هذا العصر، لأنهم خَدَمة الشيطان الأمناء.

فماذا يمكن أن يكون معنى سبْق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة، تجعل للشيء غاية، وسيلة الوصول إليها في يد المرء، فإنه بدون وسيلة لا يمكن أحدًا تعيين غاية. فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيتٍ وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط، بل يعوزه موطئ القدم من الأرض، لا أحد البتة، فسبْق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى. إذا استلزم سلب حرية الإرادة التي وهبها الله لإنسان بمحض جوده، فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين في إثبات مكرهة لا سبْق اصطفاء.

أما كون الإنسان حرًا، فواضحٌ من كتاب موسى، لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا: «ليست وصيتي في السماء لكي تتخذ لك عذرًا قائلًا: من يذهب ليحضر لنا وصية الله؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها، ولا هي وراء البحر لكي تعد نفسك كما تقدم، بل وصيتي قريبة من قلبك، حتى إنك تحفظها متى شئت».

قولوا لي: لو أمر هيرودس شيخًا أن يعود يافعًا، ومريضًا أن يعود صحيحًا، ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما، أفيكون هذا عدلًا؟

أجاب التلاميذ:

- لو أمر هيرودس بهذا لكان أعظم ظالم وكافر.

حينئذ تنهد المسيح وقال:

- أيها الإخوة، ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية، لأنه بقولهم إن الله قدّر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختارًا يجدّفون على الله، كأنه طاغٍ وظالم، لأنه يأمر الخاطئ أن لا يخطئ، وإذا أخطأ أن يتوب، على أن هذا القدر ينزع من الخاطئ القدرة على ترك الخطيئة، فيسلبه التوبة بالمرة.

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبي: «لعمري يقول إلهكم: لا أريد موت الخاطئ، بل أود أن يتحول إلى التوبة» أيُقَدِّر الله إذًا ما لا يريده؟

تأملوا ما يقول الله، وما يقول فَرِّيسِيو الزمن الحاضر.

يقول الله أيضًا على لسان إشعيا النبي: «دعوت فلم تصغوا إلى» وما أكثر ما دعا الله.

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبي نفسه: «بسطت يدي طول النهار إلى شعب لا يصدقني، بل يناقضني».

فإذا قال فَرِّيسِيونا: إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارًا، فهل يقول سوى أن الله يستهزئ بالبشر، كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئًا أبيض، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه في أذنيه؟

أما كون المختار يمكن أن ينبذ، فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيل النبي: «يقول الله لعمري إذا رجع البارّ عن برّه، وارتكب الفواحش، فإنه يهلك، ولا أذكر فيما بعد شيئًا من برّه، فإن برّه سيخذله أمامي، فلا ينجيه وهو متكل عليه».

أما نداء المنبوذين، فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا: «إني أدعو شعبًا غير مختار، فأدعوهم مختارين».

إن الله صادق لا يكذب، ولما كان الله هو الحق، فهو يقول الحق، ولكن فَرِّيسِي الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم.

وجاء الصيادون والأُجراء والكَتَبَة ورجال الدين في عباءاتهم الواسعة وعمائمهم السود، وأقبل أناس من نواحي غير كفر ناحوم، وكان بين الحاضرين رجال من أورشليم وانتشرت الجموع على سفح الجبل، فقام عيسى في ردائه الأبيض، وفي قدميه نعلاه، وراح يعظ الجماهير في صوته الذي كان له في آذانهم وقع السحر، فاشرأبت الأعناق، وجعل الناس يرشفون ما ينطق به في لذةٍ ونشوة، راح يقول:

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون، طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعِطاش للبر، لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون، طوبى لأتقياء القلب، لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعَوْن، طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات.

«طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم، وقيل عليكم كل كلمةٍ شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

«أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح، لا يصلح بعد لشيء، إلا لأن يُطرح خارجًا ويداس من الناس.

«أنتم نور العالم، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت، فليضيء نوركم هكذا قدّام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السموات».

أخذ الناس يهزّون رءوسهم إعجابًا، وظل الكَتَبَة ورجال الدين صامتين، كانوا يشعرون بالحسد، ولكنهم لم يكشفوا عن الغيرة التي تأكل صدورهم، ماذا يقولون وهو يدعو الناس بالموعظة الحسنة، ويحدثهم عن الله الواحد، لم يشرك به شيئًا، فلو أنه أشرك مع الله إلها آخر، لرجموه تنفيذًا لشريعة موسى، وزاد في صمتهم أنه أعلن على الملأ أنه ما جاء لينقض تلك الشريعة، بل جاء يؤيدها ويثبتها، قال:

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل، فإني الحق أقول لكم، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى، وعلّم الناس هكذا، يُدعى أصغر في ملكوت السماء. وأما من عمل وعلّم فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السموات، فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد برّكم على الكَتَبَة والفَرِّيسِيين، فلن تدخلوا ملكوت السموات.

كانوا جميعًا من بني إسرائيل، يعبدون الله وحده، فلما وجدوه يعلن أنه ما جاء بشريعة جديدة تنقض شريعتهم، بل جاء يكمّلها، صاحوا فرحًا وسرورًا، أما الكَتَبَة والفَرِّيسِيون فقد أحنقهم تعريضه بهم، ولكن لم ينبِسوا بكلمة، خشيةً من الجماهير المنتشية بخمر موعظته.

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل، ومن يقتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلًا يكون مستوجب الحكم.

وقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تَزْنِ، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زني بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرت فاقلعها، وألقها عنك، لأنه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقى جسدك كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرت فاقطعها، وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقى جسدك كله في جهنم.

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا، يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني».

فارتفعت أصوات الكَتَبَة ورجال الدين بالاعتراض، وراحوا يصيحون:

- إن هذا يناقض شريعة موسى.

- هذا الذي يقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، قد بدل الناموس قبل أن يزول هو من موضعه.

- لم يقُل بهذا نبي ولا رسول.

وارتفعت صيحات التأييد، وانقضى وقت طويل قبل أن تهدأ العاصفة، ليستأنف موعظته ويقول:

«سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث، بل أوف لربك أقسامك، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة، لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم.

سمعتم أنه قيل: عينٌ بعينٍ وسنٌ بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخّرك ميلًا واحدًا، فاذهب معه اثنين، أو من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده». وصاح أحد الفَرِّيسِيين:

- إن هذا ما جاء يكمّل الناموس، بل جاء يعارضه.

وماج الناس، وارتفعت الأصوات وتشابكت الجموع في مناقشات، وتصرّم وقتٌ طويلٌ قبل أن يعود السكون، ويستأنف موعظته.

«لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل أكنزوا لكم كنوزًا في السماء، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا.

سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرًا، وإن كانت عينك شريرة، فجسدك كله يكون مظلمًا، فإن كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام كم يكون!

ولا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون، أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوّتها،

ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟ ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة. ولماذا لا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم: إنه ولا سليمان في مجده كان يلبس كواحدة منها، فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدًا في التنور يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟ فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم ([4])، لأن أباكم السماوي ([5]) يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن اطلبوا أولًا ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم، فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه، ويكفي اليوم شره».

واستمرّ في موعظته حتى إذا أتمها، هُرِعَ الكَتَبَة والكهنة إليه يناقشونه فيما قال، وأسرعت الجموع إليه تلمس طرف ردائه، وازداد ضغط الناس عليه، فذهب سمعان إليه يلتمس منه أن يستريح، وجاء تلاميذه يكفكفون الجماهير عنه، ولكن هيهات كانوا يتدافعون ليبلغوه، حتى الأطفال جاءوا يلتمسون بركته.

-19-

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

(قرآن كريم)

هبط عيسى من الجبل، وانطلق وحده بعيدًا عن ضوضاء الناس، فقد تركوه يلتقط أنفاسه، وتفرقت الجموع، ومواعظه تتردّد في نفوسهم، يقلّبونها ويفكرون فيها ويمعنون في التفكير، قال لهم: اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم، فماذا خلف هذه الأقوال؟ أيقول لهم: اسألوا الله التوبة والمغفرة فيعطيكم توبته، واطلبوا ما عنده يمنحكم بركته، واقرعوا بحسناتكم أبواب الآخرة فيفتح لكم جناته، أيعلمهم بهذه الأقوال أن هذا أول الإيمان: أن يعتمدوا على الله، وأن يسألوه وحده، وأن يطرقوا أبوابه؟ أيهدف إلى أن يغرس فيهم أن يكون الله الملاذ الأوحد، وألا يتخذوا من دون الله أربابًا؟ ماذا خلف هذه الأمثال، أيعلمهم أن هناك حياة غير هذه الحياة تبدأ بعد الموت! وأن هذه الدنيا ممر، فعليهم أن يأخذوا من ممرهم لمقرهم لعلهم يفلحون؟ لا تزال موعظته تتردّد في آذانهم، لكأنما الكون كله يهمس بها: «ادخلوا من الباب الضيق، فما أوسع الطريق المؤدي إلى الهلاك وأرحبه، وما أكثر الداخلين منه، وما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه».

ذهبوا إلى دورهم، ففي رءوسهم ما يفكرون فيه، أما هو فذهب ليستريح بعد ذلك الجهد المضني الشاق، ولكن أنَّى له الراحة، فهذا أبرص يعترض طريقه، ويجثو على ركبته، ويتضرع إليه في حرارة أن يشفيه، فتتحرك عوامل الشفقة في نفسه، فيمدّ إليه يده، ويلمسه فيذهب عنه برصه بإذن الله، إن الله يؤيده بالمعجزات ليثبت رسالته، كما أيد الرسل قبله بالمعجزات.

نظر الأبرص إلى نفسه، فإذا هو قد ذهب عنه السوء، فامتلأ فرحًا، وأسرع يعلن المعجزة، وينفذ ما اصطلح عليه اليهود عند إعلان التطهير من البرص، فقد كانوا يعتبرونه نجاسة، لا يتطهر منها الأبرص -وإن برأ- إلا بطقوسٍ ورسوم.

كان الكاهن يأتيه خارج المَحلّة، ويذبح عصفورًا على ماءٍ حيٍ في وعاءٍ من خزف، ويأخذ خشب أرزٍ وقرمزًا وعصفورًا حيًا، ويغمسها في الدم، ويرش المتطهِّر من البرص سبع مرات، ثم يطلق العصفور الحي، ويعلن طهارة

الأبرص، فيغتسل ويحلق كل شعره، ويقيم سبعة أيامٍ خارج داره، وفي اليوم السابع يأتي بخروفين، ويذبحهما، أحدهما ذبيحة إثمٍ، والآخر ذبيحة خطيئة، ويقدم نعجة للمحرقة، ويأتي بدقيق وزيت فيأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم والزيت ويدهن شحمة أذن المتطهِّر اليمنى وإبهام يده، وإبهام رجله اليمنى، ويصب الزيت على رأسه، ويعلن طهارته. طقوس كتبوها ما أنزل الله بها من سلطان.

ودخل عيسى كفر ناحوم والحواريون معه، وما استقر بها حتى جاء إليه قائد مائة، وفي عينيه رجاء، إنه القائد الذي بنى لكفر ناحوم مَجْمَعها، جاء إليه يلتمس منه أن يشفي عبدًا له، غلامًا يحبه تركه يتعذّب من آلام المرض، قال القائد: - جئت ألتمس منك أن تشفي فتاي الذي غادرته وهو يقاسي نوبة صرع قاسية.

فقال له عيسى:

- أنا آتي لأشفيه.

تضايق اليهود الذين سمعوا ذلك، كانوا يخشون أن يشفي عيسى ذلك الغلام، فيؤمن به قائد المائة، إنهم لا يريدون أن يدخل أحدٌ في دينهم، ولا يتمنون هداية الأمم، فهم يتصفون بأنانية دينية، فلو اهتدى غير بني إسرائيل لدخلوا الجنة مع الوارثين، مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وما كان اليهود يرحبون بذلك، فهم يرون الجنة لهم خالصة، حتى إسماعيل بن إبراهيم لا يرحبون به فيها، ولولا أن قال الله لأبيه إنه سيباركه ويجعله أمة عظيمة لطردوه من السماء!

كان الدخول إلى بيتٍ وثنيٍ خطيئة، فقال القائد: - يا سيد، لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي.

وصمت الرجل قليلًا ثم قال:

- لي جند تحت يدي، أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر إيت فيأتي، ولعبدي افعل فيفعل. قل كلمة فقط فيبرأ غلامي.

عجب عيسى لهذا الإيمان، فالتفت إلى من عنده وقال: - الحق أقول لكم، لم أجد ولا في إسرائيل إيمانًا بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات.

فالجنة ليست وقفًا على شعبٍ دون شعب، فالوارثون هم عباد الله المؤمنون، سواءً أكانوا من الأمم أمٍ من الشعب المختار.

وقال لقائد المائة:

- اذهب وكما آمنت ليكن لك.

وجاء المساء، ووُضِع الطعام، وقبل أن يمدوا إليه يدًا راح عيسى والحواريون يصلون لله: أبانا ([6]) الذي في السموات.

ليتقدس اسمك.

ليأتِ ملكوتك.

لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم.

اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا.

ولا تدخلنا في تجربة.

ولكن نجنا من الشرير.

لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد.

آمين.

كان أمينًا في تبليغ رسالته، لم يدْعُ مع الله إلها آخر في صلاته، وكان رسولًا كالرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس، ليدعوهم إلى الصراط المستقيم، ولو كان يعلم أن مع الله إلها آخر، لصلى له مع الله، ولكنه ككل الرسل كان يصلي لله الأحد الصمد. ولا يستنكف أن يكون عبدًا لله داعيا لوحدانيته، وعظ الناس فوق الجبل قائلًا: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر».

كان يعلم هدف رسالته، فما أُرسل لينقض شريعة موسى ويقيم شريعةً أخرى، بل أُرسل بشيرًا باقتراب ملكوت السموات، فراح يردّد في صلاته: «فليأتِ ملكوتك» وراح أتباعه يردّدونها مع الأيام.

«فليأتِ ملكوتك» ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنواتٍ وأجيالًا، «فليأتِ ملكوتك» هي الإنجيل الذي جاء به إلى الأتباع والأنصار، فراح المؤمنون يترقبون ذلك اليوم العظيم، اليوم الذي يأتي فيه ملكوتٌ بانيه الله، وشارعه الله، وشريعته كلام الله.

-20-

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

(قرآن كريم)

كان يحيى يعيش في الصحراء الواسعة، طليقًا كالطير، يستقبل الشروق منشرح الصدر، يملأ رئتيه بالنسيم الطلق، ويودع النهار راضي النفس، فالشروق والغروب، واصفرار الشمس كالنُضار، واحمرارها كالدم، آياتٌ تدّعم في قلبه الإيمان، وتقربه من خالق الكون.

كانت روحه تهفو إلى النجوم، فهي أنيسته في سكون الليل، وهي شريكته في تسبيح الله، وكان ضوء القمر المنعكس على مياه البحر الميت يملأ قلبه نورًا، وهُيّام الوحوش والغزلان في القفار، وتحليق الطيور في السماء توحي إليه قناعةً ورضا، إنها تجد رزقها في دنيا الله كما يجد رزقه في عسل النحل والجراد.

كان يدعو إلى التوبة وإلى تطهير النفوس من الإثم، لاستقبال ملكوت الله، فاجتمع الناس إليه مؤمنين به، فحقد الفَرِّيسِيون عليه، وما كانوا يملكون إلا الحقد وبعض نصوص ميتة من الشريعة حفظوها عن ظهر قلب، فرفعوا إلى هيرودس أنتيباس أنه يدعو الناس إلى الثورة وقلب نظام الحكم.

وأُلقِيَ يحيى في حصن ماكيروس الرابض في الصحراء، فغابت عن عينيه السماء الصافية الزرقاء، والطبيعة الطلقة الموحية، شروق الشمس وغروبها، وحرارتها التي كانت تبعث في جسمه الناحل الحياة، والنجوم المتلألئة الهامسة بالأسرار، والقمر الهاتف بسُنّة الحياة، محاقٌ فهلالٌ فبدرٌ ثم محاق.

رطوبة السجن تسري في بدنه، ورائحة الحياة البركانية تملأ صدره، وتكتم أنفاسه، والظلمة كانت كسحابة دكناء رانَت على بصره، وسلاسل ثقيلةٌ في قدميه، ويديه، عيشةٌ بغيضةٌ لربيب الحرية، عيشةٌ أهون منها على نفسه الموت.

كان السجن بغيضًا إليه، ولكن نفسه لم يَعتَورها وهَن، لم يضعف أمام جبروت هيرودس، بل ظلّ يصرخ إن هيروديا لا تحلّ له، فغيّر عليه قلب المرأة المغامرة الطامعة في أبّهة الحكم، فراحت كالأفعى تَنفُث سمومها، وتوسوس لهيرودس أن يقتله، في الليل وفي النهار، ولكن هيرودس كان يصمّ أذنيه عن فحيح الأفعى، فهو متطير يخشى إن قتله -وهو نبي- أن ينزل به غضب السماء.

كان يحيى يقابل تلاميذه وهو في سجنه، يُصغي إلى أخبار الناس، ويبعث إليهم تعاليمه، فبلَغه أن عيسى قام مثله يصيح في بني إسرائيل: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات» وأنه يقوم بمعجزات، يبرئ الأكمة والأبرص، وأنه يدعو القوم إلى الله، فأرسل اثنين من تلاميذه يقولان له: «أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟».

غادر الرجلان القلعة، وانحدرا من جبال مؤاب العالية التي كانت تحجب الشمس، وسارا والضياء المنعكس من مياه البحر الميت يكاد يغشي عيونهما، ولاحت لهما التلال العارية إلا من زنابق نبتت، فكانت كجواهر تناثرت في صحراء، وانطلقا يخترقان الوديان الخُضر، والفيافي الصُفر، يدخلان مدينة ويخرجان إلى مراعٍ يرعى فيها رعاة بني إسرائيل الرُحّل، وينسابان في صحراءٍ قاحلةٍ ليس فيها ديار ولا نافخ نار. كانت قبلتهما كفر ناحوم التي ذاع منها ما فعله صانع المعجزات.

ولاح لهما جبل يكسوه الجمال، فيمَّما صوبه، فعلى سفحه تقع مدينة نايين الجميلة، كانت الشمس في كبد السماء، وكانت أشعتها حامية، فعزما أن يدخلا تلك المدينة يقضيان فيها الظهيرة، ثم يغادرانها ليلحقا بمن أرسلهما يحيى إليه.

دلفا إلى المدينة، وجلسا يستريحان تحت ظل شجرة، ثم قاما يستأنفان رحلتهما، وما خرجا من باب المدينة الشمالي حتى لمحا جبل طابور وجبل دبوراه، ينساب بينهما طريق يصل إلى بحيرة جنيسارت، فأغذّا السير وإذا بموكب قادم، فصوبا إليه البصر.

كان عيسى وحوله الحواريون والمؤمنون، غادروا كفر ناحوم في الفجر، ليبلغوا نايين قبل العصر، جاء يبشر باقتراب ملكوت السموات، فهو في رحلة دائمة، يبصّر الناس بما أرسله به الله.

دنا تلميذا يحيى منه، وبلغاه رسالة السجين، فلم يقل لهما أنه هو الآتي، بل قال لهما:

- تعاليا وانظرا.

وسار موكب المؤمنين، وراح يرتقي الطريق الصخري المؤدي إلى نايين، وقبل أن يجتازوا باب المدينة، إذا بجنازة خارجة، وإذا بامرأة تولول وتصرخ في حزنٍ عميق، فالمحمول على الأعناق ابنها الوحيد، كان الأمل وكان الرجاء بعد موت أبيه، فإذا به يلحق بأبيه تاركًا إياها للأسى والأحزان.

نظر عيسى إلى المرأة، فهزّه حزنها، أحسّ كأن دموعها تحرق قلبه، فاقترب منها، وقال لها في حنان:

- لا تبكي.

رنت المرأة إليه من خلال دموعها، ولاح في وجهها عتاب، فكيف يطلب منها أن تكف عن البكاء والنار تسري في أحشائها، إنه لا يدري عِظَم فجيعتها، صارت ثكلى بعد أن كانت أرملة تمزق قلبها وتجددت الأشجان.

وذهب إلى النعش ووضع يده عليه، وقال في صوت عميق:

- أيها الشاب قم.

وساد وجوم، واتسعت العيون، وتحرك الشاب في نعشه، فلاح في الوجوه هلع، ووضع النعش على الأرض، وقام الشاب تدب فيه الحياة، فهُرِعَت إليه أمه تضمه وهي لا تكاد تصدق ما جرى، وتغسل وجهه بدموعها.

وفي ذلك الذهول تذكروا إيليا، فقد أعاد الحياة إلى ابن المرأة صاحبة البيت الذي ينزل فيه، وتذكروا ما ورد عن إليشع وإعادة الحياة إلى ابن المرأة الشونمية، فصاحوا:

- إنه نبي، إنه نبيٌّ كريم.

وانطلق عيسى وصحبه ورسولا يحيى، فراح يعظ الناس، ويبرئ الأكمه والأبرص، ثم التفت إلى تلميذي يحيى، وقال لهما، مقتبسًا البشارة من التوراة:

- عودا إلى سيدكما وقولا له: العُمي يبصرون، والعُرج يمشون، والبُرص يتطهرون، والصُم يسمعون، والأموات يقومون، والمساكين يبشّرون، وطوبى لمن لا يعثر في.

انصرف رسولا يحيى، وقد ملئا عجبًا، وأقبل عيسى على حوارييه والمؤمنين، يحدثهم عن يحيى العظيم، فقال لهم:

- ماذا خرجتم إلى البَرِّيّة لتنظروا؟ أقصبة تحركها الريح؟

بل ماذا خرجتم لتنظروا؟ أإنسانًا في ثياب ناعمة؟

ها هم ذَوو لباس المجد والنعيم في بيوت الملوك.

بل لماذا خرجتم؟ ألتنظروا نبيًا؟

نعم أقول لكم إنه أفضل من نبي، لأن هذا هو المكتوب عنه، هأنذا أرسل ملاكي قدّامك، فيُعبّد طريقك أمامك.

وصمت عيسى قليلًا ثم قال:

- إن يحيى لم تلد النساء مثله.

-21-

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

(قرآن كريم)

صعّرت الشمس خدّها للكون، وشمخت في كبرياء، كانت كالغانية المزهوة بجمالها تحسب أن لن يغيض، ورَنَت إلى تلال الناصرة من عليائها، فقد كانت في ذروة مجدها في كبد السماء، وسار عيسى وحواريوه حوله في الطريق المتعرج المنساب بين التلال، ذلك الطريق الذي قطعه وهو غلام، ونظر إلى البيوت البِيض، وثبّت بصره على بيتٍ بعينه، بيت الصبا والشباب، فذهب إليه وفي قلبه بهيج الإحساسات.

كان عيسى في رحلته الدائمة ينتقل من مدينة إلى قرية، كفراشةٍ تنتقل بين الأفنان، فما يتم موعظته في مكانٍ حتى ينطلق إلى مكانٍ آخر، فذاع اسمه في مدن الجليل وقراه، وإن كانت صورته لم تنطبع في نفوس الناس، كان إذا ذُكر اسمه تخيّلوه مواعظ وأمثالاً، فمواعظه وأمثاله سَرَت مسرى الهواء.

إنه يعظ اليوم في مَجْمَع كفر ناحوم، وغدًا في سوق نايين، وفي الليل على شاطئ البحر، وفي النهار على سفح الجبل، وترادفت المجامع والأسواق، وطُويت السهول والصحراء، فأحسّ تعبًا، بعد الرحلات الطويلة التي قطعها على الأقدام، وحنّ إلى ليلة يقضيها تحت سقف بيته بعد تلك الليالي التي قضاها في بيت سمعان أو تحت قبة السماء، فانطلق إلى الناصرة يمضي فيها أيامًا.

جلس حواريوه في حديقة الدار، وذهب إلى أمه، ففرحت مريم بمَقْدَمه، وأقبلت عليه تحادثه وقد فاض حديثها بالحنان ثم دخل عيسى إلى غرفته ومريم ترنو إليه في عطفٍ وإشفاقٍ فقد نحل مذ غادرها يدعو الناس إلى ملكوت السموات.

وهبطت مريم إلى الحديقة لترى أصفياء ابنها وحوارييه، فوجدت صيادي أسماك بسطاء، ولكن كان فيهم شيء يميزهم عن الناس، صفاء نفسٍ وإيمان.

طفقوا يحدثونها عن ابنها، وعن معجزاته، فقالوا لها في زهوٍ إن ما كانوا يقرءونه في التوراة رأوه رأي العين، رأوا ابنها يُحيي ميتًا، ويبرئ الأكمه

والأبرص، فعل ما فعله إيليا وإليشع، فدعم رسالته بالآيات، كما دعمها الرسل الذين أُرسلوا قبله.

وذاع في الناصرة خبر مجيء عيسى إلى مدينته، وكانت شهرته قد سبقته، فتحدث الناس عمّا فعله في كفر ناحوم ونايين، وقالوا إنه النبي المنتظر، كانت أحاديثهم مفعمة بالزهو، ولكن قلوبهم من الإيمان خواء.

وفي يوم السبت ارتدى الرجال ثيابًا نظيفة، وتزينت النساء، ولبس الأولاد ثياب الصلاة، وذهبوا إلى المَجْمَع، فيوم السبت يوم عبادة وراحة، كان المَجْمَع بناءً متواضعًا مستطيلًا، رُفع سقفه على عُمُدٍ من الطراز اليوناني، وفي صدره مكان القدس، وقد اتجه إلى أورشليم، فأورشليم قبلة اليهود من زمان سليمان الحكيم. كان الرجال يجلسون في المَجْمَع بحسب مهنتهم، فالنجارون في ناحية، والزرّاع في ناحية، والتجار في ناحية، والنساء في شرفة عالية ضُرِب عليهن الحجاب.

وجلس في الصف الأول رئيس المَجْمَع، وعلى يمينه كاهن المَجْمَع، وعلى يساره «الشيلاك» وجلس خلفهم أسنّ سبعة في الناصرة، وأمام رئيس المَجْمَع التابوت، وفيه الأسفار المقدسة، وجوار التابوت شُرُف يقف عليه القارئ أو الواعظ «البيعة».

وأقبل عيسى وأمه والحواريون، وانضم عيسى إلى النجارين وجلس الحواريون حوله، وصعدت مريم إلى الشرفة وعيناها على ابنها، والذكريات تتوافد إلى رأسها، فما أكثر ما رأته في السبوت في ذلك المكان.

قام قارئ واعتلى الشُرُف، ورتّل في صوتٍ عذبٍ الشِمَة: «اسمع يا إسرائيل إلهنا إله واحد..» وقال الأولاد: «آمين» وقُضيت الصلاة، وبدأت خدمة المَجْمَع، وفيها يُقرأ فصلان: «البراشاة» وهو فصل من الناموس، و«الهافتراه» وهو فصل من الأنبياء. دنا رئيس المَجْمَع من التابوت وأخرج السفر المقدس، فنهض الناس، وسبحوا الله ثم جلسوا، وتقدم رجلٌ مسن، وتناول التوراة وراح يقرأ «البراشاة»، ولما انتهى منها عاد إلى مقعده، فأصلح عيسى شال الصلاة على كتفيه، ثم قام وتقدم إلى الشُرُف، والعيون متعلقة به، وقلب مريم في جوفها يخفق كجناح حمامة.

فتح الخازن التابوت، وقدم إلى عيسى «الهافتراه». كان درس اليوم سِفر النبي إشعيا، فأشار الخازن بأصبعه إلى بداية قراءته، ولكن عيسى لم يقرأ من حيث أشار إليه، بل راح يقرأ من إشعيا:

«روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالانطلاق، لأنادي بسنة مقبولة للرب، بيوم انتقام لإلهنا لأعزي كل النائحين».

كان على علمٍ بالتوراة، يقتبس منها ما يلائم كل حالة، اقتبس منها «العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يتطهرون...»، لما سأله رسولا يحيى من يكون، والآن يقتبس منها ما يعلن به للملأ أنه رسول رب العالمين وطوى السِفر، ودفعه للخازن، وجلس متأهبًا ليلقي عظته. وساد القاعة صمت، فقال لهم في صوتٍ واضح:

- اليوم قد تمّ هذا المكتوب.

فهتك الصياح السكوت، قالوا له:

- آتنا بمعجزة لنشهد لك.

- لن نؤمن بك حتى نرى آية من ربك.

وقال الفَرِّيسِيون في زراية:

- أليس هذا عيسى النجار؟

- من أين يأتيه العلم وما كان من الرِبِّيين المتعلمين؟

- لن نؤمن بك حتى تأتينا من السماء ببرهان.

صارت مريم عيونًا، راحت تنظر ماذا يفعل ابنها لهؤلاء الذين يتطاير الشرر من عيونهم، إنهم يصيحون به أن يأتيهم بمعجزة، وهل كان في مقدوره أن يفعل معجزة من عنده، إنها تؤمن أن ما يفعله بإذن الله، وما تصنع المعجزات إلا إذا صفت النفوس، وأفعمت بالإيمان، وهؤلاء الجليليون غَلُظت قلوبهم، وما جاءوا ليؤمنوا، بل جاءوا به يشاهدون عملًا خارقًا من الأعمال.

وارتفع الصياح:

- شفيت مرضى كفر ناحوم، فاشفِ مرضانا.

فأشار عيسى إليهم أن اصمتوا، فلما خفتت الأصوات، قال:

- تقولون: أيها الطبيب، اشف نفسك، كم سمعنا بما جرى في كفر ناحوم، فافعل ذلك هنا أيضًا، الحق أقول لكم: ليس لنبي كرامة في وطنه. إن أرامل كثيرات كنّ في إسرائيل في زمان إيليا، في ذلك الزمن الذي لم ترسل فيه السماء أمطارًا لثلاث سنين، فحل الجدب بالأرض، واحتاجت الأرامل إلى العون، ولم يتقدم إيليا إلا لإنقاذ أرملة واحدة. وكان في إسرائيل كثيرون مصابون بالبرص في زمان إليشع النبي، فلم يُطَّهِر منهم إلا نعمان السرياني.

فظهر الغضب في الوجوه، وصاح صائح:

- أيقصد أن يقول إننا لا نستحق المعجزات التي صنعها في كفر ناحوم؟

- لم يفعل شيئًا لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يخدعنا بمعجزاته الزائفة.

ارجموه، فالشريعة تقضي برجم النبي الكذاب.

- ارجموه.. ارجموه.

وهاج الناس كالليوث الكواسر، وانقضوا عليه يقتلعونه من مكانه، وأخذوه وخرجوا به من المَجْمَع، فمشت الرهبة في قلب مريم، وهُرِعَت تهبط الدرج واجفة، وهبّ الحواريون ليخلصوه من أيدي أعدائه، وراح يوحنا يتدفق بين الجموع كثور هائج، ولكن هيهات أن يصل إليه، فقد أطبق الناس عليه كالأمواج.

انطلقوا في طرقات الناصرة، والحواريون يجاهدون وما هم ببالغيه، ومريم في أثرهم مبهورة الأنفاس، وبلغوا قمة الجبل المنحدر إلى سهل يزرعيل، وأمسكوا به ليدحرجوه حتى يتمزق على الصخور الناتئة، فقد كان ذلك نوعًا من الرجم الشرعي.

جاءوا ليدفعوا به، فأحسوا كأنما يُغشى عليهم، وكأن أيديهم عاجزةٌ عن أن تصل إليه، وإذا به يجتاز بينهم وهم واجمون، لاح على وجوههم دَهَش، وعيسى يسير هادئًا سالمًا، وقد مالت الشمس للمغيب، تلفظ آخر أنفاسها، وقد وضعت على الأرض خدها في ذلة المُحتَضَر.

-22-

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

(قرآن كريم)

دبّ النشاط في قلعة ماكيروس، فالخدم في غدو ورواح، يستعدون للوليمة الكبيرة، التي دعا إليها هيرودس أنتيباس أصدقاءه الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين، الذين كانوا ضالعين معه في خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح.

كان هيرودس يتأهب للاحتفال بعيد ميلاده، محاكيًا الأباطرة الرومان، ولما كان يتملق شعبه، ويتظاهر أمامه بأنه فَرِّيسِي متمسكٌ بالدين والتوراة فلم يستطع أن يقيم ذلك الحفل في قصره، فأقامه هنا في قلعة ماكيروس، الشامخة على جبلٍ عالٍ في جوف الصحراء.

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق، يختلس فيها هيرودس اللذة بعيدًا عن رقابة شعبه الذي لا حديث له إلا الحرام والحلال، وكانت سجنًا رهيبًا للثوار الخارجين على السلطان، والأنبياء. كانت كامرأة ذات وجهٍ بسّام وقلبٍ مظلمٍ رهيب، لا يشرق فيه بصيصٌ من نور الرحمة، ولا تعرف الشفقة إليه سبيلًا.

ذهب هيرودس وهيروديا وبطانتهما إلى القلعة، يستقبلون الزوار، ووفدت إلى رأس هيرودس أفكار، صرخ فيه يحيى في هذا المكان أن هيروديا لا تحلّ له، إنه يخشى أن تنزل به لعنة موسى فلا يَعقُب منها، وهو يشتهي أن ينجب مَن يرث بعده ولايته، كان هيرودس كثير التطيّر، طلبت منه هيروديا أن يقتل يحيى، الذي يقلب عليه بني إسرائيل، وطلب منه السنهدرين أن يقتله، حتى لا يثير بين الناس فتنة، وأشار عليه أصدقاؤه الرومان بقتله قبل أن يؤلّب الشعب على رومية، ولكنه كان يرتعد فَرَقًا إذا فكر في قتله، كان يصدق ما قيل من أن يحيى هو إيليا بُعث بعد موته يدعو الناس إلى الصلاح، فخاف أن يمدّ إليه يده، فينزل عليه خسفًا من السماء.

لم يكن يذكر خوفه إذا هبّ يدافع عن وجهة نظره، بل كان يتسربل بالدهاء ويقول إن من الحكمة أن يُترك يحيى في سجنه حتى ينساه أتباعه -وما أكثرهم- فبساطة تعاليمه ومطابقتها لناموس اليهود، جعلت تصديقه أمرًا سهلًا، حتى إن كثيرًا من الفَرِّيسِيين المتزمّتين المتعصبين صدقوه وأصبحوا له أتباعًا. فالأمل في أن يخرج من سجنه يومًا منع أتباعه من إعلان ثورتهم، أما

إذا قُتل فسيندلع لهيب الثورات، فموته أخطر من حياته، ودمه أفصح من مواعظه التي يخرج بها حواريوه إلى الناس، قد تُكدِّر تعاليمه الصفاء، أما دمه فيزلزل العروش والتيجان.

وأتى المساء وأضيئت المشاعل في القاعة العليا المقامة على أعمدةٍ من رخام، وبدت من الشرفة الصحراء المترامية في سكونها، والسماء المزينة بمصابيحها، والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة، ومُدّت الموائد وتكدّست فوقها صِحاف الفضة وأواني الذهب، ملئت بالفواكه والمآكل والشراب.

ووَفد المدعوون، والرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون في ركاب السلطان، وتحلّقوا حول الموائد وامتلأت البطون، ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهنّ شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة، فاتسعت عينا هيرودس، ولاح في وجهه انشراح، كان ينفعل لكل ما يحرك جذوة الشباب الذي ولّى.

كانت هيروديا إلى جواره تعابث ابنتها سالومي، التي كانت رائعة الحسن، كزنبقة نابتة في الصحراء، والتفت هيرودس إليها فوقعت عيناه على عينيها السوداوين كليل الربيع الساحر، وقفزت إلى ذهنه المخمور فكرة، لماذا لا ترقص سالومي في عيد ميلاده، وقد ذاعت شهرتها كراقصة ماهرة، حتى قرعت أبواب القياصرة في رومية؟

مال نحوها وقال لها:

- ارقصي لي يا سالومي.

- لا أشعر برغبة في الرقص.

- ارقصي لي.

- لا أستطيع.

- إذا رقصت لي أعطيتك ما تشائين.

فقالت في مرح:

- حقًا؟؟

- أقسم لك يا سالومي.

- بماذا تقسم؟

- أقسم بآلهتي، ما سألتِني شيئًا إلا أعطيتكِ.

- لقد أقسمت.

- أقسمت يا سالومي. وما حَنَثْت في قسمي قط.

رقصت سالومي في خفة الطيف، وتثنت كأفعى، وهيروديا ترمقها وفي رأسها أفكارٌ خبيثة، وهيرودس ينظر في ابتهاج، وحبست الأنفاس، فسالومي ترقص في حرارة كأنما تتدفق في عروقها نار، تميل فتميل معها القلوب، وما انتهت من رقصتها حتى هُرِعَت إلى هيرودس وحنت رأسها أمامه، فقال لها في انشراح: - انهضي لأمنحكِ ما تطلبين.

احتارت سالومي، فما تدري ماذا تطلب، فذهبت إلى أمها تسألها، وما كانت هيروديا في حاجة إلى تفكير، فقد فكّرت ودبّرت، فقالت لسالومي همسًا: «اطلبي رأس يحيى».

عادت سالومي إلى هيرودس، فقال لها وهو يبتسم: - هيه، ماذا تطلبين؟

- هدية في طستٍ من فضة.

فغمغم الملك في دَهَشٍ:

- هدية في طست من فضة؟ وما هذه؟

- رأس يحيى.

- فاربدّ وجه هيرودس، وطارت الخمر من رأسه، وقال في فزع: - .. لا.. غير هذا يا سالومي.

- أريد رأس يحيى في طستٍ من فضة.

فقال هيرودس وهو يهتز رعبًا: - لا.. لا.. إنه رجلٌ صالح، إنه قديس، غيرَ هذا يا سالومي. اسألي نصف مملكتي، اسألي أي شيء غير هذا.

فقالت هيروديا في إصرار:

- لقد أقسمت.

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان، الوالغون في الإثم والعدوان.

- أقسمت قسمًا عظيمًا، فبرّ قسمك.

ثارت فيه بربريته، فلم يشأ أن يحْنَث أمام مدعويه في قسمه، ولو كان الحنْث أشرف من سفك دم بريء، فقال في صوت خافت خائف: - أعطوها ما طلبت.

وهبط الجنود إلى القلعة، وساد القاعة صمت ووجوم، وانقشعت النشوة، وحلّ قلقٌ ورهبة، وانقضى الوقت وئيدًا بغيضًا، وإذا الجنود يعودون يحملون طستًا من فضة، فوقه رأس يحيى، وتناولت سالومي الطست، وعيون الفزع ترمقها، وذهبت إلى أمها تقدّم لها رأس من سبّها، ومرّغها في العار.

ذُبح يحيى، ذُبح من قال عيسى عنه: لم تلد النساء مثله، ذُبح وما اقترف إثما ولا خطيئة، ذُبح طاهر الذيل عفيفًا، ولو كانت دعوى الفداء حقًا، وأن الله يريد

فداءً عن خطيئة آدم، ولو كان الأبناء يُكفّرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر، الذي أُهدر بلا جريرة، أزكى دمٍ يقدّم للفداء، وخير كفارةٍ عن خطيئة آدم، ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء، فقد قرّر في التوراة أن النفس التي تخطئ تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، برُّ البار عليه وشر الشرير عليه يكون، وقرر أن الآباء لا يُقتلون عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل.

إن الله عادل، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى. وهو رحيم، فإذا كان آدم قد أخطأ، فقد نال جزاء خطيئته، طُرد من جنة عدن، وهبط إلى دنيا الشقاء، وراح يستغفر الله، ويذرِف دموع الندم، ولمّا كان الله يغفر الذنوب جميعًا، فقد عفا عن زلة عبده، «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

-23-

(كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون).

(حديث شريف)

شباب بني إسرائيل الرافل في العز يحاول أن يتحرر من ربقة الدين، فهم يُكوِّنون طبقة تتطلع إلى محاكاة الرومان الحاكمين، فوطأة التقاليد ثقيلة بغيضة، تكبِت العواطف المذخورة المشبوبة بين الضلوع، إنهم يريدون أن ينفسوا عن غرائزهم، وأن يقضوا أيامهم في متعة وسرور، فأجسادهم متعطشة إلى البهجة، ظمأى إلى النشوة، والناموس حائل بينهم وبين الانطلاق المنشود، فليهجروا الناموس، وليفعلوا ما يبغون.

كوّنوا حلقاتٍ منهم، وراحوا يمضون الأمسية في بيتٍ من بيوت الفاتنات، اللائي يفتحن دُورهنّ لأصحاب المال والنفوذ، وكان بيت مريم المجدلية من تلك البيوت، كانت مريم شابة جذابة، كأنما صيغت من لبن ودم، وكانت تمتاز بعينين سوداوين واسعتين، يتوّج رأسها شعرٌ فاحمٌ مسترسل، يخفي صدرها الناهد البديع.

إذا نسج الليل خيوطه السود على الكون، انسلّ الشباب الغني إليها، وراحوا يمضون ليلتهم في سمرٍ وحديثٍ ومجون، بين قرع الكئوس، وتثني الراقصات، وأنغام الموسيقى التي تحرك الغرائز، وتبعث الدفء في الصدور.

كان لمريم المجدلية أكثر من عشيق، وكانوا يتنافسون في إرضائها. فيحملون إليها الهدايا من الذهب واليواقيت، فكانت تفكر أحيانًا في أن تبعث ببعض المال إلى المعبد، فكان الكاهن يردّ إليها مالها، فالكل يعرفها غارقة في الدنَس، والشريعة تحرِّم لمس أموال الخاطئين.

وتحت شجرة ضخمة وارفة الظل، وقف عيسى في السهل المنبسط، الذي أصفرَّت فيه سنابل القمح، فبدا كأنما ارتدي حلة من الذهب، واجتمع حوله الجموع يصغون إليه، ومرت مريم المجدلية، فألْفَت جمهرة، فانطلقت في خفة الغزال تنظر، فرأت شابًا، لم يكن مثل الشباب الفارغ المتهافت عليها كالذباب، بل كان وجهه ينطق بالطهارة والرزانة، ولفت نظرها عيناه، كانتا صافيتين صفاءً غريبًا، حتى ليكاد يبدو منهما فؤاده، وأدامت النظر إليه فشعرت بمهابة، ووقفت ترنو إليه لحظة، ثم همّت بالانصراف وإذا بصوتٍ عميقٍ يقْرَع أذنيها، فتحسّ كأنما أريقت في جوفها كلماته، كانت مواعظ قويةً أخاذةً، تستحوذ على النفوس، وتُنزل بالقلوب رهبة.

تسمّرت مريم في مكانها، وأطرقت برأسها، وأرهفت سمعها، فأحسّت كأنما ينتشلها من دنياها، أصغت إلى هِلّيل وإلى شَمّاي وإلى الوعّاظ من الكَتَبَة والفَرِّيسِيين، فلم يطرق أحدهم باب قلبها، كانت مواعظهم كالطبل الأجوف، تدوّي لحظة وسرعان ما تُمحى، أما ما تسمعه الساعة فينفُذ إلى أعماقها، وتنفعل له كل خالجة وجارحة. ويبدد الظلام المتراكم في جوف صدرها، إنها تشعر أن مواعظه تغسل روحها، وتخلقها خلقًا آخر.

وانتهى عيسى من دعوته، وانصرف وحواريوه حوله. وانتشر الناس في الأرض ومريم ذاهلة، فصوته العميق الطاهر لا يزال يرنّ في أعماقها، وانتبهت فوجدت نفسها وحيدة، فسارت وهي مشغولةً بأفكارها.

وجاء المساء، فتواتر العشاق على دارها، والتفوا بها، لينعموا بمرحها، فإذا بها مطرقة ساهمة، يحادثونها وهي شاردة، فجعلوا يتظرفون ليبددوا كآبتها، ولكن هيهات، كانت غائبة بروحها، وإن كانوا يتحلّقون حول جسدها.

ووُلد النهار، فخرجت مريم إلى الجليل تبحث عمّن فجّر في نفسها نبعًا من الخير، فقد باتت تستشعر مشاعر فاضلةً ما كانت تعرفها، وانطلقت تُنقّب عمّن أحيا مَوَات نفسها، حتى وجدته يعظ الناس، فهُرِعَت خافقة القلب تصغي إليه.

أحسّت نحوه إحساسًا غريبًا، شعرت بحبٍ يملأ جوانحها، ولكنه ما كان كذلك الحب الخسيس الهابط بها إلى حمأة الرذيلة، بل حبًا رافعًا ينتشلها من وَهْدتها إلى عالمٍ صافٍ من الطُهر، إن نورًا يُسكب في روحها، فيفرّ أمامه ذلك الظلام الذي ران على حياتها، وغشاوة الدعارة تتهتّك عن عينيها، فترى جمال العفة، وحرارة كلماته تبخر مستنقع الدنَس الراكد في أغوارها، فتحسّ كأنما صارت في خفة الطيف أو الملائكة.

وعادت إلى بيتها، وأغلقت عليها بابها، ولم تفتحه لطارق، وصمّت آذانها عن توسلات أخدان الليل، وفي السكون الهاجع طفقت تناجي الله مستغفرة، تبكي في حرارة، فقد عرفت عيوبها مذ عرفت الدموع.

وخرجت وقد عزمت أن تنطلق إليه ترفع إليه شكرها على تخليصها من أدرانها، ولكن لمّا وجدته يعظ الجموع أحجمت، كانت تعرف قوة الناس، فإذا ما تقدمت إليه ارتفعت أصوات الهُزْء والسخرية. فهم يعرفونها امرأة خاطئة، ويا لقسوة الحكم على الخطاة في مجتمعٍ مراءٍ يتظاهر بالطهر والعفاف.

وانتشرت الجموع في الطرقات، وسار حواريوه وبعض الرجال، ومريم في أثره، ترجو أن تنفرد به، لتخرّ ساجدة تقبّل قدميه، فقد أخرجها إلى النور من دياجير الظلمات.

ودعاه فَرِّيسِي إلى داره، فدخل وحواريوه حوله، ولم يقدم لهم الفَرِّيسِي ماء ليغسلوا أرجلهم، فما من ضيف يدخل بيت عارفٍ بالناموس إلا يقدم إليه الماء، ولم يُقبّلهم، فالضيوف يُستقبَلون بالقبلات.

وقفت مريم تنظر، وأفكارها تراودها، إن هي عادت إلى بيتها فربما لا تتاح لها فرصة مثل هذه، وإن هي أقبلت فماذا يقول الرجال عنها؟ وبقيت في حيرة، تترجح بين الإقدام والإحجام، وتغلب إيمانها، فتقدمت نحو الدار.

سارت وقلبها يدقّ في صدرها، مريم المجدلية الجميلة التي عَنَت لها الرقاب، تتقدم واجفة، في يدها صندوق من المرمر فيه طيب، وفي جوفها قشعريرة ورهبة، ودلفت إلى المكان، فألفَت عيسى، النبي الذي بذر فيها الإيمان. متكئًا على أريكة، فركعت خاشعة، وصبّت الطيب على رجليه، وانهمرت دموعها، فانتثرت كاللؤلؤ على قدميه، فتلفتت تبحث عن شيء تجفف به دموعها التي تساقطت، فلم تجد شيئًا، فحلّت شعرها وجعلت تجفّف به رجليه.

رمقها سمعان الفَرِّيسِي في شزر وزراية، ولكنها لم تلحظه، كانت ذاهلة عنه بالفرح المنبثق في صدرها، فتلك الدموع الطافرة من مآقيها غسلت روحها، حتى صيّرتها أنقى من البلّور، وخطر للفَرِّيسِي خاطر: لو كان عيسى نبيًا لعرف أي امرأة هي تلك التي تغسل قدميه بالدموع.

رفع عيسى بصره إلى الفَرِّيسِي وقال له:

- يا سمعان، عندي شيء أقوله لك.

- قل.

- كان لدائن مدينان، على أحدهما خمسمائة دينار، وعلى الآخر خمسون، ولم يكن لهما ما يوفيّانه، فسامحهما، فأيهما يحبه أكثر؟

- الذي ترك له أكثر.

- نطقت صوابًا.

فطن الفَرِّيسِي إلى ما يرمي إليه، فهذه المرأة المثقلة بالآثام، إذا غفر الله لها: فسيكون حبها له بمقدار عِظَم خطاياها التي غُفرت.

وقال له عيسى:

- أترى هذه المرأة؟

فلم ينظر إليها الفَرِّيسِي، كأنما النظر إليها نجاسة تحتّم التطهير، فاستمرّ عيسى في حديثه:

- إني دخلت بيتك ولم تقدم إليّ ماءً لأغسل رجلي، أما هي فقد غسلتهما بالدموع، وجففتهما بشعرها، لم تقبّلني قبلة وهي لم تكف عن تقبيل رجليّ؟

لم تدهن رأسي بزيت، أما هي فقد دهنت بالطيب قدميّ.

كان عيسى يعرف أن الله غفور، يحب توبة الخطّائين، تابَ على آدم، وتاب على موسى لما قتل المصري، وتاب على داود، وإنه لَيَتوب على مريم المجدلية، التي خشعت باكية مستغفرة، فقال لها:

- مغفورة لك خطاياك.

خرجت مريم فرحة مستبشرة، تحسّ أنها خلقت خلقًا آخر.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(قرآن كريم)

كان الوقت صبحًا، النسيم يهب رُخاءً ينعش الأفئدة، وصفاء ماء بحيرة جنيسارت يقرض النفوس صفاء، وروعة المشاهد تهزّ المشاعر، وتغريد الأخيل الأزرق تنسكب في الآذان، فتنشرح له الصدور، كأنما كان ابتهالًا وتسبيحًا.

وعلى شاطئ البحيرة، وقف عيسى في ثوبه الأبيض، تتدلى منه الأهداب، وعلى رأسه غطاء، وبالقرب منه يوحنا وسمعان، وحوله باقي حوارييه، وعلى بعد خطوات وقفت نسوة محجّبات، يتبعنه أينما يذهب، إنهن مريم المجدلية، وسالومي زوجة زَبَدِي، ويونا زوجة جوزي ياور هيرودس، كنّ صاحبات أموال، فأخذن يصرفنها في سبيل الدعوة.

وجاء الناس إليه من كل قرية ومن كل مدينة، يصغون إليه، ويشاهدون آياته، فراح يعظهم، ويضرب لهم الأمثال، فقال لهم: «خرج الزارع يزرع زرعه، وفيما هو يزرع سقطت بعض البذور، فأكلتها طيور السماء، وسقط بعضها على الصخر، فلما نبتت جفّت، لأنها لم تُسقَ بالماء، وسقطت بذور وسط الشوك، فنبت معها الشوك وخنقها، وسقطت بذورٌ في الأرض الصالحة، فلما نبتت أخرجت مائة ضعف».

وصمت قليلا ثم قال:

- من له أذنان للسمع فليسمع.

واستمرّ عيسى يضرب الأمثال للناس، وحواريوه ينظرون إليه فاغري الأفواه، لا يفهمون كل ما يقول، كانوا صيادي أسماك أغفالًا، لم يتلقوا علمًا إلا في مدرسته، لذلك كانوا إذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله.

وتفرقت الجموع، وبقي عيسى وتلاميذه وحدهم، فقالوا له: - ماذا تقصد بمثل الزرع والزراع؟

فرنا إليهم في ودّ وقال:

- لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ([7]) فأصاخوا بسمعهم، وبان في وجوههم الاهتمام، إنه يبشرهم باقتراب الملكوت، وعلّمهم أن يبتهلوا إلى الله

في صلاتهم ضارعين «فليأتِ ملكوتك» وقد آن أن يكشف لهم عن سر الملكوت، ذلك السر الذي لا يعرفه إلا إياه، أشار إليه في مَثَله، ومرّ المَثَل دون أن يفطنوا إليه، كسائر الناس الذين حسبوه وسيلة للتعليم وتقريب الأشياء إلى الأذهان، قال: - يعرف الباقون الملكوت بأمثال، حتى كأنهم مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يفهمون.

وصمت قليلًا، ثم أفضى إليهم بالأسرار: - الزرع: هو كلام الله. والذين على الطريق: هم الذين يسمعون، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم، والذين على الصخر هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح، وهؤلاء ليس لهم أصل، فيؤمنون إلى حين، وفي وقت التجربة يرتدّون، والساقطون بين الشوك: هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون، أما البذور التي سقطت في الأرض الطيبة: فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلبٍ مؤمنٍ صالح، حتى تثمر بالصبر.

هذا هو سر ملكوت الله الذي يبشر به، ويدعو في صلاته أن يرسله للناس، ذلك الملكوت الذي شريعته البيضاء «كلام الله»، الزرع سينبت في الأرض الصالحة، ويثمر أطيب الثمار بالصبر والإيمان.

كانوا يتلهفون على إعلان ملكوت الله في حياتهم، على تأسيس شريعة جديدة، تحكم في الأرض، تستمد سلطانها من السماء، وينظم المعاملات فيها كلام الله، كانوا يأملون أن يرَوا بأعينهم السراج الوهاج الذي قال عنه: «ليس لأحد يوقد سراجًا ويغطيه، أو يضعه تحت السرير، بل يضعه على منارة، ليهتدي الداخلون بالنور».

عرفوا أسرار الملكوت، فلن يأتي ملكوت الله، إلا إذا نزل إلى الأرض كلام الله، وسادت شريعته، ونبتت تعاليمه في الأرض الطيبة، ولن يُنال ذلك إلا بالصبر، والصبر الطويل.

وانطلق عيسى وحواريوه إلى منزل متَّى، فقد أعدّ لهم وليمة، وكان بين المدعوين بعض حواريي يحيى وبعض الفَرِّيسِيين، وكان أغلب المدعوين من الفقراء والخطائين، فما كان متَّى يعرف إلا أبناء طبقته.

اتكأ عيسى إلى الوليمة، منشرح الصدر، وأقبل على هؤلاء الفقراء والخطائين يبادلهم الحديث في عطف، فقلبه الكبير ينفتح لهم، ويغمرهم بحنان دافق، وراح يشاركهم الطعام والشراب، بينا وقف الفَرِّيسِيون بعيدًا في كبريائهم وعجرفتهم، فالاختلاط بأمثال هؤلاء الخطائين يخدِش كرامتهم، وينال من صلاحهم وتقاهم، أما حواريو يحيى فقد نظروا في إنكار إلى ما يجري أمامهم، فأمثال هذه الولائم لا تتفق مع دعوى النُسُك والتقشف التي نادى بها يحيى.

واقترب الفَرِّيسِيون من بعض حواريي المسيح، وقالوا لهم في استخفاف: - لماذا يأكل مرشدكم مع الخطائين؟

لاحظ عيسى تقارب الرءوس، والهمس والمناجاة، ففطن إلى ما يدور بين الفَرِّيسِيين وتلاميذه من عتاب، فقال: - لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، فاذهبوا وتعلموا، إني أريد رحمة لا ذبيحة، لم آت لأدعو الأبرار، بل جئت أدعو الخطائين إلى التوبة.

فقال له تلاميذ يوحنا:

- لماذا نصوم كثيرًا نحن والفَرِّيسِيون، بينا تلاميذك لا يصومون؟

فقال لهم في رقة:

- هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا ما دام العروس فيهم. ولكن ستأتي أيام حين يرفع العروس عنهم، فحينئذ يصومون.

وصمت قليلًا، ثم قال:

- بمن أشبه أناس هذا الجيل، وماذا يشبهون أولادًا جالسين في السوق، ينادي بعضهم بعضًا ويقولون: زمَّرنا لكم فلم ترقصوا، نُحْنا لكم فلم تبكوا، لأنه جاء يحيى لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا، فقالوا عنه: إن به شيطانًا، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فقالوا: هذا إنسانٌ أكول وشرّيب خمر.

ودخل بايروس، رئيس المَجْمَع، مضطربًا وفي وجهه هلع، فلما رأى عيسى هُرِعَ إليه، وارتمى على أقدامه وقال له في توسل: - ابنتي تجود بأنفاسها، أضرع إليك أن تنقذها.

أثّر حزن الوالد الحزين في قلب عيسى، فقام معه، وسار يتبعه حواريوه وحواريو يحيى وبعض الفَرِّيسِيين، وفيما هو في انطلاقه أحسّ يدًا تلمسه، كانت لمسة إيمانٍ عميق، فالتفت إلى من حوله وقال: - من لمسني؟

فقال بطرس:

- الناس يحشرون حولك، ثم تسأل عمّن لمس طرف ثوبك؟

وتقدمت امرأة أنفقت كل ما جمعت لتبرأ من مرضها، كانت تنزف دمًا طوال السنين، فرأت أن تلمس ذلك النبي الكريم لعلها تبرأ مما بها، فنظر إليها عيسى فألفى في وجهها إيمانًا عميقًا، فقال لها: - اذهبي، بارئة بإذن الله.

وفي الطريق جاء رسول إلى بايروس، يحمل إليه الخبر الفاجع، قال له: - ماتت ابنتك.

وقال لبايروس وهو يتلفت إلى عيسى: لماذا تتعب السيد؟

- فقال عيسى لرئيس المَجْمَع:

- لا تخف. آمِن.

فقال الرجل في حرارة:

- آمنت وبلغ الحشد بيت بايروس، فإذا ضجيج العويل يتجاوب في الفضاء، فتقدم عيسى ولم يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا، وقابلته النائحات الباكيات، فقال لهن: - لماذا تبكين؟ إنها نائمة.

فظهر في العيون من خلل الدموع استخفاف، ولم تكدّره تلك النظرات، بل طلب من الجميع أن يخرجوا، وذهب إلى الصبية وخلفه أمها وأبوها وصحابته، فإذا هي مسجّاة في فراشها، فأمسك بيدها وقال: - قومي بإذن الله.

وخفقت القلوب وحُبست الأنفاس، واتسعت العيون، وإذا بالفتاة تتحرك، ثم تقوم ناهضة، وفي الوجوه دهش واستغراب.

«لأورشليم جعلت مبشرًا».

(إشعيا)

أشرقت شمس دعوته في بني إسرائيل، فالجموع تحشد تصغي إليه وتصدقه، وصفت سماؤه لم يكدّرها بعد عداوة أعدائه وحسّاده، فإذا كان أهله لم يصدقوه ولم يؤمنوا به، فقد كان ذلك سحابةً عابرة، وشرحت صدره تلك البداية الموفقة لرسالته، فدعا حوارييه، ليبعثهم إلى بني إسرائيل داعين إلى الله، مبشرين باقتراب ملكوت السموات.

كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله، بل كانوا يستفسرون منه عمّا يرمي إليه بتلك الأمثال إذا ما خلَوا به، فكيف يبّلغ هؤلاء عنه رسالته، إن الأفكار تنبثق من القلب، وتُصقل في الرأس، وتخضع للطبع، فكيف يبلغ يعقوب المندفع، وبرثلماوس الإسرائيلي الذي لا غش فيه، وبطرس المتحمس، وأندراوس المفكر، وفيليبس المؤمن، ويهوذا القلق المضطرب، أفكارًا واحدة، أفكار عيسى النابعة من رَقراق نفسه، المغلفة برقة طبعه، المصقولة بصفاء ذهنه؟

حُرِم المسيح عطف الأهل ونعمة الأبوة، فاتخذ هؤلاء التلاميذ أهلًا، ووجد فيهم منفسًا لعواطفه، فكان يرعاهم رعاية الأب لأبنائه، يحسّ نحوهم إحساسات الحب الأبوي، فكانوا جميعًا في عينيه كاملين.

حتى يهوذا الإسخريوطي، ذلك الذي جعله أمينًا لصندوق جماعته، كان لم يُحرم حبه، بل كان يقربه ويدنيه.

جاء الجليليون الأغمار، الذين أوحى الله إليهم أن آمِنوا به وبرسوله، يصغون إلى نبيهم، الذي راح يرسم لهم الطريق، قال:

- إلى طريق أممٍ لا تمضوا، وإلى المدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خرافٍ بيت إسرائيل الضالة، وفيما أنتم ذاهبون «عظوا» قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السموات.

بصرهم بهدف رسالته، أن يبشروا بني إسرائيل، وبني إسرائيل فقط، باقتراب ملكوت السموات، فقد أرسله الله رسولًا إلى بني إسرائيل، أما الأمم، الشعوب الأخرى، فسيرسل الله إليها «مشتهى الأمم» الذي بشر به النبي حَجَّي.

كان المسيح يعرف أغراض رسالته، فما بُعث إلا لشعب الله المختار، وسيرسل الله إلى الأمم الآخر، الذي قال عنه لِبني إسرائيل على لسان موسى: «سوف أقيم لهم نبيًا مثلك، من بني إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه([8]) ذلك الآتي من البَرِّيّة من الديار التي سكنها قيدار([9]) «من جزيرة العرب». ذلك الذي بشّرت به البشارات، بأن الله جعله عهدًا للشعب، ونورًا للأمم.

حذّر تلاميذه أن يذهبوا إلى طريق الأمم، فالذاهب إلى طريق الأمم هو عبد الله ومختاره الذي بشّر به إشعيا: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه، فيُخرِج الحق للأمم.. لا يكلّ ولا ينكسر، حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته»([10]).

واستمر في وصيته:

- لا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا في مناطقكم، ولا مزودًا للطريق، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا.

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا عمّن فيها، وأقيموا هناك حتى تخرجوا، ولا تدخلوا بيوتًا حتى تستأنسوا وتُسلّموا، فإن كان البيت مستحقًا فليأتِ سلامكم عليه، وإن لم يكن مستحقًا فليرجع سلامكم إليكم، فإذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا وانفضوا غبار أرجلكم.

هأنذا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات، وبسطاء كالحمام.

فقال بطرس باندفاعه المعهود:

- وإذا مزقت الذئاب الخراف؟

- لن ينالوا إلا أجسادكم، أما أرواحكم الطاهرة فتحيا عند الله.

واستأنف وصيته:

- احذروا الناس، سيُسلّمونكم إلى مجالسهم، وتُجلدون في مجامعهم، وتُساقون أمام الولاة والملوك من أجلي، لتشهدوا لهم وللأمم، فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون، فسيوحى إليكم ما تنطقون، لأنكم لستم المتكلمين بل روح أبيكم([11]) الذي يتكلم فيكم.

سيسلم الأخ أخاه إلى الموت، والأب ولده، ويقوم الأولاد على والديهم ويَقتُلون، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي، ولن يخلص إلا من يصبر إلى المنتهى.

ومتى طردوكم من هذه المدينة، فاهربوا إلى الأخرى، فإني الحق أقول لكم، لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان.

ليس التلميذ أفضل من المعلم، ولا العبد أفضل من سيده.. لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا، فإني جئت لأفرّق بين المرء وأبيه، والابنة وأمها، والكنّة وحماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته.

من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني.

كان يدعوهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم، فالخارج في سبيل الله واهب روحه لله، فمن يتعرض لوعظ الناس، فليأخذ صليبه الذي سيصلب عليه إذا ثار الناس ضده، وليتأهب للموت، ويأخذ معه أكفانه.

من يقبلكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني، من يقبل نبيًا باسم نبيٍ فأجر نبيٍ يأخذ، ومن يقبل بارًا باسم بار، فأجر بارٍ يأخذ.

وانتهت وصيته، فخرج تلاميذه إلى بني إسرائيل، اثنين اثنين، حتى إذا أخطأ أحدهما هداه الآخر إلى المحجّة، انطلقوا يبشرون بملكوت الله، يدعون إلى إله واحد، لا يدعون معه إلهًا آخر، فما حدّثهم المسيح في وصيته إلا عن الله الواحد، وعن رسوله الذي أرسله.

-26-

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(قرآن كريم)

كانت نفسه صافية، جموع الناس تُهْرَع إليه تصغي إلى مواعظه، ونظرات الحب والإعجاب ترمقه من هنا وهناك، فتسقي الأمل، فينمو ويزدهر. لم يمض على رسالته غير سنة واحدة، وإذا بدعوته صارت حديث بني إسرائيل، حديث القرى والمدن، حديث الأكواخ والقصور.

إن تلاميذه ينتشرون في الأقاليم يعظون ويبشّرون، ويعلنون للناس اقتراب ملكوت السموات، فلو رحّبت الجماهير بهم، وألقوا إليهم السمع والأفئدة، لرفرفت دعوته على الشعب المختار، وانفرجت شفتا المستقبل عن أسنانه، فحسب كل من يُحسن به الظنّ أن سيشهد مولد بسمة راضية.

واستمر في رحلته الدائمة، يعظ ويبشر باقتراب ملكوت السموات حتى لاحت له قباب الهيكل، فانطلق خافق القلب، تداعبه آمال، كان يرجو أن يؤمن به أهل أورشليم، فتصبح المدينة المقدسة قلب دعوته النابض، تتدفق منه إلى الولايات بشاراته ومواعظه.

كانت أورشليم معقِل الصَدُّوقِيين والفَرِّيسِيين، وحصن أعضاء السنهدرين الذين يستمدون سلطانهم من السلطة الحاكمة، فلو أن مواعظه وتعاليمه دكّت هذه المعاقل، لفتحت له القلوب أبوابها.

سار في طرقات المدينة الخالدة، فإذا اليهود في مرحٍ وحبور، كانوا يحتفلون بعيد البوريم، وهو عيد ليس من الأعياد الدينية، بل هو عيد لهوٍ وسخرية. كانوا في ذلك العيد يتحررون من القيود، انطلاق وخلاعة، ومغازلات، مداعبات وقبلات، دعابات صاخبة ماجنة، دعارة سافرة أغلقت دونها الأبواب. والفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون في الطرقات يتجسسون على الشعب، ليطمئنوا إلى أن كل شيءٍ قد غُسل جيدًا بالماء، وأن كل شيء طاهر، وأن شريعة موسى نافذة!

كانت عيونهم المفتوحة ترى خلاعة الإسرائيليات في ذلك العيد، وعربدة الشباب الماجن الفارغ، وكانت آذانهم المرهفة تستقبل ضحكات الإغراء والنداء، ولكنهم ما كانوا يحركون ساكنًا، كانوا يعتقدون بقدسية ما جاء في التلمود من أن «خطيئة الزنا مباحة ما دامت تُقترف في الخفاء» كان كل ما

هو مكتوب مقدسًا عندهم، ولو كان ذلك المكتوب يسخر بالعقول، ويسفه الأحلام.

قلّب وجهه فيما حوله، فأحسّ أسًى، فقد ظهر في الأرض الفساد، شريعة موسى اندثرت ولم يبق منها إلا حروف وألفاظ أزهق روحها الصَدُّوقِيون والفَرِّيسِيون، وأعضاء السنهدرين الذين يتمسكون بالناموس إذا كان في التمسك به جلب مغنم، أما إذا تعارض مع مصلحتهم فما أيسر إيجاد المحللات.

وجاء يوم السبت فارتدت المدينة المقدسة ثوب الوقار، انطلق الكَتَبَة إلى الهيكل في طيالسهم الفضفاضة، والكهنة في جببهم السود، والرجال وقد وضعوا على أكتافهم مشامل الصلاة، وشدّوا إلى أذرعتهم التفلين، وهي صناديق صغيرة تضمّ الشريعة، وتدلت من أطراف الأثواب الهُدُب، والشارات الزُرق التي يحتّمها الناموس، انطلقوا مطرقي الرءوس متظاهرين بالخشوع كأنهم ملائكة، متناسين عيد البوريم الذي كانوا فيه شياطين فترك في عيسى أثرًا عميقًا ذلك الرياء البغيض.

وقضيت الصلاة، فذهب عيسى إلى بعض معارفه في بيت صيدا، يمضي عندهم يوم السبت في حديث، فالسبت عند اليهود يومٌ مقدس، يوم راحة، فمَن عمل فيه عملًا أو حمل حملًا خرق الناموس، ومن يخرق الناموس يرجم.

انطلق وفي الطريق قابل مفلوجًا ممددًا على سريره، كان بائسًا يائسًا، فحرّك بؤسه قلب عيسى، فدنا منه وقال له في صوت رحيم:

- قُم، واحمل سريرك.

أحسّ المفلوج كأن حياةً جديدةً دبّت فيه، فأطرافه تتحرك، فراح يرفعها ويخفضها وقد انتشر فيه فرحٌ عظيم، وقعد في سريره، ثم قام والدموع تنهمر من مآقيه، وحمل سريره وسار منشرحًا يكاد يطير من السرور.

لمحه اليهود وهو يحمل سريره في السبت، فثار الغضب في الصدور، إنه يخرق بذلك العمل الناموس، فاليهود المتمسكون بحرفية الشريعة لا يلبسون يوم السبت حذاءً به مسمار، لأن ذلك المسمار حمل، فكيف يسير الرجل وعلى كتفه سرير؟

هُرِعوا إلى الرجل وأمسكوا به، وقالوا له في تعنيف:

- إنه سبت، لا يحلّ لك أن تحمل سريرك.

- قال الذي أبرأني: احمل سريرك وامش.

- من هو؟

- لا أعرفه.

كان عيسى في رحلةٍ دائمة، لا يستقر في مكان، حتى إن صورته لم تَثبُت في الأذهان، وإن كان اسمه يتردّد على كل لسان، وانصرف الرجل وذهب إلى الهيكل يقدم شكره لله، ولمح الرجل الذي شفاه، فدنا منه حتى عرفه، فلم يكتم أمره، بل ذهب إلى رؤساء اليهود، ودلّهم عليه، فالغدر في الإنسان.

وجاء رسل اليهود وأمسكوه، وذهبوا به ليحاكموه لكسْرِه السبت المقدس، واقتيد إلى الكهنة العِظام، فسألوه عن خَرْقِه الناموس في السبت، فقال لهم إن الله يعمل كل يوم، وإن الله ربّ الأيام، هو ربّ السبت أيضًا، وراح ينقض لهم اعتقادهم الخاطئ بأن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في يوم السبت، وقال لهم إن الله خلق العالم في ستة أيام ولم يمسه تعب ولا لغوب.

وألفى الكهنة يصغون إليه، فرأى أن يدعوهم إلى الله، فقال:

- الحق الحق أقول لكم، إن الذي يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية.

إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي ليست حقًا، ولكن يشهد لي آخر، وأنا أعلم أن شهادته هي الحق، أرسلتم إلى يحيى فشهد للحق، وأنا لا أقبل شهادة من إنسان. لي شهادة أعظم من شهادة يحيى، جئت من الله بالآيات التي تشهد لي، فالله أرسلني، والله نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته ولم تروه ولم تَثبُت كلمته فيكم، لأنكم لا تؤمنون بمن أرسله، ففتّشوا الكتب، فهي تشهد لي.

لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب([12])، يوجد من يشكوكم وهو موسى، الذي عليه رجاؤكم، لو كنتم تصدقون موسى لصدقتموني، لأنه بشّر بي، فإن كنتم لا تصدقون كتبه، فكيف تصدقون كلامي.

وانصرف عيسى والكهنةٌ ينظرون، يصرفون أسنانهم، ولا شيء غير الحنق الشديد، حتى إذا اختفى عن عيونهم هبّوا ليمسكوه ويقتلوه، ولكن كان قد مضى.

وما كانت الدعوة تنتشر بالتسامح والموعظة الحسنة، فهؤلاء الأقوياء سادِرون في عداوتهم وطغيانهم، يريدون أن يقتلوه ليطفئوا نور الله بأفواههم، فلو كانت تُظاهِره قوةٌ لَتَحدى طغيانهم وثَبُت في أورشليم يدكّ حصونهم، فلا يفلّ القوة إلا القوة، وما كانت تعاليمه تنهاه عن أن يقاتل الذين يريدون أن يقتلوه، فقد قال: «لا تظنوا أني جئت ألقي سلامًا على الأرض بل سيفًا»، ولكن ما كان يمتلك ذلك السيف الذي يلقيه، فلم يكن أمامه إلا أن يغادر أورشليم.

وكان هيرودس في قصره، يرى رأس يحيى في طست من فضة أينما توجه بصره في رقعة السماء، أو في صفحة الماء، أو في سكون الليل، أو في جلبة

النهار، كان منظره يطارده في اليقظة وفي المنام، فلما رُفِع إليه أن نبيًا جديدًا بعثه الله بالآيات، هبّت مخاوفه، فقال لِمَن حوله:

- هذا هو يحيى الذي ضربت عنقه قد قام من الأموات.

وعاونه تطيّره على نمو تلك الوساوس في نفسه، فكان يرى يحيى قادمًا ينتقم لدمه الذي أُهدر من غير ذنب، وضاق بمخاوفه، وأراد أن يضع لها حدًا، فأوحى إلى مَن حوله رغبته في أن يرى ذلك الذي اختلف فيه الناس، وقالوا عنه إيليا، بل إرميا، بل نبي من الأنبياء.

وعاد عيسى إلى الجليل، ووافاه تلاميذه، بعد أن خرجوا ليحملوا إلى بني إسرائيل البشارة، وأقبلوا عليه يسرِدون أخبارهم، لم تتدفق الكلمات من أفواههم حارّة نابضة، بل كانت هادئة مغلفة بالأسى، ما كانت أنباؤهم مفرِحة، بل كانت إقرارًا بالإخفاق.

كانوا أتقياء أصفياء، كل مميزاتهم عمق الإيمان، وما كانوا صالحين لقيادة الناس بالوعظ والإرشاد، كانت أعباء الرسالة فوق طاقتهم، فالله يصطفي رسله من أولي العزم من الناس.

أحسّ مرارة العداوة بعد المحبة، ومرارة إخفاق تلاميذه بعد النجاح، هبّت العواصف، وثارت الأنواء، وتلبّدت سماؤه بغيوم، حجبت شمس الأمل، وأسدلت أستار الظلام، فتيقن أن الطريق طويل، محفوفٌ بالمخاطر والأهوال فتذرّع بالصبر، لعله ينجح في أن يُبَلِّغ رسالات الله.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(قرآن كريم)

تجاوب صياح الديكة في كفر ناحوم، ولاح في الأفق الشرقي ضياءٌ فضي باهت يزاحم عتمة الليل، وكان في السماء نجمٌ واحدٌ يتلألأ، لم يفضحه النور، وعوت الكلاب فهتكت حجاب السكون، وتردّدت أنفاس الفجر نديّة عاطرة.

وخرج عيسى إلى البحيرة الهادئة، كان سطحها مصقولًا، لم يقو النسيم الواهن على تجعيده، أو مداعبة سعف النخيل، ولم تكن البحيرة صافية الزرقة، فقد انتشرت فيها دوائر داكنة، ودوائر باهتة، وتجمعت المراكب عند شاطئها، إرصادًا لطلوع النهار.

ووافاه تلاميذه، فدعاهم إلى الخروج إلى مكان هادئ منعزل، ليُفَقِّههم في أمر دينهم، بعيدًا عن جلبة الجموع، في أحضان الطبيعة الساكنة، فصعدوا إلى المركب، وانسلوا في عماية الصبح، يشقّون بحيرة جنيسارت. وأخذ النور يُراق على الأرض والماء، والطيور ترفرف في الفضاء، والصقور السود تنقض كالشهب، وسرعان ما تَعرُج إلى السماء، ودبّت في الميناء الحياة، وعيسى وحواريوه في طريقهم إلى سهل البطيحة العاري الموحش، البادي كناسك خلع زينته في هذه البقعة الغنية بالجمال.

وتهادى المركب حتى إذا بلغ الشاطئ، هبط عيسى وتلاميذه، وذهبوا إلى مرتقًى من تل، وجلسوا يُصغون إلى رسول الله، كان يعلّمهم أوامر الدين ونواهيه، وفيما هم آخذون بأطراف الحديث، قال أحد التلاميذ:

- كُتِب في كتاب موسى: إن العهد صنع بإسحاق([13]).

فقال عيسى في أسى:

- هذا هو المكتوب، ولكن موسى لم يكتبه، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله.

الحق أقول لكم: إنكم لو أمعنتم النظر في كلام جبريل تتحققون من خبث كَتَبَتنا وفقهائنا، لأن جبريل قال: «يا إبراهيم، سيعلم كل العالم أن الله يحبك، ولكن كيف يعلم مقدار محبتك لله؟ فعليك أن تفعل شيئًا تُظهر به محبة الله، فقال إبراهيم: «إني سامع مطيع لأوامر الله». فقال الله لإبراهيم: «خذ ابنك

بكرك إسماعيل(14) واصعد الجبل، وقدمه ذبيحة لله». فكيف يكون إسحاق البكر وهو لمّا وُلِد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟!

فقال له تلاميذه:

- إن خداع الفقهاء لَجَلِيّ، قل لنا أنت الحق، لأننا نؤمن أنك رسول الله.

فقال عيسى:

- الحق أقول لكم: «إن الشيطان يحاول على الدوام تعطيل شريعة الله، لذلك نَجَّس هو وحزبه والمراءون الأشرار كل شيء، المراءون بتعاليمهم الكاذبة، والأشرار بحياة الخلاعة والمجون، حتى ضاع الحق. ويل للمرائين».

واكتشف الناس مكان خَلوتهم، فجاءوا يتراكضون، وغصّ السهل بالجموع، فقام عيسى يعظهم:

- السلام عليكم يا بني إسرائيل، أنا اليوم الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟

- اين بيتك يا روح الله؟

- بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وريحاني بقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري خوف رب العزة، وجلسائي الزَمْنَى والمساكين، أُصبِح وليس لي شيء، وأُمسِي وليس لي شيء، وأنا طيب النفس غير مكترث، فمن أغنى مني وأربح؟

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء، طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، حتى يقتله، إن الشيطان مع الدنيا، وفكره مع المال، وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

طوبى لمن بكى من ذِكر خطيئته، وحَفِظ لسانه، ووَسِعه بيته.

طوبى لعين نامت، ولم تُحدّث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى غير إثم.

وسرت النشوة في صدور الناس، فصاحت امرأة:

- طوبى لحِجْرٍ حملك، ولثديٍ أرضعك.

طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به.

واستمرّ في موعظته:

- الحق أقول لكم: من طلب الفردوس؛ فخُبز الشعير، والنوم في المزابل مع الكلاب كثير.

لا تُكثروا الحديث بغير ذكر الله، فتقشعرّ قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: معافًى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

اعملوا لله، ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير، تغدو وتروح، لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها، فإن قلتم: نحن أعظم بطونًا من الطير، فانظروا إلى هذه الجماعات من الوحوش والحُمُر، فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها.

عجبت من ثلاث أُناس: طالب الدنيا والموت يطلبه، وبأني القصور والقبر منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه، ابن آدم لا بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك.

إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، اجعلوا كنوزكم في السماء، فإن قلب الرجل حيث كَنْزه.

لا تُحدّثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها، والأمور ثلاثة: أمرٌ تبيّن رشده فاتبعوه، وأمر تبيّن غيّه فاجتنبوه، وأمر اختُلِف عليكم فيه، فرُدّوا علمه إلى الله عز وجل.

لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنازير، فالخنازير لا تصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها، فإن الحكمة خيرٌ من اللؤلؤ، ومن لا يريدها شرٌ من الخنزير.

أنتم ملح الأرض، فإذا فسدتم فلا دواء لكم.

ونظر فإذا بعض الكَتَبَة والفَرِّيسِيين بين الجموع، فقال:

- يا علماء السوء، جعلتم الدنيا على رءوسكم، والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء، وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدَّفْلَى، تعجب من رآها، وتقتل من أكلها.

يا علماء السوء، جلستم على أبواب الجنة فلا أنتم تدخلونها، ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالِم يطلب الدنيا بعلمه.

واستمرّ في وعظه، والناس يُلقون إليه السمع ويقولون: «هذا هو النبي الآتي إلى الناس» ومالت الشمس للمغيب، واختفت خلف التلال الغربية، والجماهير في مكانها لا تريم، ونظر الحواريون فأعجبتهم كثرة بني إسرائيل الذين جاءوا يسمعون المسيح، إنهم يذكرونهم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى، ها هي ذي الصحراء، وها هي ذي جموعهم، وها هو ذا رسول الله، ولكن أين المنّ والسلوى؟ أطعم الله آباءهم من السماء، فلماذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء، فذهبوا إلى عيسى وقالوا له:

- ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾؟

فنظر إليهم في عتاب، وقال:

- ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قالوا:

- ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فاعتزل وأطرق رأسه، وأسبل عينيه، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال، قال عيسى بن مريم:

- ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

قال الله:

- ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

رأى عيسى في نزولها نقمةً لا رحمة، فذهب إلى حوارييه، وأخبرهم بما أوحى الله إليه، فخافوا وأبَوا نزولها، وقالوا:

- جاع الناس، فاصرفهم يبتاعوا لهم خبزًا، فليس عندهم ما يأكلون.

وقال أحد تلاميذه:

- أنمضي نبتاع لهم بمائتي دينار خبزًا؟

فقال عيسى:

- كم رغيفًا عندكم، اذهبوا وانظروا.

وعاد إليه أندراوس، وقال له في قنوط:

- إن صبيًا معه خمسة أقراص من شعير، وسمكتان.

فقال المسيح:

- ليتكئ الناس.

فبان الدهش في وجوه الحواريين، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة. وذهبوا إلى الجموع يفرقونهم فرقًا فرقًا.

واتكئوا بثيابهم الزاهية، فبدوا كأحواض الزهور المتناثرة في حديقةٍ ساعة الأصيل، وتناول أقراص الشعير ورفع عينيه إلى السماء وشكر الله، وراح يكسر الخبز، فباركه الله حتى أشبع الجميع.

وأمر تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتركوه، وانسلّ من الناس واعتزلهم، كان يشعر براحة كلما أمضى الليل قائمًا يناجي ربه، وخشع الكون، ونامت العيون، إلا عيناه، كانتا شاخصتين إلى السماء، وسكت كل لسانٍ إلا لسانه، كان يقول:

- اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيَدِ غيري، وأصبحت مرتهنًا بعملي، فلا فقير أفقر مني، اللهم لا تُشْمِت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تُسلّط عليّ من لا يرحمني.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(قرآن كريم)

وجاء الهزيع الأخير من الليل، فهبّت الرياح وصفرت في الفضاء، وعيسى في خشوعه يدعو الله، حتى إذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهبًا إلى البحيرة، فرأى المراكب في الغبش تعابثها الرياح، والأمواج ثائرة مزمجرة، ترفعها في غضب وتحطها في استياء، ولمح حوارييه يغالبون الموج، والموج يغلبهم، فانطلق إليهم يمشي على الماء.

نظر الحواريون فألفَوا شبحًا يسير على الماء، عليه كساء، نصفه إزار، ونصفه رداء، فانقبضت قلوبهم خوفًا، وصرخوا في رعب فقد حسبوه خيالًا، فإذا بصوته العذب يمسّ آذانهم:

- لا تخافوا.

فنزلت بهم طمأنينة وأمن، وهدأت مخاوفهم، وصاح بطرس باندفاعه المعهود:

- يا معلم، إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك.

فقال له عيسى:

- تعال.

فنهض بطرس، ووضع إحدى رجليه في الماء، ثم ذهب ليضع الأخرى فخفق قلبه واضطرب، فصاح وهو يهوي:

- غرقت يا نبي الله، نجّني.

- أرني يدك يا قصير الإيمان.

ومدّ يده وانتشله، وصعدا إلى السفينة، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه في دهَش، فالتفت إليهم وقال:

- لو كان لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء.

وسكنت الرياح، واستوت السفينة على الماء، وانسابت في طريقها، والمسيح يحدّث تلاميذه وهم يصغون، لم يكتبوا أقواله، لأن ملكوت السموات صار قريبًا.

وبلغت السفينة الشاطئ وقد وُلِد فجر يومٍ جديد، وهبط عيسى وتلاميذه، فلما رآه الناس دهشوا، فتلاميذه أقلعوا وهو على الشاطئ وقد تفرقوا وهو في الفضاء وحده يناجي ربه، فكيف لحق بحوارييه؟

وتجمعت الجموع حوله وانطلقوا إلى مَجْمَع كفر ناحوم، وانتشر خبر إطعامه الناس، فأقبلت الوفود، يداعب نفوسهم الجشعة أمل إطعامهم، وكأنما قرأ عيسى ما تخفي صدورهم، فقال لهم:

- الحق الحق أقول لكم، أنتم تطلبونني لا لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم.

وقلب ناظرَيْه فيهم، ثم رأى أن يرفعهم إلى عالمه الروحي المتحرّر من الماديات، فقال لهم:

- اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي، للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان. ذلك الطعام الذي باركه الله.

- ماذا نفعل حتى نعمل أعمالًا ترى الله؟

- فقال لهم:

- أن تؤمنوا بمن أرسله.

- أرنا آية حتى نؤمن بك، آباؤنا أكلوا المنّ في البَرِّيّة.

كان عيسى يحاول أن يلحق بهم في عالم الروح، وهم لا يريدون إلا أن يهبطوا في عالم الماديات، إلى إشباع البطن، إلى الطعام البائد.

- لم يعطكم موسى الخبز من السماء، ولكن الله يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء، لأن خبز الله النازل من السماء يهب حياةً خالدة.

- لم يفهموا ما يرمي إليه، حسبوه يعدهم خبزًا يشبع بطونهم لا خبزًا يشبع أرواحهم، فقالوا له:

أعطنا هذا الخبز في كل حين.

فقال لهم في صوت عميق:

- أنا هو خبز الحياة، من يُقبِل إليّ فلن يجوع، ومن يؤمن بي فلن يعطش إلى الأبد، إني جئت من السماء لا لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني.

وتذمّر اليهود، فهو ينال من مقدساتهم دون أن يمنحهم خبزًا، فقال لهم إن موسى لم يُعطهم خبزًا من السماء، فسكتوا حاسبين أنه سينزل عليهم من السماء الخيرات، فلما قال إنه هو خبز الحياة، لم يبقَ من الغضب مفرّ، غضبوا لتسفيهه معتقداتهم، وتذمّروا وزاد في تذمّرهم قوله إنه جاء من السماء، وكأنما أراد أن يوضح لهم كلامه، فقال لهم:

- الحق الحق أقول لكم، من يؤمن بي فله حياة أبدية، أنا هو خبز الحياة.

وزادت ثورتهم، فما كانوا يريدون ذلك الخبز الواهب الحياة الأبدية، بل يريدون خبز البطون، فقال لهم يشرح الخلود:

- آباؤكم أكلوا المنّ في البَرِّيّة وماتوا. أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت.

كانوا فقراء أغفالًا، لا يفهمون الأمثال، وما من حديث ألقي إلى من لا يفهمه إلا كان له فتنة، لذلك تخاصمِ الناس، وارتفعت في المَجْمَع المشادات والمناظرات، جلجلت أصوات الكَتَبَة والفَرِّيسِيين بالاعتراض، صدّقوا أن يحيى رسول الله، فقد كانت تعاليمه سهلة لا تنافي الشريعة، ولكنهم لن يصدقوا رسالة من جاء ينقض الناموس، ويقول إن موسى لم يعطهم المنّ من السماء، وإنه خبز الحياة.

وانفضّ الناس من المَجْمَع، غاضبين ثائرين، حتى بعضُ تلاميذه تركوه، لم يفهموا قوله إنه جاء من السماء، ولم يقبلوه، وخرج عيسى وحوله حواريوه، وانطلقوا صامتين، وفَطِن إلى أنهم يكتمون تذمرهم، فقال لهم:

- الروح هو الذي يحيا، أما الجسد فلا يفيد شيئًا، الكلام الذي أكلمكم به هو روح الحياة، ولكنّ منكم قومٌ لا يؤمنون.

وساروا لا ينبسون بكلمة، وضاق عيسى بصمتهم، فقال لهم:

- لعلكم تريدون أن تمضوا؟

فقال له بطرس في فزع:

- يا روح الله إلى من نذهب؟ عندكم كلام الحياة الأبدية، وقد آمنا وعرفنا أنك رسول الله.

وتبخر القلق المنتشر في صدورهم، وشاعت فيهم طمأنينة عجيبة، وحلّ بهم إيمانٌ عميق، فرفعوا وجوههم إلى السماء، وقالوا:

- ربنا آمنا بما أنزلت، واتّبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

(قرآن كريم)

أورشليم غارقة في المشاحنات الدينية، مناظراتٍ بين أتباع هِلّيل وأتباع شَمّاي، وعداوات بين الصَدُّوقِيين الشعبيين وبين الفَرِّيسِيين الطائفيين، وبنو إسرائيل يرسفون في أغلال هؤلاء الكهنة راضين، فقد ثبّتوا في أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس.

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرّمات، ويقسّمونها إلى أقسامٍ ودرجات، فشَمّاي في تزمُّته يمنع في يوم السبت عيادة المريض، بل يحرّم فيه الدفاع عن النفس، وقتال الأعداء وإن جاءوا للبلاد محتلّين، والشيوخ يحرّمون حَمْل شيء فيه، وإن كان إبرة، أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة ولم تثبت فيه، حتى الأسنان الصناعية كانت حملًا لا ينبغي حمله في السبت المقدس.

أظهروا التقشّف رياءً للناس، وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة، حتى إن فريق «الجباه الدامية» من الفَرِّيسِيين ينطلقون في الطرقات مغمضي العيون، لكيلا تقع عيونهم على النساء، فيتخبطون في سيرهم، وبالجدران يرتطمون، فتسيل الدماء على الجباه إرضاءً للناموس.

وإمعانًا في النفاق تمسكوا بحرفية الناموس، مضحين بالروح على مذبح الرياء، فإذا جاع يهودي يوم السبت ولم يكن عنده ما يأكله، فخيرٌ له أن يموت جوعًا من أن يطهوَ طعامه ويكسر السبت، لأن كاسر السبت يستحق الرجم، وأما من مات في سبيل حفظه فهو شهيد.

وكان بنو إسرائيل يعتقدون أن عداوة الصَدُّوقِيين والفَرِّيسِيين في سبيل الشريعة والتلمود، ولكن ما قامت تلك العداوة إلا للتنافس على المغانم. والإثراء من غفلة الناس. كان الصَدُّوقِيون يحتكرون بيع الحمام في الهيكل فضاعفوا المناسبات التي يُقدّم فيها إلى الله تقربًا وزلفى، فهبّ أعداؤهم الفَرِّيسِيون يعملون على نقض تلك المناسبات، ليُلحِقوا بتجارة أعدائهم البوار، فكانت المناسبات المقدسة في أيدي حماة الشريعة منافسة، يرفعها فريق ويحطّها فريق.

يا ويل من يكسر يوم السبت من رجال الدين! لن يطمئن إيمانهم حتى يرجموه، ففي كسر السبت إثمٌ كبير، ولكنّ ما حرّموه على الناس أحلّوه لأنفسهم، وما أيسره من عمل أن يضعوا قاعدة جديدة «لا سبت في الهيكل» فيوقدوا النار، ويذبحوا الذبائح، ويختنوا الأطفال، ويتناولوا النذور.

وذاع بين أورقة الهيكل أن نبيًا قام في الجليل، يبشر كيحيى باقتراب ملكوت السماء، ويشجع الناس على ترك الذبائح، يعلِّمهم أن الله لا ينال من لحوم الأضحيات ولا من دمائها، وأنه لا يريد من عباده إلا التقوى، فثار أعضاء السنهدرين، أولئك الذين ورثوا شيوخ بني إسرائيل، ولكن لم يعملوا عملهم، بل كانوا في الفساد غارقين.

ساءهم أن يقوم ذلك النبي الجديد يفتح عيون بني إسرائيل فيزعزع سلطانهم، ويُقَوِّض صرحهم الذي أقاموه على الخداع، ويفضح تعاليمهم، ويسدّ منافذ الخير في وجوههم، فلو قرّ في أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة، ودون وساطة الكهان، لبارت تجارتهم، وذابت قدسيتهم، وجفّ نهر الأموال المتدفق عليهم، لذلك بعثوا إليه فَرِّيسِيين متعصبين، يتجسسون عليه، حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه، واستراحوا من خطره الذي أرَّقهم، وأطار النوم من العيون.

أرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربّصون به، وأرسل إليه هيرودس أنتيباس يدعوه أن يأتي إلى قصره، لا ليستمع إلى تعاليمه، فما كان مهتمًا بتلك التعاليم، ولكن لأن شبح يحيى الذي يطارده في اليقظة وفي المنام أفزعه، وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه، فأراد أن يرى ذلك النبي، ليستريح من هواجسه التي تضنيه، ولكن عيسى لم يستجب لدعوته.

وفي الجليل حشد الناس يصغون، وأقبل جواسيس أورشليم يسمعون، فراح يعظ الناس:

- إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه، لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليُخْفِ عن شماله، وإذا صلى فليُرْخِ سِتْر بابِه، فإن الله يقسّم الثناء كما يقسّم الرزق.

واستمر في موعظته، ثم خرج هو وتلاميذه إلى الحقول، كان اليوم سبتًا، فراح يفقه حوارييه في الدين، إنهم لا يفهمون أمثاله، فيشرح لهم في خلوتهم ما استغلق عليهم، وما دقّ على أفهامهم، واستمروا في دروسهم، وجواسيس أورشليم على البعد يرصدونهم، يترقّبون أن يقيموا عليه الحجة ليحاكموه.

كان عيسى يدعو بني إسرائيل إلى الله الواحد، إلى ما دعا إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيون، فلو أنه دعا مع الله إلهًا آخر، لوجد الفَرِّيسِيون في ذلك الشرك ما يبرّر قتله، ولكنه يؤكد في كل مواعظه أنه جاء

بشيرًا، وأنه ما جاء لينقض شريعة موسى، بل ليكملها ويثبّتها، فكان من العسير أن يتّهموه بالمُروق والخروج على الدين.

عضّ الجوع الحواريين، فهبطوا إلى حقل، وقطعوا بعض سنابل القمح، ثم فركوها وذروها وأكلوها. ورأى الفَرِّيسِيون المتجسِّسون أن التلاميذ قد جاءوا أمرًا إدًا، فالحصاد والدِراس في السبت من المحرمات، وما قام به التلاميذ من قطف وفرك إن هو إلا حصادٌ ودرس، كسْرُ الناموس في يوم السبت، وهي جناية تنطبق لها السماء على الأرض.

هُرِعَ الفَرِّيسِيون إلى عيسى غاضبين ساخطين، وقالوا:

- فعل تلاميذك، ما لا يحلّ فعله في السبت.

كان عيسى يفهم عقليتهم، إنهم يخاصمون بالتوراة ولا يقبلون إلا حكم التوراة، فلو أنه حاول أن يبرئ تلاميذه بالمنطق والعقل، لوضعوا أصابعهم في آذانهم، ولأعرضوا عنه، ولجُّوا في اتهاماتهم، لذلك رأى أن يبرّئهم، بتذكير هؤلاء الغاضبين بحوادث مماثلة وقعت لأنبيائهم، فقال لهم في هدوء:

- أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التَقْدِمة، الذي لا يحلّ له أكله، ولا للذين معه، لأنه للكهنة فحسب؟ أو ما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت يدنّسون السبت في الهيكل؟ إني أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل. لقد جُعل السبت للإنسان، ولم يُجعل الإنسان للسبت، والله رب الأيام هو رب السبت أيضًا.

وصمتوا كأنما ألقمهم حجرًا، وانسلوا يطوون صدورهم على حقدهم، فإن كان قد هزمهم هذه المرة، فلن يهزمهم مرة أخرى، سيتربصون به الدوائر، وسيسقط في أيديهم يومًا، ويومذاك لن ينقذه حرصه أو معرفته الناموس، وابتعدوا يرقبونه، يحصون حركاته وسكناته.

خفقت شمس الأصيل، ونفضت على الأفق الغربي نبتًا أصفر، وراحت تلمّ أشعتها لتودع الدنيا، فانطلق عيسى وحواريوه إلى المَجْمَع، ودلفوا إليه، فإذا الكَتَبَة والفَرِّيسِيون في الصفوف الأولى، وما تقدم عيسى خطواتٍ حتى أسرع إليه بناءٌ به حادث، وتوسّل إليه أن يشفيه، فقال له:

- اذهب وقم في وسط المَجْمَع.

فذهب الرجل والفَرِّيسِيون والكهنة يرمقون عيسى في اهتمام، يترقّبون أن يشفي الرجل، فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت، فالتفت عيسى إلى الفَرِّيسِيين الشامخين غرورًا وقال لهم:

- أيحل في السبت فِعل الخير أم فِعل الشر؟ تخليص نفس أم قتلها؟

لم ينبسوا بكلمة، بل ظلوا ينظرون، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه. بل جاءوا يترقبون خطأه، ليقبضوا عليه ويحملوه إلى السنهدرين.

فرماهم بنظرة حادة وقال لهم:

- إذا كان لأحدكم خروف وسقط في حفرة في يوم السبت، ألا ينتشله؟

أغرقوا في الصمت، بقيت عيونهم مثبّتة به، فنبت في صدره غيط، ولكنه كظم ما به وقال:

- إنقاذ إنسانٍ أفضل من إنقاذ خروف، إذ يحلّ فعل الخير في السبوت.

وقال للبناء في رفق:

- مدّ يدك.

فراح الرجل يمدّ يده، فإذا باليد اليابسة تتحرك، وعادت سيرتها الأولى، وتحرك الغيظ في صدر أعدائه، فمالت رءوسهم، وطفقوا يتشاورون، حتى إذا اتفقوا على قتله وهمّوا به، ألفوه قد غادر المَجْمَع، واختفى عن العيون.

-30-

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

(قرآن كريم)

مواعظ تتدفق من قلبٍ مشتعلٍ بحب الإنسانية، ملتهبٍ بالعشق الإلهي، وأفئدة مؤمنة، تفتحت لغيث الرحمة والعفو والصدق والإحسان، وقلوب قاسية ملئت كبرياءً وحقدًا.

كان عيسى يدعو بني إسرائيل إلى الصلاح، ويشرح الشريعة الموسوية، ويعيد الكلم إلى موضعه، ويبثّ فيها روحًا جديدًا، والمؤمنون ينهلون من عذب تعاليمه، والأعداء من الكَتَبَة والفَرِّيسِيين، في جُبَبِهم السود، قلوبهم غلف، يتربّصون له أن يخرق الناموس، ليقودوه إلى حتفه.

كان يسلّط نور تعاليمه على التقاليد البالية، فيفضح رياء من نصّبوا أنفسهم حراسًا على الدين، أخذ يمجّد الروح، ويعلم الملأ أن الروح يحيا، أما الجسد فيبلى، ولا يفيد شيئًا، والكهنة يقدّسون القبور، ويبالغون في تزيينها، ويعظمون الموتى، كان لا يخشى في الله لومة لائم، وهم يتملّقون العامة جلبًا للثناء والمديح، كان يَخُزّهم وخزًا قاسيًا، ولكنهم ما كانوا قادرين على إقامة الحجة عليه.

الفَرِّيسِيون يهتمون بالنظافة، فقبل الأكل يغسلون أيديهم، وإذا عادوا من السوق غسلوا أيديهم، وإذا تنجّست الأواني المعدنية غسلوها بحسب ما تقضي به القواعد الموضوعة، وإذا كانت الآنية النجسة من الفخّار حطّموها، ومبالغة في الطهارة غسلوا «شمعدانات» الذهب، حتى أن أعداءهم الصَدُّوقِيين قالوا عنهم ساخرين: سيغسلون الشمس عما قليل.

ودعا الفَرِّيسِيون عيسى وتلاميذه إلى وليمة، ليتناظروا في أمر الدين، فراح الفَرِّيسِيون يغسلون أيديهم قبل الدخول، أما تلاميذه فقد دخلوا وجلسوا إلى الطعام دون أن يغسلوا أيديهم، فأسرع الفَرِّيسِيون إلى عيسى، وقالوا له في عجرفة وكبرياء:

- لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ؟ لم يغسلوا أيديهم قبل الأكل.

فرمق المتمسكين بالتفاهات في زراية وقال:

وأنتم لماذا تتعدّون وصية الله، وتتمسكون بسنتكم؟

فاتسعت عيونهم، كأنهم يسألونه أن يفسر دعواه، فقال لهم:

- تقولون لأبناء الفقراء: أنذُروا للهيكل نذورًا، فينذُرون القليل الذي يجب أن ينفقوه في عول آبائهم، فإذا احتاج الآباء إلى هذه النقود، صرخ الأبناء مُنذِرين: هذه النقود نذرٌ لله، فيصيب الآباء ضيق. إن الله يقول:

أكرم أباك وأمك، ولكنكم بسنّتكم حرمتم الآباء برّ الأبناء.

أيها الكذابون، أيستعمل الله هذه النقود؟ إن الله هو الغني الوهاب، إنه يقول على لسان داود: «لا ينال الله لحوم الثيران ولا دماؤها».

أيها المراءون، عطّلتم كلام الله وأحييتم سنّتكم، لقد تنبأ إشعيا عنكم، قال: «هذا الشعب يسبح لي بشفتيه، وقلوبهم غُلْف، يعبدونني بالباطل، فتعاليمهم وصايا للناس».

التزموا الصمت، فما ناقشهم إلا أفحمهم، إنه يقوّض سننهم فوق رءوسهم، وما يملكون إلا الصمت، والصمت البليغ، وتضاءلوا كتلاميذ أمام عالمٍ كبير، وراح يعلمهم:

- اسمعوا وافهموا: ما يدخل فم الإنسان لا ينجسه، بل ينجسه ما يخرج من الفم.

فهم الفَرِّيسِيون ما يرمي إليه، كانوا أهل ثقافة، وما قتلهم إلا غرورهم، فرحوا بما عندهم من علم، فأعرضوا عن الآيات، أما حواريوه فلم يفهموا شيئًا، كانت عقولهم الضعيفة لا تتفتح للحكمة، فانتظروا حتى إذا خلَوْا به سألوه ماذا يريد بهذا مثلًا.

أحسّ الفَرِّيسِيون مرارة الهزيمة، فتفرقوا، والحواريون يرمقون عيسى في غبطة، كان نصره عليهم مبينًا، وتقدم إليه تلاميذه وقالوا في مرح:

- لما سمع الفَرِّيسِيون قولك نفروا.

فقال عيسى في هدوء:

- كل غرسٍ لم يغرسه الله يقلع. دعوهم. هم عميان يقودون عميانًا، وكل أعمى يقود أعمى ففي الهاوية يتردى.

وانطلقوا، فسأله بطرس:

- فسر لنا ذلك المثل.

فرمقهم في عطف، كان يحبهم، يحب إخلاصهم، يحب إيمانهم، وإن كانوا لا يفقهون أمثاله، قال:

- ألا تفهمون بعدُ أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف، ثم إلى الخارج، وأما ما يخرج من الفم فيصدر من القلب، وذاك ينجّس النفس، فمن القلب تخرج أفكارٌ خبيثة: قتل، زنا، فسق، سرقة، شهادة زور، كفر. هذه هي التي تنجس الإنسان، وأما الأكل بأيد لم تُغسل فلا تنجّس الإنسان.

وسار عيسى في رحلته الدائمة، انطلق إلى نواحي صور وصيدا، وهو يحادث حوارييه، وإذا بامرأة كنعانية تركض وراءه قائلة:

- ارحمني يا سيدي، يا بن داود، ابنتي تتعذب كثيرًا.

فلم يلتفت إليها، ما كان ذلك عن قسوة، بل أراد أن يثبّت في أذهان تلاميذه الذين لا يمتازون بالفطنة، حقيقةً طالما ردّدها عليهم، واستمرت المرأة الكنعانية في توسلاتها:

- ارحمني يا سيدي.

وصمّ أذنيه عن توسلاتها، لأنها لم تكن إسرائيلية، حتى إن تلاميذه عجبوا من أمره، فما كان فظًا غليظ القلب، وظلت المرأة في صياحها:

- ارحمني يا سيدي، ارحمني يا بن داود، ابنتي تتعذب.

وضاق تلاميذه بها، فقالوا له:

- اصرفها لأنها تصيح وراءنا.

فقال لهم:

- لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

هذه هي الحقيقة التي يريد أن تقرّ في أذهان حوارييه، قال لهم قبل أن يرسلهم مبشرين: إلى طريق أمم لا تمضوا، إلى مدينةٍ للسامريين لا تدخلوا، بل بالحري اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة([15]). وها هو ذا يعيد عليهم قوله مؤكدًا أن الله بعثه رسولًا إلى بني إسرائيل.

فسجدت المرأة عند أقدامه وقالت:

- سيدي أغثني.

ولم تنهض المرأة إلا بعد أن اطمأنت إلى أنه قد شفى ابنتها بإذن الله ([16]).

-31-

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

(قرآن كريم)

الليل والشجر ساجدان، والكون خاشع تدثّره قدسية وجلال، وعيسى شاخصٌ إلى السماء يناجي الله، فالغيوم تتكاثف حول رسالته، والعداوات المريرة أطلّت بوجهها البغيض، فخلا بربه يستمد منه عونه وتأييده.

كان يدعو الناس بالحسنى والموعظة الحسنة، كان رقيقًا شاعرًا، يبغي أن يجلب للبشر سعادة، رءوفًا رحيمًا، يتحاشى إيلام الناس، ولكن أعداءه أعلنوا الحرب عليه، وأشعلوا نار العداوة والبغضاء، فلم يعد للسلم مكان، سيقابل العداوة بالعداوة، وإذا أمدّه الله بسلطان، فسيقابل القوة بالقوة حتى يضع الحق، فما كانت الشرائع الصالحة تُغرس في الأرض بأغصان الزيتون، ومعسول الكلام.

للباطل جنوده وأعوانه، وهم قساةٌ غلاظ القلوب، فَجَرةٌ لا يرعون حرمة، ولا يقفون في عداوتهم عند حد، فإذا لم يحشد الحق أعوانه، ويشهرها على الباطل حربًا لا هوادة فيها، فسيزهق الحق، ويُمَكَّن للباطل في الأرض، ويسود العالم الفساد.

وانبثق الفجر، وعيسى في خشوعه فأحسّ كأن قوة أُريقت في جوفه، فتيقن أن الله رب الحب، هو رب القوة أيضًا، أمدّه بسلطان ليصرخ في وجوه أعدائه بالحق دون أن يخشاهم، ذلك السلطان المهيب الذي أمدّ به مَن أرسلهم مِن قبله. وقام عيسى فأسرع حواريوه إليه، وراحوا يصلّون، ولما قُضيت الصلاة، انطلقوا يستقبلون عهدًا جديدًا من الجلاد والكفاح والاضطهاد في سبيل التبشير باقتراب ملكوت السموات.

وجاءت الجموع زمرًا تُعيره السمع، وجاء جواسيس أورشليم مُثقلين بالرياء، يترقبون من الناس الاحترام والتوقير، وقد ملأت قلوبهم الإحَن، يصغون إليه، ليقيموا عليه الحجة، وما كانوا مصدقيه، ولو جاءهم بملائكة من السماء يشهدون له.

وقام الرسول يعلن الملأ بالحقيقة الجديدة:

- من ليس معي فهو عليّ.

رمقه الناس في دهش، كانت في عينيه الصافيتين قوة، وبدا الحمل في إهاب أسد، عوّدهم ناعم القول، والمواساة والعطف، والتسامح وحب العدو، وإذا به اليوم يعلنها مدوّية: إنه لم يعد ذلك المتشبّث بأهداب السلام ليهنأ بالسلامة، بل رجل الحرب الذي يبرُز للنزال، فإما انتصر في سبيل مبدئه أو هلك دونه.

وران على الجميع هدوء، كانوا يُقبلون إليه يرشفون من نبع حكمته ما يملؤهم نشوة، ثم يدَعونه ويعودون إلى دورهم آمنين، وما كان في ذلك نصبٌ لهم، بل كان فيه لذة، أما أن يدْعُوهم إلى الانضمام إليه على السلطة ورجال الدين، فدون ذلك مخاطر وأهوال، وما كانوا يركبون الصعاب طائعين، فقال لهم:

- اجعلوا الشجرة طيبة وثمرها طيبًا، أو اجعلوا الشجرة خبيثة، وثمرها خبيثًا، لأن من الثمرة تُعرف الشجرة. يا أولاد الأفاعي، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فَجَرة، فمن فَضْلة القلب يتكلم الفم، الصالح يُخرج الصالحات من الكنز الصالح في القلب، والطالح يُخرج الشرّ من الكنز الخبيث.

أقول لكم: إن كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين.

انفعلت الجموع، كأنما لا تنفعل إلا بالقوارع، إن هذا الصوت يذكرهم بصوتٍ حبيب، بصوت يحيى الشهيد: «يا أولاد الأفاعي» كانت لها في نفوسهم أثر السحر، إنها الوصف الذي ألبسه يحيى للفَرِّيسِيين الوافدين إليه من السنهدرين، وهو نفس الزجر الذي يوجهه عيسى إلى جواسيس أورشليم. وكانت الجماهير تتجاوب لدعوته، وكادوا جميعًا يُعلنون في ثورة حماستهم، أنهم معه على أعدائه وأعداء الدين، وفطِن الفَرِّيسِيون إلى ما يعتمل في نفوس الجمع، فأرادوا أن يُريقوا على الجذوة المتأججة في الصدور ماءً باردًا، فقالوا:

- نريد أن نرى منك آية.

خَبَت النار المندلعة في الأجواف، فما يطلبه الفَرِّيسِيون حقّ، جاء أنبياء بني إسرائيل بالآيات، وقد سمعوا أنه شفى المرضى، وأبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى، ولكنهم لم يرَوْا بعيونهم شيئًا، فلو شاء أن يتّبعوه، وأن يكونوا معه لا عليه، فليأتهم بآيةٍ من ربهم ليصدقوه وتطمئن قلوبهم.

واتسعت العيون واشرأبت الأعناق، وكُتمت الأنفاس، وساد المكان ترقبٌ وانتظار، كأنما الآيات شعوذة مشعوذين، أو سحر ساحرين، وما دار بخَلَدهم أنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.

ورنا عيسى إلى الجموع الغارقة في الجهالة رنوة غضب، ثم قال:

- جيل شرير فاسق، يطلب آية ولا تُعطَى له.

وارتفعت أصوات الحنق والغضب، وراح الفَرِّيسِيون يزكون ثورة الجماهير، ويفضون الناس من حوله، فانجابت الجموع كما ينجاب السحاب، وبقي عيسى وحيدًا وحوله حواريوه وفي القلب أسى، وفي الوجوه أمارات الحزن العميق، واقترب فَرِّيسِي من عيسى كالأفعى، وأظهر له الود، ودعاه إلى الغداء، ولو كان مخلصًا لدعى حوارييه معه، ولكنه دعاه وحده.

ودلف الرسول إلى بيت الفَرِّيسِي، فألفى نفسه بين أناس يتطلعون إليه في تحدٍ، في عيونهم شر، وفي جلوسهم كِبر، ووجوههم تنضح بخبثِ ما في القلوب، فلم يضطرب، ولم يراء مثلهم، فلم يذهب ليغسل يديه، بل انطلق إلى المائدة وجلس.

ارتسمت بسمات الزراية على الشفاء، وقام إليه أحدهم وقال:

- لم تغسل يديك قبل الأكل.

فأدار عيسى عينيه في المتكئين إلى المائدة وقال:

- إنكم أيها الفَرِّيسِيون تطهرون القصعة وخارج الكأس، أما بواطنكم فمملوءة شرورًا وخبثًا، يا أغبياء من صنع الظاهر صنع الباطن، تصدّقوا بما عندكم يتطهّر كل شيء، ولكن ويلٌ لكم أيها الفَرِّيسِيون، يا من تعشّرون النعنع والسَّذَاب وكل البقول، وتتجاوزون عن محبة الله والحق، كان عليكم أن تعلموا هذه ولا تتركوا محبة الله والحق.

ويل لكم أيها الفَرِّيسِيون، يا من تحبون الصدارة في المجامع، والتحيات في الأسواق.

ويل لكم أيها الكَتَبَة والفَرِّيسِيون المراءون، لأنكم مثل قبور مختنقة، من يمشون عليها لا يعلمون.

فظهر الغضب في وجه واحد من الناموسيين، وقال قاطعًا نهر توبيخاته المتدفق:

- إنك تشتمنا نحن أيضًا بهذا القول.

لم يقف هذا الاعتراض في وجه النهر، بل حوله بكل قوته وكل اندفاعه، فراح عيسى يكيل للناموسيين المتزمتين التُهَم:

- وويل لكم أيها الناموسيون، تضعون على عواتق الناس أحمالًا لا يُطاق حملها، وأنتم لا تمسونها بأصابعكم. ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم، كأنما تشهدون وترضون بأعمال آبائكم، كذلك قالت حكمة الله: إني أُرسل إليهم أنبياءً ورسلًا، ففريق يقتلون وفريق يكذبون.

ليقع على هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ الخليقة، من دم هابيل إلى دم زكريا([17]).

ويل لكم أيها الناموسيون، أخذتم مفتاح المعرفة، فما دخلتم، وما تركتم غيركم يدخلون.

وفاض مرجل غضب الفَرِّيسِيين والكَتَبَة، فقاموا ليبطشوا به، وإذا بأصوات تلاميذه وأنصاره تصكّ آذانهم، فخافوا أن يمسوه بسوءٍ خشية ثورة المؤمنين، وغادرهم وخرج، وهم يصرفون أنيابهم في حنق شديد.

خشي الحواريون أن يكون الفَرِّيسِي قد دعا الرسول وحده، لينفرد به أعداؤه، وينالوه بمكروه، فجمعوا أنصاره وعند باب البيت وقفوا ينتظرون، فلما انقضى بعض الوقت ولم يعد، تناجوا وارتفعت أصواتهم حتى وصلت إلى مسامع المتآمرين، فملأت قلوبهم رعبًا، فخرج الرسول مرفوع الجبين.

نظر عيسى إلى الجموع، ولا تزال جذوة الغضب مندلعة في صدره، فقال:

- تحرزوا من الرياء خمير الفَرِّيسِيين، ما تُبطِن يَظهر، وما تُخفِ يُعلَن، لذلك كل ما قلتموه في الظلمة يُسمع في النور، وما كلمتم به الأذن في المخادع، ينادي به على السطوح.

واستمر في موعظته حتى قاطعه أحد السامعين:

- قل لأخي يقاسمني الميراث.

لم يكن عيسى مأمورًا بتأسيس شريعة جديدة، ولم يأتِ بدين ناسخ لدين موسى، ما جاء إلا ليبشر بقرب ملكوت الله، ذلك الملكوت الذي يوحد الدين والدولة معًا، ذلك الملكوت الذي سينظّم الميراث، لذلك قال للرجل:

- يا إنسان، من أقامني عليكما قاضيًا أو مقسمًا.

ما جاء عيسى لينظّم ويشرّع، بل جاء بالإنجيل، بالبشارة بالأمل، بالسعادة الحقيقية، بالأمر العظيم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

(قرآن كريم)

تغشّت السماء بسحب دكناء، وخيم على الكون ظلام، وانسابت السفينة في بحر لجي، ظلمات فوقها ظلمات، وجلس عيسى وحواريوه مطرقين، إنهم قليلٌ مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس، لقد اضطهدهم الفَرِّيسِيون في كفر ناحوم، ولاحقوهم بالعداوة والبغضاء حتى اضطروهم إلى الفرار إلى الوثنيين، إلى نواحي صور وصيدون.

عاشوا بين عبدة الأوثان آمنين، كانوا أرأف بهم من شيوخهم وأحبارهم ورهبانهم، ومَن أقاموا أنفسهم حراسًا على تراث موسى التليد، وما دار بخَلَدهم أن ذلك الذي يحاربونه أحقّ بموسى منهم، فهو رسولٌ وموسى رسول.

لم يركن عيسى إلى الراحة والدعة، فقد اصطفاه الله ليبلّغ رسالته، ولم يختره ليفرّ من الاضطهاد إلى الأمن والهدوء، فلو أن الله أرسله إلى الأمم لبقي بين هؤلاء الوثنيين يهديهم إلى نور التوحيد، ولكن الله أرسله إلى بني إسرائيل، فعاد إلى السفينة بعد أن التقط أنفاسه، وانطلق إلى الجليل، إلى أعدائه الفَرِّيسِيين لينازلهم، فإما قهرهم وإما قهروه.

لم يذهب إلى كفر ناحوم، فأعداؤه هناك يترقبون، فاتجه إلى مجدلة، إلى بلدة مريم، ليعظ الناس ويجد في بيتها بعض الراحة التي فقدها بعد أن هجر بيت أمه في الناصرة، يجوب البلاد اليهودية يبشر باقتراب الملكوت.

واقتربت السفينة من الشاطئ، وما مسّت أرجلهم الأرض حتى وجدوا أعداءهم ينتظرونهم، كانوا يتجسّسون عليهم ويعدّون حركاتهم، فعرفوا وجهتهم، وسبقوهم ليقابلوهم في تحديهم المقيت.

ولم يكن الفَرِّيسِيون وحدهم، بل كان معهم أعداؤهم الصَدُّوقِيون، تناسوا ما بينهم من إحَن، وطووا في أكبادهم مرارة النفوس، واتحدوا لمكافحة العدو المشترك حتى إذا فرغوا منه، عادوا سيرتهم الأولى من التنافر والتشاحن، وما كانت تلك العداوة التقليدية تزعزع سلطانهم، أو تزلزل الأرض تحت أقدامهم.

لم يعادوه لأنه جاءهم بدين ينقض دينهم، أو لأنه أنكر أنبياءهم، أو دعاهم إلى عِبادة إله آخر غير إلههم، فما فعل شيئًا من ذلك، فهو يحفظ الشريعة، ويتمثل

بأقوالها، ويدعو إلى ما دعا إليه الرسل من قبله، ويحاول إصلاح بني إسرائيل، وتقرير أن الشريعة ليست حروفًا بل هي روح، ولكنهم عادوه واتفقت كلمتهم عليه، لأنه جاء يعلم الناس أن يتقربوا إلى الله دون وساطة، ولو اتبع الناس تعاليمه لاندثرت مكانتهم، ودرست سطوتهم، وخلعوا المسوح التي تُمكّنهم من أكل أموال الأرامل واليتامى، كانوا في حربهم له يذودون عن كيانهم وعما هم فيه من رغد ونعيم.

واجتمع الناس إليه، وهمّ بأن يعظهم، فقال له الفَرِّيسِيون:

- لن نصدقك حتى تأتينا بآية من السماء.

فطلب الجموع منه أن يأتيهم بآية، فران الحزن عليه، ولاح الأسى في وجهه وقال في مرارة وهو يتنهد:

- لماذا يطلب هذا الجيل آية، الحق أقول لكم لن يُعطَى هذا الجيل آية.

كانوا يريدون أن يروا برق البُروق وقصف الرُعود، أو نزول مائدة من السماء، أو يرزقهم المنّ والسلوى، فالتفت إلى الغرب، فرأى آية الله، الشمس غارقة في بحر الدماء، فأشار إلى تلك الآية، ولكنهم أعرضوا عنه، ومنحوه ظهورهم، فعاد إلى السفينة مطرق الرأس، يحزّ في نفسه إعراض الناس عن دعوته.

وأقلعت السفينة والشمس تنحدر، وتصبغ الماء بلون الأرجوان، وراحت تغوص في الماء حتى أطبق عليها اليم، وساد الظلام والسكون ولم يعد يُسمع إلا صوت المجاديف، وزفيف النسيم.

وفي غبش الليل لاح لعينيه كفر ناحوم، مدينة الذكريات الحبيبة، ذكريات شروق دعوته، ذلك الشروق الرائع الذي كان يُغري بالتفاؤل والإغراق في التفاؤل، ولكن ما أقصر ذلك الشروق، تجمعت سحب المقاومة، لتحجب بينه وبين أنصاره ومريديه. إن قلبه يخفق لكفر ناحوم، وروحه تهفو إلى شاطئها، وكل خالجة فيه تحنّ إلى سفح جبالها، تلك البقعة المباركة التي طالما وعظ فيها الملأ من بني إسرائيل.

إنه يحس في تلك اللحظة إحساسات الواقف على أطلال مدينة كانت عليه عزيزة، فالأسى ينداح في جوفه، حتى لتكاد دموع الحزن تطفر من مآقيه، لو خلّى أعداؤه بينه وبين ما يريد لذهب إلى مَجْمَع كفر ناحوم يعظ الجموع، ولكن الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين هناك، بعداوتهم يتربصون.

وبلغ الظلام الشاطئ الجميل، واستمرت السفينة في شرود حتى إذا بلغت بيت صيدا ألقت مراسيها، وهبط عيسى وحواريوه، وانطلقوا في المدينة التي كأنما استعارت من رومية مبانيها، ولبثوا فيها يومًا أو بعض يوم، ثم انطلقوا حتى بلغوا أرباض قيصرية، وفي الطريق التفت إلى أصحابه وقال:

- أيعرف الناس من أنا؟

أحسّ حواريوه مرارة، أيقولون له إن الذين يعظهم في غدوه ورواحه لا يعرفونه، وصمتوا قليلًا، وكان الصمت أمرّ من الكلام، فقالوا:

- يقولون إنك يحيى، وآخرون يقولون إنك إيليا، وآخرون يقولون إنك نبي من الأنبياء.

يا للمرارة، يذوب من أجل الناس وهم لا يعرفونه، وقال لحوارييه:

- وأنتم ما تقولون؟

فقال بطرس في اندفاعه:

- أنت المسيح.

اتّحد الفَرِّيسِيون والكَتَبَة والصَدُّوقِيون لمحاربته، ولجّوا في العداوة والبغضاء، وراحوا يطاردونه في كل مدينة وهم يحسبونه نبيًا من أنبياء بني إسرائيل، أو داعيًا من أدعيائهم، فإذا بلغهم أن أنصاره يقولون إنه المسيح أجّج ذلك نار عداوتهم، ونفخ في جمرة بغضائهم، وزاد في مقاومتهم، وما كان باحثًا عن إضرام العداوات، بل كان يرجو أن يبلّغ رسالته، ويحالفه التوفيق، فقال لتلاميذه محذرًا:

- لا تذكروا ذلك لأحد.

وطوى الحواريون صدورهم على سره.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

(قرآن كريم)

غسق الليل بعد ذهاب النهار، ونفضت الرمال عنها حرارة الشمس، وأراق القمر أشعته، فانداحت حتى وسعت الأرض والماء والجبال، وألبست الكون ثوبًا رائعًا من الحسن.

وشمخ جبل حرمون في كبرياء، فما كان يتطاول إليه ما حوله من تلال وجبال، وقد أكرمه الله، فتوجه بتاجٍ متألقٍ ناصعٍ من جليد، كان يعتزّ به، لا يخلعه في صيف أو شتاء.

كانت سفوحه مرتعًا من مراتع الحسن، تنمو فيها الأزهار والنوّار، وتترنم فيها الطيور بعذب الألحان، وتجري فيها جداول رقراقة صافية هاطلة من القمة الخيرة الجوادة بماء الحياة، كان حرمون وحي الخيال، فألهم الشعراء الغناء والتسبيح بالجمال.

وانطلق عيسى وبطرس ويعقوب ويوحنا في سكون الليل، فبدا لهم جبل حرمون في فُوفٍ من ضوء القمر رائعًا يهزّ المشاعر، وراحوا يصعدون فيه، يخترقون السفوح الخُضر، وزرعًا مختلفًا ألوانه، ويملئون صدورهم بأنفاسٍ عطّرها أريج الزهر، ورطّبها برد الثلج، فانتشت أرواحهم، وأثّرت تلك الروعة فيهم، فتفتحت نفوسهم، واستعارت القلوب من الرقة السائدة عذوبة وسلامًا.

انطلقوا وكأنما هدأ كل شيء، وأصاخ السمع لوقع أقدامهم، فهم خارجون إلى حرمون لميقات ربهم، كما خرج موسى وقومه إلى طور سَيْناء ليروا الله وتطمئن قلوبهم.

انطلقوا حتى إذا بلغوا مرتقًى عاليًا، وقف بطرس ويعقوب ويوحنا، واستمرّ عيسى في رُقِيِّه، يبدو لِعَيْنِهم كشبحٍ أسود انطبع على صفحة الجليد الناصعة، ووقف وراح يدعو الله قانتًا آناء اللّيل ساجدًا وقائمًا، يرجو رحمة ربه، ودثّر الكون قدسية، وبدا كأنما الأرض تتأهب لاستقبال وحي السماء، صفاءٌ وخشوعٌ وطمأنينةٌ وسلام.

ونامت عيون بطرس ويعقوب ويوحنا، كان ذلك الجمال يُغري بالنوم، ولذيذ الأحلام، أنهكتهم الرحلة الدائمة. فما انتهوا من صلاتهم، ومسّت جنوبهم العشب الأخضر الحنون، حتى راحوا في سبات.

نامت كل العيون إلا عين عيسى، كانتا معلقتين بالسماء، يستشفّ الحكمة، ويستمدّ القوة، ويستلهم وحي الله، وصفت روحه حتى كانت أصفى من الجليد، وهدأت نفسه حتى كانت أهدأ من الكون الهاجع، وانسكبت فيه طمأنينة عجيبة، فقد كان في تلك اللحظة أقرب ما يكون من الله.

وسقط من السماء ضوءٌ باهر، وغرق الجبل في غمرته، وكان سناه قويًا حتى إن النُوَّم هبّوا من نومهم، وفتحوا عيونهم، فألفَوا عيسى يتألق في الضوء، فرمقوه في دهش، وإذا بالضوء يزداد فيغشي عيونهم، وإذا بأرواحهم لا تُطيق ذلك السنا، فأخذتهم رجفة، وخرّوا على وجوههم صعقين، فقد أرسل الله على عبده سكينة مضيئة بهرتهم، وكأنما سلبت منهم الروح.

غشي عليهم، فظلوا غائبين عن الدنيا حتى هبط إليهم عيسى، وراح يطمئنهم، ويُسكّن خوفهم، فلما أفرخ رَوْعهم، قاموا يَرْنُون إليه في إجلال، رأوا ما كانوا يقرءون عنه في التوراة، رأوا السكينة التي أُرسلت إلى موسى، وخرّوا، كما خرّ قوم موسى، صعقين.

وهبطوا من الجبل صامتين، كانت حادثة الليلة عجيبة، استبدّت بجوارحهم وأفكارهم، وفيما هم منطلقون، قال لهم عيسى:

- لا تذكروا لأحدٍ شيئًا مما رأيتم.

كان يخشى أن يقع الحسد في قلوب حواريه، فتدبّ بينهم العداوة والشقاق، وتنزل صدورهم الإِحَن، فتزداد متاعبه. يريد أن يأتيه حواريوه بصدرٍ سليم، وكفاه عداوة الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين والناموسيين.

تحقق الليلة لهم أنه المسيح، النبي الذي سيرسله الله خاتمًا لأنبياء بني إسرائيل، لقد قالت البشارات إنه نبيٌ عظيم، وثَبُتَت الليلة عظمته، أكرمه الله بما أكرم به موسى الكليم.

وقفزت إلى أذهانهم اعتراضات الكَتَبَة والكهنة والفَرِّيسِيين. وخطر لهم أن يسألوه، ولكنهم كانوا يحسّون منه رهبة، وإن كان يعطف عليهم ويواسيهم ويفتح لهم قلبه الكبير. وطوَوا تلك الاعتراضات التي راحت تحتل تفكيرهم، ولجّوا في صمتهم.

الطريق طويل، والهدوء شامل، ولا شيء غير التأمل والتفكير، ودوت في نفوسهم اعتراضات المكذبين برسالته، ولم يقوَوا على خنق ذلك الدُوي المتردّد في رءوسهم، فقالوا له:

لماذا يقول الكهنة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا؟

كان الاعتقاد السائد أن إيليا ينهض من الأموات ويَرُدَّ إلى بني إسرائيل التابوت فيه سكينة وبعض ما ترك موسى وهارون، فالنبي ملاخي يقول على لسان ربه: «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء الرب، اليوم العظيم»، فإذا كان هو المسيح المنتظر، فكيف لم يأتِ إيليا قبله؟

فقال لهم عيسى في هدوء:

- إن إيليا يأتي أولًا ويَرُدُّ كل شيء، ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عمِلوا به كل ما أرادوا.

وصمت قليلًا، ثم قال:

- كذلك ابن الإنسان سيتألم منهم.

ترى أيحدّثهم عن الاضطهادات التي يقاسيها، أم يتنبأ عن الاضطهادات المطوية في الغيب القريب؟

وأراد تلاميذه أن يسألوه عن إيليا الذي سبقه، ولكن هيبته عَقَّلَت ألسنتهم فصمتوا، وأقنعوا أنفسهم أنه يقصد يحيى، يحيى الذي جاء قبله يبشر باقتراب ملكوت السموات، يحيى الشهيد.

-34-

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(قرآن كريم)

نودي في القرى اليهودية وفي المدن وفي أورشليم: «اخرجوا إلى الجبل، وأتوا بأغصان الزيتون، وأغصان زيتون بري، وأغصان آس، وسعف النخل وأغصان أشجار لعمل مظال» فقد كتب الله على بني إسرائيل ثلاثة أعياد لشكره على إخراجهم من مصر، وإنقاذهم من العذاب المهين: عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال.

ففي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين، عقب أن يجمع بنو إسرائيل بيادرهم، وينتهوا من معاصرهم، يخرجون رجالًا ونساءً، وشبانًا وأطفالًا وشيبًا إلى الخلاء، يعيشون في مظال، يقدّمون قرابينهم، ويمضون الأيام في سرورٍ ومرح، حتى إذا ما انتهت أيام عيد الحصاد عادوا إلى ما كانوا فيه.

وكان القادرون يشدّون الرِحال إلى أورشليم، يُصلّون في الهيكل، ويمضون الأيام في مظلات أقيمت في الخلاء، فراح الناس يتأهبون للخروج، واجتمعت الجموع في أورشليم، ووافى يوم العيد، فانطلق الناس إلى الهيكل، وقُرعت الطبول، فدبّت الحماسة في الصدور، كانت طبول الهيكل تدقّ نشيد النصر، وبدأت الصلاة، فراح الجميع يردّدون في خشوع: «اسمع يا إسرائيل، إلهنا إله واحد..» والأطفال يردّدون «آمين». وقُضيت الصلاة، فقام القُرّاء يقرءون الناموس، وذُبح في المذبح ثلاثة عشر ثورًا، فالشريعة تقضي بذبح سبعين ثورًا في أيام العيد قربانًا لله، على أن تنقُص القرابين قربانًا كلما انقضى يوم من أيام العيد.

وغادروا الهيكل إلى مظالِّهم، وراحوا يتسامرون، ويتناجون ويتساءلون في همس، عن عيسى الذي أقلق الكهنة، ويقولون: «أين ذاك؟»، كانوا يحسبون أنه قادم في العيد، يدعو الناس إلى الذي أرسله، ولكن انقضى اليوم الأول ولم يظهر، وانقسموا فيه: فريق يقول: إنه صالح، وفريق يثور، ويتهمه بأنه أضلّ الجميع.

وكان حديثهم نجوى، لا يقدرون أن يرفعوا أصواتهم بذلك الحديث، لخوفهم من رؤسائهم، فما كانوا يجرءون على إعلان رأيٍ إلا إذا وافق عليه أعضاء السنهدرين، المجلس الموقر.

كان العيد للعبادة والشكر، ولكنه انقلب إلى عيد لتحصيل اللذة، الفتيات والفتيان في ضوء القمر يتناجون، وأنغام الموسيقى الناعمة التي تلهب الحواس، تَهتِك سكون الليل وقدسية المكان، والنشوة تعبث بالرءوس، فيتبخر التحفظ والوقار، أصبح العيد رمزًا للحرية والتحرر والانطلاق.

انقضى من العيد أيام، واطمأن أعداؤه الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون والكَتَبَة، إلى أنه لن يَقدُم يكدر صفو العيد، وإذا به قد جاء إلى أورشليم، وراح يمرّ بين الجموع التي تموج بها المدينة، لا يلحظه أحد، كانوا يعرفون اسمه، ولكن ما أقلّ من يعرفون هيئته، فما كان يميزه عن آلاف الرجال شيء، فالعين لا ترى عظمة النفس، وانطلق حتى أتى الهيكل، ودوّت الطبول، وقُرئت الشِمَة والناموس، وقام عيسى في رواق من أروقة الهيكل يعلّم الجماهير، فحشر الناس زُمرًا يصغون.

انقلب سرور أعدائه غمًا، كانوا يحسبون أن العيد سينقضي دون أن يَقدُم ليفسد عليهم الملأ من بني إسرائيل، وإذا المجموع تتهافت عليه، وتظهر إعجابها بما يقول، وراحوا يقولون:

- ما أعجب تعاليمه، إنه لَيجمع بين مدرسة هِلّيل ومدرسة شَمّاي.

- كيف يعرف الكتب ولم يتعلم؟

- أليس هذا عيسى الناصري؟

- وهل يخرج من الناصرة شيءٌ صالح؟

وفطِن عيسى إلى همسهم، وحزّر ما يدور بينهم، فقال:

- تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني، من يتكلم من نفسه يطلب مجدَ نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق.

وتحرك الفَرِّيسِيون، والشرر يتطاير من عيونهم، ووقعت عيناه عليهم، فقال:

- لماذا تطلبون قتلي؟

لم يكن يخشى الموت، ولكنه يريد أن يمكِّن لدينه في الأرض، لم يكن أمامه فسحة من الوقت ليبلّغ رسالته، ويعلنها ساطعة ناصعة، وأتباعه من الأغفال، الذين لا يفهمون تعاليمه كل الفهم، كلما ضرب لهم مثلًا سألوه عن تأويله، إنه لا يطمئن أن يترك هذا الدين وديعة في أيديهم، وخاف الفَرِّيسِيون ثورة الجماهير المفتونة به، وما أيسر أن تثور، فقال الفَرِّيسِيون مظهرين العجب:

- بك مس، من يطلب قتلك؟!

كان يعرف أن الحجة التي يقيمونها عليه، هي العمل في السبت، ولا حجة غيرها، فقال لهم مبررًا كسره ذلك اليوم المقدس:

- أعطاكم موسى الختان([18])، والختان ليس من موسى، بل من الآباء، ففي السبت تختِنون الأولاد، فإذا كان الإنسان يقبل الختان في السبت، لئلا ينقض ناموس موسى، أفتسخطون عليّ لأني شفيت إنسانًا في السبت، لا تحكموا بالظواهر، بل احكموا حكمًا عادلًا.

فقال قوم من أهل أورشليم:

- أهذا الذي يطلبون أن يقتلوه؟

وراح عيسى يقول:

- لم آت من نفسي، بل أرسلني الحق، الذي لا تعرفونه.

ثار اليهود، فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله، وها هو ذا القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه، يتهمهم بالكفر به ونكرانه، وهجموا عليه ليمسكوه، ولكنه اختفى دون أن يروه، فقد كان قادرًا على الإفلات من أيدي الأعداء، فظهر على وجوههم ذهول، وغمغموا:

- هذا سحر مبين.

وذهب عيسى إلى المظال، فإذا صخبٌ ماجن، وضوضاء فاجرة، وضحكات خليعة فاسقة، وأغاني ماجنة، كان المكان المقدس أشبه بملهى من ملاهي الوثنيين، تُعرض فيه ألوان الفسق والفساد، والفَرِّيسِيون والكَتَبَة والصَدُّوقِيون يجوسون خلال المظال صامتين خاشعين، كأنما كانوا في محرابٍ مقدس.

لم يرتفع لأحدهم صوت اعتراض، كأن ما يقع تحت أبصارهم لا يخدِش الناموس، ولا ينقض شريعة موسى، أما إذا قام هو في الهيكل يعظ الناس، ويدعوهم إلى الله الواحد، فقد تصدّعت الشريعة، وتلمّسوا الأسباب ليقتلوه، ويستريحوا من دعوته، التي ما جاءت إلا لتفضّ الناس من حولهم، وتنزع منهم السلطان.

وفي الصباح، بعد أن دُقت الطبول، وقُدّمت القرابين، وقُضيت الصلاة، جلس يعظ الناس، غير هيّابٍ ولا وَجِل، أرسله الله لا يخشى في الحق لومة لائم، فليصرخ بها في وجوه الجميع مدوية.

ورفع بصره، فإذا جموع قادمة تدفع امرأة، والمرأة تخفي وجهها بيديها وشعرها، ووقفت المرأة ذليلة، خافضة الرأس، فتحركت شفقته، وأقبل نحوه الفَرِّيسِيون، وقالوا في قسوة:

- هذه المرأة وجدناها في زنا، وناموس موسى يأمر برجمها، فماذا تقول أنت؟

كان ذلك الناموس معطلًا، عطّله رئيس كهنتهم، بعد أن حاكى بنو إسرائيل الرومان حتى في المفاسد، فتفشى الزنا فيهم، وكان الفَرِّيسِيون يعلمون

ذلك، لكنهم أرادوا أن يحرجوه بخبثهم: إذا أمر بتركها ثاروا للناموس، وأرغوا وأزبدوا، وطالبوا بدم المارق، الناقض للشريعة، وإذا أمر برجمها تحدّى السلطة التي عطّلت هذا الحدّ من الحدود.

ولم يرفع عيسى رأسه، وإن كان بسريرته يلحظ الرياء الذي يقطِر من وجوههم، وساءه أن يقيم الخطاءون من أنفسهم حكامًا للخطيئة، ولم يحترم المرأة التي اقترفت الزنا، ولكنه يرى أن متهميها لا حق لهم في رجمها، كلهم غارقون في الدنس، وما ثاروا ثورتهم إلا رياءً، فحنى ظهره، وراح يكتب بإصبعه على الأرض:

- من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.

وكأنما غشاوة الرياء تمزّقت عن أعينهم، فتمثّلت لهم خطاياهم، ورأى كل منهم نفسه في حمأة الفسق، فنَدِيَت جباههم خجلًا، وأطرقوا رءوسهم خزيًا، وطفقوا ينسلّون واحدًا إثر آخر.

وبقي عيسى مطرقًا، والمرأة واقفة ترتجف عارًا، وقام عيسى ونظر، فإذا المرأة وحدها في وسط الهيكل، فقال لها:

- أين الذين جاءوا بك؟ أما دانكِ أحدٌ منهم؟

- لا يا سيدي.

- وأنا لا أدينك، اذهبي ولا تخطئي ثانية..

ومشت المرأة تجرّ ذيولها، وخرج عيسى إلى الوفود يدعوهم إلى تصديق رسالته، وجاء اليوم الثاني، فهبّ الناس في البكرة، في ثيابهم الجدد، في أيديهم «اللبلاب» مجدول من لباب النخيل، وراحوا يتدفّقون على الهيكل، وبدأت المراسيم، ووُضِعت تَقْدِمة الصباح على الهيكل، وحمل كاهن كبير إبريقًا من الذهب، وسار في موكبٍ عظيم حتى غادر الهيكل، وذهب إلى جبل صهيون، وفي بركة سلوام اغترف ثلاث غَرْفات في خشوع، وعاد الموكب العظيم. وانسابت الأنغام المتدفقة من الأبواق المقدسة، والكاهن يتقدم. وقد غمر الجموعَ فرحٌ، فراحوا يُلوّحون بما في أيديهم من «لبلاب»، وصبّ الكاهن الماء في وعاءٍ فضي، وصبّ خمرًا في وعاءٍ آخر، وارتفعت أصواتهم بالتهليل، ذلك التهليل الذي رجّعه داود، صاحب المزامير:

هللويا، سبِّحوا يا عبيد الرب.

سبحوا اسم الرب.

ليكن اسم الرب مباركًا، من الآن وإلى الأبد.

من مشرق الشمس إلى مغربها، اسم الرب مُسبَّح.

الرب عالٍ فوق كل الأمم.

فوق السموات مجده.

واستمروا في التهليل، حتى إذا انتهت المراسيم، قام عيسى يقول:

- إنْ عطِش أحدٌ، فليُقبِل إليّ ويشرب، من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أَنهار ماءٍ حي.

لم يكن هذا القول جديدًا عليهم، كان يفرحهم أن يقتبس من كتبهم، ففي ذلك توكيد منه بأنه ما جاء لينقضها، وفي هزّة الفرح قالوا:

- هذا نبيٌّ حقًا.

- هذا هو المسيح.

- أيأتي المسيح من الجليل؟

قال الكتاب إنه من نسل داود، يأتي من بيت لحم، مدينة داود.

واندس الفَرِّيسِيون بين الجماهير، يوغرون صدورهم عليه، وتغيرت القلوب وما أيسر أن تتغير، فردّدت جوانب الهيكل زمجرات، واندفعوا ليمسكوه، ولكنهم لم يجدوه، مضى من بينهم دون أن يروه، وتركهم حيارى يَعجبون.

وجاء المساء، وأُضيئت المصابيح، ففاض النور من الهيكل حتى غمر المدينة، ووقف اللّاويون على الدرجات المؤدية إلى الرواق، يردّدون ترانيم المصاعد:

أَرفع عينيّ إلى الجبال مِن حيث يأتي عوني.

معونتي من عند الرب خالق السموات والأرض.

لا ينعس حافظك.

إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل.

وراح الفَرِّيسِيون والناس يرقصون نشوة حول المصابيح، فقام عيسى يدعوهم إلى الحق:

- أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة.

فهب الفَرِّيسِيون يعترضونه، قالوا:

- أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقًا.

فقال لهم:

- إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت، وإلى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب.

أنهم تُدينون حسب الجسد، أما أنا فلا أُدين أحدًا، وإن كنت أنا أُدين فدينونتي حق، لأني لست وحدي، بل أنا والآب([19]) الذي أرسلني.

مكتوب في ناموسكم: إن شهادة رجلين حق، أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الذي أرسلني.

لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، أنتم تعملون أعمال أبيكم.

فزاد غضبهم، فهو يتهمهم أنهم ليسوا أبناء إبراهيم، وكل فخرهم أنهم من نسله، فقالوا في حنق:

- إننا لم نولد من زنا، لنا أبٌ([20]) واحدٌ هو الله.

- لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قِبَل الله وأتيت. لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قَوْلي، أنتم من أبٍ هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.

إن كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنون بي، الذي من الله يسمع كلام الله، وأنتم لا تسمعون كلامه، لأنكم لستم من الله.

فقالوا:

- ألسنا نقول حقًا؟ إنك سامري بك مس.

- ليس بي شيطان، ولكني أُكرِم الله وأنهم تهينوني، الحق الحق أقول لكم: إن كان أحدٌ يحفظ كلامي، فلن يرى الموت أبدًا.

- الآن علمنا أن بك شيطانًا. مات إبراهيم والأنبياء، وأنت تقول إن كان أحدٌ يحفظ كلامي، فلن يذوق الموت أبدًا، لعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات، وقد مات الأنبياء، مَن تحسَب نفسك؟

- إن كنت أُمجّد نفسي فليس مجدي شيئًا، ربي الذي يُمجّدني، الذي تزعمون أنتم أنه إلهكم ولا تعرفونه، وأما أنا فأعرفه، إن قلت إني لا أعرفه أكن مثلكم كاذبًا، لكني أعرفه وأحفظ قوله، أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح.

ماجوا لمّا سمعوا قوله، عاد يرميهم بالجهل بالله، وزاد على ذلك أنه ادّعى أن إبراهيم رأى يومه وفرح، فقالوا ساخرين:

- ليس لك بَعْدُ خمسون سنة، أرأيت إبراهيم؟

ورفعوا الحجارة ليرموا من قال لهم إنهم أبناء إبليس، ومن أنكر عليهم معرفة الله، ونظروا فلم يجدوه، اجتاز في وسطهم، ومضى دون أن يروه، فارتفعت الأصوات:

- إنه ساحر.

- هذا سحر مبين.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

(قرآن كريم)

حُشِر الناس إلى الهيكل وفدًا، فاليوم سبت، وقعد أمام باب الهيكل رجلٌ أعمى يتكفف، ترمقه العيون، فتتردّد في الرءوس أسئلة: أأخطأ هذا أم أبواه حتى وُلِد أعمى؟ وراه عيسى فأشفق عليه، وردّ في نفسه على أسئلة الناس: لا هو أخطأ ولا أبواه، ولكن لتظهر معجزة الرب فيه.

وتقدم إلى الأعمى، وقال:

- ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار، يأتي ليلٌ حين لا يستطيع أحدٌ أن يعمل.

وتَفَل على الأرض، وجعل من التَفْل طينًا، طلى به عيني الأعمى، وقال له: - اذهب واغتسل في بركة سلوام.

وذهب الأعمى إلى جبل صهيون، واغتسل في البركة، فإذا به يرى دنيا لم يرَها من قبل الآن: سماء وماء، وأشجار وتلال وضياء، وحسن وبهاء، فخفق قلبه في قوة، وغامت عيناه بدموع الفرح، ورفع يده يجفّف دموعه، فما عاد يطيق غشاوة عبراته، التي حالت بينه وبين النور لحظات.

ورجع الرجل إلى باب الهيكل وقعد، وخرج الناس بعد انقضاء الصلاة، ونظروا إلى الأعمى ليقوم في أنفسهم نفس السؤال: أأخطأ هذا أم أبواه حتى وُلِد أعمى؟ فإذا به يستقبلهم بعينين مفتوحتين، فقالوا: - أهذا الذي كان يجلس يسأل الناس؟

- لا. ليس هو.

- بل هو.

- إنه يشبهه.

- سلوه.

واقتربوا منه يسألونه، فقال لهم: - رد عيسى إليّ بصري.

- متى؟

- اليوم.

- في السبت؟!

- وانقسم الناس بين مكذّبٍ ومصدّق، وأخذوا الرجل، وقادوه إلى الهيكل، ودخلوا على الفَرِّيسِيين، وقالوا لهم: - يزعم هذا أن عيسى ردّ إليه بصره اليوم.

فقال له رجال السنهدرين:

- كيف أبصرت؟

- طلى عينيّ بالطين، وأمرني أن أغتسل في سلوام، فلما اغتسلت أحسست كأن غشاوة عن عيني تنجاب، وإذا بدنيا زاهية جميلة، دنيا ما كنت أتخيلها، تبدو لي ناصعة رائعة، ما أجمل أن يرى الناس!

بان في وجوه الفَرِّيسِيين قهرٌ، وقال بعضهم في حنق: - إنه ليس من الله، فهو يكسِر السبت.

وقال آخرون:

- كيف يقدر إنسانٌ خاطئ أن يقوم بمثل هذه الآيات؟

ودارت مناظرات، ودبّ بين الفريقين خصام، وكأنما أرادوا أن يضعوا حدًا لتلك الفُرقة، فقالوا للرجل: - ماذا تقول أنت عنه؟

فقال الرجل في حماسة:

- إنه نبي.

- فصاح صائح منهم:

- لا تصدّقوا دعواه، إنه أحد تلاميذه، جاء يلقي بينكم العداوة والبغضاء.

- فَلندْعُ أهله.

وأرسل أعضاء السنهدرين في طلب أهله، فجاء أبواه يضطّربان، فقالوا لهما: - أهذا ابنكما؟

- نعم.

- أوُلِد أعمى؟

- نعم.

- فكيف يبصر الآن؟

- لا نعلم، اسألوه فهو كامل السن.

ونادوا الرجل، فدخل، فقالوا له: - نعلم أن هذا الذي تزعم أنه ردّ إليك بصرك خاطئ.

فقال الرجل في تهكم:

- لا علم لي بذلك، ولكني أعلم أني كنت أعمى وأنه ردّ إلى بصري.

فقالوا في ضيق:

- ماذا صنع بك؟ كيف فتح عينيك؟

- قلت لكم، وكررت القول: لعلكم تريدون أن تصبحوا له تلاميذ!

فسبُّوه، وقالوا له:

- بل أنت تلميذه، أما نحن فتلاميذ موسى، نحن نعلم أن موسى كليم الله، أما هذا فلا ندري من أين هو؟

فقال الرجل دون أن يخشاهم:

- هذا أمر عجاب، لا تعلمون من أين هو، ولكنه فتح عيني، والله لا يستجيب للخاطئين، الله يلبي دعوة من يتقي الله، لم نسمع من الأزل أن أحدًا فتح عيني مَن وُلِد أعمى، لو لم يكن مرسلًا من الله لعجز عن أن يفعل شيئًا.

أخذتهم العزة بالإثم، فصاحوا:

- أخرجوه، أخرجوا من وُلِد في الخطايا وجاء يعلمنا.

كانوا يعتقدون أن الله يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، فما أعماه الله إلا لأن أباه كان خطاءً، وُلِد ذلك الأعمى في الخطايا، وقام في الهيكل يبصر أعضاء السنهدرين الكرام، فما جزاؤه إلا الطرد المهين.

وخرج الرجل، وقابله عيسى، فدنا يدعوه للإيمان، وقال له: - أتؤمن برسول الله؟

- من هو؟ وأين هو؟

- قد رأيته، الذي يكلمك.

وعرف الرجل عيسى، ذلك الذي ردّ إليه بصره، وقال عنه أمام السنهدرين إنه نبي، آمن به قبل أن يدعوه إلى الإيمان، فرفع بصره إلى السماء يعلن إيمانه، ويشكر الله.

ورأى الفَرِّيسِيون عيسى والرجل يتناجيان، فهُرِعوا إليهما يُصغيان، قال عيسى للرجل: - أتيت ليبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون.

فقال له الفَرِّيسِيون:

- لعلنا نحن أيضًا عِميان!

فقال لهم عيسى: لا تثريب على من وُلِد أعمى، ولكن اللّوم كل اللّوم على من أعمته الخطيئة.

وذهب عيسى، والريح تصفُر، ولكن صدى كلماته في آذانهم كان أعلى من زئير الريح، وراح يبتعد وهم يرمقونه، حيارى لا يدرون: أهو خاطئ كما يزعمون، أم رسول رب العالمين؟

واعتزل عيسى يصلي لله، ويفكر في أمر الناس، أعلن لهم وأسرّ لهم إسرارًا، ودعاهم جهارًا، ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا إنكارًا واستكبارًا، يدعوهم إلى الله فيرمونه بالضلالة، فغشّاه حزن، ونزل به همٌ ثقيل.

وفكر في أن يغادر أورشليم، فعداوة الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين والكَتَبَة مريرة، ولكنه رأى أن يعود إلى الهيكل يستأنف دعوته وجهاده، فلو قَبِلوه قَبِله الجميع، لو لان قلب أورشليم القاسي، لتفتحت له جميع القلوب.

وذهب إلى الهيكل، ووقف يدعو الناس، فاجتمعوا حوله، قال: - من لا يدخل من باب حظيرة الخراف، ويأتيها من مكان آخر، فهو سارق، أما من يدخل من الباب فهو راعي الخراف، يفتح له البواب الباب، وتسمع الخراف صوته، فإذا دعا خرافه بأسمائها خرجت له، فيمشي أمامها وهي خلفه، لأنها تعرف صوته، أما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه، لأنها لا تعرف صوت الغرباء.

رمقوه في تساؤل، فما عرفوا ماذا يريد بهذا مثلًا، ولمح الحيرة في وجوههم، فقال لهم: - الحق أقول لكم: إني أنا باب الخراف([21])، فمن دخل مني يَخلُص، يدخل ويخرج ويجد مرعى، السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويُهلِك، أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يكرِّس نفسه للخراف، أما الأجير إذا رأى الذئب مقبلًا ترك له الخراف وهرب، الأجير يهرب، لأنه أجير، ولا يبالي بالخراف، أما أنا فإني الراعي الصالح أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني، كما أن الآب([22]) يعرفني، وأنا أعرف الآب.

وضاق الفَرِّيسِيون به، فقال فريق منهم: - إنه يهذي، به مس، لماذا تعيرونه السّمْع؟

وقال فريق؟

- ليس هذا كلام من به شيطان، أيقدر شيطانٌ أن يفتح أعين العميان؟!

وهاج الناس في الهيكل وماجوا، وترقّب عيسى ثمرة ذلك الجدال، ومرّ الوقت، واشتدت المناقشات، ثم راحت تخفت، وتخفت وتخبو، كنارٍ أكلت الحطب، وأخذت تأكل نفسها، وهدأ كل شيء، كأنما أريق على المكان ماءٌ بارد، وانفض الناس من حوله، وإذا به قائم في الهيكل وحده.

وخرج مطرقًا، وسار حزينًا، يعرج في الطريق، حتى إذا غادر أسوار المدينة، وبلغ قمة جبال الزيتون، نظر خلفه يرمي أورشليم بنظرة وداع، وفي قلبه

لوعة، وفي نفسه حزن، وهاجت شجونه، فقال: - يا أورشليم، يا أورشليم.

يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين.

أردّت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولكنهم أبَوْا وأعرضوا.

ها هو ذا بيتك يُترك للخراب.

وانحدر من الجبل، يدثّره حزن، أعرضت أورشليم عنه، وأصمّت آذانها عن دعوته، وكذّبته وناصبته العداء، فسار مطرقًا وقد طفرت من مآقيه دموعٌ غاليةٌ غزيرة.

-36-

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

(قرآن كريم)

ودّع اليهودية، واخترق السامرة، وعند بئر يعقوب حطّ رحاله يستريح، لم تكن هناك امرأة سامرية تجادله في الدين، تقول له آباؤهم سجدوا في هذا الجبل بينا يقول اليهود في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه، فيبشرها باقتراب اليوم الذي يسجُد فيه الناس في أي مكان وكل مكان، كان منفردًا بأفكاره، وكانت أفكارًا مغلفة بقَتَام، أعرضوا عنه في أورشليم، لم يزدهم دعاؤه إلا فِرارًا، وكفروا به في الناصرة، وحتى الجليل الذي استبشر لدعوته، عبس وقطّب بعد أن راح الفَرِّيسِيون يلحون عليه أن يريهم آية، أن يُنزِل عليهم بروقًا ورعودًا، كأنما السماء رهن بنانِه، وكأنما هو ليس بشرًا مثلَهم يوحي إليه، يؤيده الله -إن شاء- بآياته، وما كان الرسول أن يأتي بآية إلَّا بإذن الله.

وأشرف على الجليل، رأى بحيرة جنيسارت صافية كعين زرقاء، والعصافير والطيور ترنّم التسابيح الخالدة الأبدية، والمروج زاهية تيَّاهة بالشباب، وورودٌ متفتحةٌ كالخدود، ونرجسٌ كالعيون، وأغصانٌ مسترسلةٌ كالشَعْر تَنوس لِعبَث النسيم الهفهاف، والرجال في غُدوٍ ورواح، يحملون خيرات السهل إلى السفن الراسية في الميناء، ومحصّلو الرسوم يزِنون ويفحصون، صورٌ حبيبةٌ إلى نفسه، فأشرقت وانداحت فيها نشوة، ولكن سرعان ما تبخّرت البهجة، لم يعد قادرًا على أن يذهب إلى هؤلاء الأغفال الأنقياء يعظهم دون أن يكدّر صفو التلاقي الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون والأعداء.

وسار على شاطئ البحيرة، ولمحه الناس، ففُتنوا به، وقبل أن يتركوا أعمالهم ويلتفوا حوله، زجرهم رؤساؤهم، فاستأنفوا ما كانوا فيه من أعمال، وهُرِعَ إليه حواريوه وأنصاره، وألقوا إليه سمعهم، ينهلون من المورد العذب، وفيما هم في حديثٍ ودرس، إذ أقبل قومٌ في وجوههم عُبوس وقلق، فنظر إليهم متطلعًا، فقالوا له:

- ذبح بيلاطس الجليليين في المعبد، خلط دمهم بدماء ذبائحهم.

كانوا يعتقدون أنه ما من مصيبة تنزل بالمرء إلا لخطيئة اقترفها، فإذا كان بيلاطس قتل هؤلاء الجليليين، فما مكن الله له فيهم إلا لأنهم قارفوا في حق الله ذنبًا، وصمتوا يسمعون رأيه، قال:

- أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا أعظم خطيئة من كل الجليليين لمكابدتهم هذا القتل؟ أقول لكم: كلّا. وإن لم تتوبوا تهلكوا جميعًا، أتحسبون أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم أعظم خطيئة من جميع سكان أورشليم؟ كلّا. فإن لم تتوبوا تهلكوا جميعًا.

وراح يضرب لهم الأمثال:

كان لامرئ شجرة تين، أتى يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرًا، فقال للكَرَّام: أتيت ثلاث سنين([23]) ألتمس من هذه التينة ثمرًا فلم أجد عندها ثمرًا، اقطعها. قال له الكَرَّام: يا سيد، دعها هذه السنة أيضًا حتى أُصلح لها الأرض، وأضع حولها زبلًا، فإن أثمرَت أبقيتَ عليها، وإلا فاقطعها.

ورمقوه بعيون واسعة، ولم يسألوه تأويل مَثَله، تُرى أفهم تلاميذه أنه ضرب لهم هذا المثل، ليشرح لهم أن الله يمهل عبده، عله يستغفره ويتوب إليه، أم لم يفهموا شيئًا، ولاذوا بالصمت حياءً وهيبة!

والتفت به الجموع، وخشي الفَرِّيسِيون أن يفتِن الناس، وأن يَهتِك الأستار التي يسدلونها في مهارة ورياء لإخفاء الحقيقة، فرأوا أن يُرهِبوه حتى يغادر الجليل، ويتركها مرتعًا خصيبًا، يبذرون فيه البِدَع والأوهام، ويجنون منه المال والنفوذ والسلطان، فجاءوا إليه في ثياب النُصَحاء الأصدقاء، وقالوا:

- اذهب من هنا، لأن هيرودس يريد أن يقتلك.

لو كان هيرودس يريد قتله حقًا، لأخفوا عنه تدبيره، وهل كانت أمنيتهم إلا قتله؟ اختلقوا هذا الخبر ليُرهِبوه، ويُرغِموه على الفرار، فينقذوا أنفسهم من وخزاته ولذعاته، كانت سخريته أمضى من السيوف، وما كان يشتدّ إلا إذا قرعهم، وسلّط أنواره على ريائهم، فيبدو عاريًا بغيضًا، لم يرهبه تخويفهم إياه «بالثعلب» الرواغ، هيرودس أنتيباس، المتطيّر الرعديد، الذي يخشى الأوهام، ويُقبِل على قتل الرجال والأنبياء، ولم يُلقِ بالًا إلى تهديدهم، بل استمرّ في وعظ الملتفين حوله.

ورأى أن يبعث تلاميذه إلى بني إسرائيل مبشرين باقتراب ملكوت الله، فعيّن سبعين، وراح يعظهم:

- الحصاد كثير، والفَعَلة قليلون، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فَعَلةً إلى حصاده، اذهبوا، هأنذا أرسلكم كحملانٍ بين ذئاب، لا تحملوا كيسًا ولا مِزودًا ولا أحذية، ولا تسلّموا على أحدٍ في الطريق، وأي بيت دخلتموه فألقوا عليه السلام، فإن كان هناك ابن السلام يحلّ سلامكم عليه، وإلا فليرجع إليكم، وأقيموا في ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم، فالفاعل مستحقٌ أجره.

لا تنتقلوا من بيتٍ إلى بيت، وأية مدينة دخلتموها وقَبِلوكم، فكُلوا ممّا يقدّم لكم، وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله، وأية مدينة دخلتموها ولم

يَقبَلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا: حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفُضه لكم، ولكن اعلموا هذا: إنه قد اقترب منكم ملكوت الله، وأقول لكم إنه يكون لسدوم في ذلك اليوم حالةً أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة.

وخرجوا اثنين اثنين يبشرون باقتراب ملكوت الله، ولم يأمرهم أن يذهبوا إلى الأمم أو إلى السامريين، ولم ينهَهُم فقد اتضحت رسالته لتلاميذه، عرفوا أن الله لم يبعثه إلا إلى بني إسرائيل رسولاً.

وراح يجول على شاطئ البحيرة، يعظ الناس، ولكن ما أقلّ المؤمنين الذين كانوا يصغون إليه! انفضّ عنه الناس لمّا لَم يأتهم بآية، نجح الفَرِّيسِيون في بَذْر بذور الشك في القلوب التي كانت مهيأةً للإيمان، وفي سكون الليل انطلق وحده والحزن يعصِر قلبه، أتى الناسَ بالهداية فرفضوه، هداهم الطريق القويم فأبَوْا إلا أن يتنكَّبوا الطريق، دعاهم إلى الله الواحد، فأبَوْا إلا أن يشركوا مع الله أحبارهم ورهبانهم. واكتأبت نفسه، كان يرجو أن يُتِمَّ رسالة ربه، وأن يُثَبِّت أركانها، ولكن بدا لعينيه أن مستقبل رسالته تلبّد بالغيوم، كفر الناس به بعد أن صدّقوه، وفرّوا منه بعد أن كانوا يُقبِلون عليه، ويقتتلون ليلمسهم بيده، أو ليفوزوا بلمس شيءٍ منه، ولو طَرْف ثوبه أو جلد نعله.

حتى في الجليل رفضوه، لو أُمِر بدعوة الأمم لانطلق يهديهم إلى الله، فقد تكون قلوبهم أرحم من قلوب هؤلاء القساة الجاحدين، ولكنه لم يُرسَل إلى الأمم، فليس أمامه إلا أن يجوب البلاد اليهودية يتلقى الاضطهاد.

واقترب عيد التجديد، فليترك الجليل ليعود إلى أورشليم، ولكن كان أمامه فسحة من الوقت، لم يعد الانتظار في الجليل محتملاً، عزيز عليه أن يعيش بين أناسٍ جحدوه وطوَوا عنه كَشْحَهم، سيذهب في البلاد يعظ هنا وهنا، حتى يوافيَ العيد، فيقوم في الوفود داعيًا، فقد يجني ثمرة الكفاح.

وتأهب للرحيل، ووقف ينظر إلى بحيرة جنيسارت وإلى مدن الجليل القائمة على شاطئها، فانبثقت في جوفه ينابيع الحزن، وكانت أغزر ينابيع نفسه، كان نبي الأحزان، ولم يجد منفسًا لأساه إلا الكلمات، فقال وهو يرنو إلى الجليل في لوعة:

ويل لكِ يا كورزين!

ويل لكِ يا بيت صيدا!

وأنتِ يا كفر ناحوم، المرتفعة إلى السماء!

ستهبطين في الهاوية!

وانطلق يغادر الجليل دون أن تلوّح له يدٌ واحدةٌ بالوداع، حتى أغصان الأشجار وسعف النخيل لم تهتز، خفت النسيم، فبدا كأنه قد مات.

-37-

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.
(قرآن كريم)

ليلٌ سرمدٌ لا يتخلله بصيص نور، أرضٌ تُطوَى، وشمسٌ تُقبِل لتغيب وأناسٌ يُحشرون يصغون ثم ينفضّون، وفَرِّيسِيون قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، ونور الإيمان لا يزحزِح ظلمات النفوس، وبعثت الشمس رُسُلها، ولكن دثّر الكون ليلٌ سرمدٌ.

ولاحت له أشجار نخيل عين غانم، مفتاح السامرة فراح يرقى التل يداعبه أمل، أضافه السامريون ثلاثة أيام، يوم قابل السامرية عند بئر يعقوب، واكتشفت أنه نبي، كرّموه على الرغم من العداوة القاتلة بينهم وبين اليهود، فلو أحسنوا استقباله لمسحوا عن صدره آلام الجفوة التي قاساها في أورشليم، وفي الجليل، وفي كل مكان، فينبثق شعاعٌ من نورٍ في الظلام الدامس الثقيل.

وقابله تلميذاه يعقوب ويوحنا، ودخلوا عين غانم، وقام عيسى بين الناس يعظهم ويدعوهم إلى الله، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وطلبوا منه أن يغادر قريتهم، وبدت العداوة منهم، فنكص على عقبيه مقهورًا.

علم السامريون أن وجهتهم أورشليم لحضور العيد، وما كان السامريون يعترفون بالهيكل المقدس، فهم يقولون إن الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب سجدوا هنا في جبل شكيم، وما الهيكل إلا معبد بناه سليمان الحكيم، فلو شاء اليهود أن يسجدوا، فليس هناك إلا مكان واحد للسجود، حيث سجد الآباء في جبلهم المقدس.

سبق أن قال عيسى للسامرية عند البئر، تأتي ساعةٌ لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله، فلماذا لا يدعو بهذا جهارًا؟ لماذا لا يقول للناس إن أورشليم إن هي إلا مدينةٌ فتحها داود، وما قدّسها إلا الكهّان والتقاليد، فلو فعل ذلك لأيّد دعواهم، ولأصاخوا له، ففي ذلك بعض النصر لهم، ولكنه لم يفعل، فهو يخرج إلى أورشليم حاجًا كآلاف الحجّاج من بني إسرائيل، فغيّر ذلك صدورهم عليه، وما دار بخَلَدهم أن زمان ملكوت السماء، الذي يجعل الأرض كلها مسجدًا، لم يظلّل الدنيا بعد، وما جاء عيسى ليضع تعاليمه، بل أرسل به بشيرًا.

أبَوْا عليه أن يخترق السامرة، حتى الطعام رفضوا أن يمدّوه به، لم ينظروا إليه نظرة الوداد السابقة، لا لخشونةٍ في طباعهم، ولا لقساوة قلوبهم، بل لأنه جاء إلى بلادهم حاجًا إلى أورشليم، وما كانوا منطقيين مع أنفسهم لو أنهم آووه وأكرموه ودعوه يخترق ديارهم معززًا مكرمًا وهو لا يحترم معتقداتهم.

لو كرّموه وتركوه ينطلق إلى أورشليم لكان ذلك شاهدًا على تهاونهم في أُسّ العداوة المريرة، المشتعلة بينهم وبين من كانوا لهم إخوانًا في اليهودية، قبل أن يقع الخلاف بينهم، على شكيم وأورشليم والتوراة التي جاء بها موسى، والتوراة التي كتب بعض إصحاحاتها مردخاي تمجيدًا لإستر التي أنقذت بجمالها شعبها.

وحنق تلميذاه يعقوب ويوحنا، وغلى مِرجَل غضبهما، فقد نكأت هذه المقابلة الجافة القاسية الجراح، وجدّدت الأشجان، فما بال الله حليمًا لا يُنزل على هؤلاء الجفاة كِسَفًا من السماء، ما باله لا يدَمدِم عليهم بذنبهم، فيسوي أرضهم؟ وتذكروا أن إيليا، هنا في السامرة، دعا الله أن يُنزل على أعدائه نارًا تحرقهم، فاستجاب الله دعاءه، فلماذا لا يدعو عيسى ربه، لينزل عليهم من السماء نارًا، فيُفنيهم كما فعل إيليا.

غضب عيسى من ذلك الروح الثائر الحانق، فزجرهما، وقال لهما:

- ما أرسلت نقمة، بل أرسلت رحمة.

وانطلقوا، يدخلون القرى والمدن، يجتازون السهول والقِفار، ويرقَوْن الجبال، ويهبطون الوديان، وعيسى يعظ الناس ويبشّرهم باقتراب الملكوت، ويكسِر السبت، ويبرئ فيه المرضى، كأنه ما جاء إلا ليكسِر السبت المقدس، فإذا ثار الفَرِّيسِيون والناموسيون، والمراءون، قال لهم في سخريته اللاذعة:

- من منكم يسقط حماره أو ثوره -في يوم السبت- في بئر ولا ينتشله؟

كانت أجوبته تُفحِمهم، فيصمتون على مضض، يتربّصون به الدوائر، فقد يأتي يوم يخرق فيه الناموس، ويقصر فيه بيانه عن إقامة الحجة المتألقة، فيقتلونه ويستريحون من ذلك القلق الذي بذر بذوره في أعماقهم.

واستمرّ في رحلته، فهو من يوم أن بُعِث في رحلةٍ دائمة، ولاح في الأفق جبل الزيتون بأشجاره، إنها أورشليم معقِل أعدائه، ذات القلب القاسي الذي كان أقسى من الصخر الذي بُنِي به أسوارها، كان مكدودًا من الرحلة الطويلة التي قطعها على قدميه، فشاء أن يستريح قبل أن يدخل متحديًا قوات الفَرِّيسِيين في عقر دارهم.

كان لعازر من أنصاره، وكان له بيتٌ في أرباض المدينة المقدسة، فانطلق يستجمّ هناك بعد التعب، وما دلف إلى الدار حتى هُرِعَت مَرثا ومريم

المجدلية. أختا لعازر، تستقبلان الضيف العظيم في ابتهاج، وأسرعت مَرثا تحضر الماء تغسل له رجليه، وذهبت تعدّ له طعامًا، توقد النار وتبعث في شراء ما تحتاج إليه، وتغدو هنا وتروح هنا، بينا مريم جلست عند أقدامه صامتة، تصغي إلى عذب حديثه الذي يتدفق من فمه إلى قلبها.

نسيت كل شيء إلا ذلك الضيف العظيم الذي كان بيانه سحرًا، تفتّحت نفسها، هامت روحها في سماواتٍ من النقاء، كان حديثه وحيًا من السماء، يرفعها إلى أجواءٍ عالية، فتمتلئ نشوة عارمة.

ارتبكت مَرثا واحتاجت إلى عون أختها، فارتفع صوتها بالنداء:

- مريم، مريم.

ولم تسمع مريم نداءها، كانت غائبةً عن كل ما حولها بكلماته التي تنفُذ إلى قلبها قطرة قطرة، وارتفع النداء وهي في شرودها، طغت شخصيته فذابت فيها، كأنما لم يعد لها كيان.

وضاقت مَرثا بإعراض أختها عنها، فاندفعت إليها كالعاصفة، وقالت للسيد:

- قل لها أن تعينني، تركتني أخدم وحدي.

ما هذا الذي تفعله مَرثا، لقد شغلت نفسها في إعداد طعامٍ فاخر، حتى إنها تطلب عون أختها، فمن قال لها إن السيد يحفُل بذلك، كانت مريم تؤدي له خدمة أجلّ مما تؤديه مَرثا، كانت تخدمه خدمة روحية، تصغي إليه وهو يحدثها حديث الشريعة في إقبال، فقد أصبح في حاجة إلى من يُقبِل عليه، بعد الإعراض والجفوة.

كانت مريم متهللة، فالنبي الكريم يحدّثها حديث الدين، على الرغم من المثل المتداول بين الرِبِّيين «خيرٌ لك أن تخرق الناموس من أن تعلمه امرأة».

ونظر عيسى إلى مَرثا في إشفاق، وقال لها:

- مَرثا مَرثا، إنك مهتمة ومشتغلة بأمور كثيرة، والحاجة إلى واحد([24])، أما مريم فقد اختارت النصيب الصالح، ولن يُنزع منها.

كانت هذه الزيارة روضة الجنان في صحراء دعوته الماحلة، التي لم تَنبُت فيها مشاعر الودّ والحنان، كانت النهلة العذبة الرويّة للصادي الظمآن، كانت لروحه المعذبة البرد والسلام، كانت الخيط الأبيض في الليل السرمد.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

(قرآن كريم)

كان غسق الدجى ينحسر، وعيسى على جبل الزيتون خاشع، لا حسيس ولا نأمة، والنجوم أفَلت، والسماء صافية، للشمسِ تترقب، وارتفع صياح الدِّيَكة في أورشليم، فتجاوبت الأصداء في الجبل، وزقزقت العصافير، وتنفس الصبح، فبعث أشعته خافتة توسوس للأرض بسر، حتى إذا ذاع انتشر، واشتعل الأفق الشرقي، وحامت الطيور فوق الجبل، وجعلت تحطّ على أسوار المدينة العتيقة، ودوى في الفضاء قرع طبول.

وقام عيسى ونظر إلى المدينة. كان الهيكل يتلألأ، الضوء ينبعث من شرفاته، فقد أضيئت جميع ثُريّاته احتفالاً بالعيد، وحمل النسيم روائح البخور، فملأت خياشيمه، وبدت القباب كمزيج من الجليد والنُضار، بياضٌ ناصعٌ وذهبٌ وهَّاج.

أنهارُ الناسِ مِن كل فجّ تصبّ في الهيكل، الرجال في ثيابٍ زاهية، قد ثبتوا التفلين في أذرعهم، ووضعوا المشامل على أكتافهم، والنساء محجبات، والأطفال في ثياب العيد، وفي أيدي الجميع غصون أشجار الليمون، وفروع الأزهار وسعف النخل، يهزّونها في مرح، فاليوم عيد التجديد، ذكرى تطهير يهوذا المكابي الهيكل، بعد أن دنّسه أبيفانوس.

وسار عيسى في الطريق الجميل المؤدي إلى بيت المقدس، وبلغت مسامعه صلوات الجموع وابتهالاتهم، ودُقّت الطبول معلنة أن أول ضحية من أضحيات اليوم الأول قُدّمت إلى المذبح، وراحت أقداح الدم تنتقل بين أيدي الكهنة حتى يد الكاهن الأكبر، ليسكبها في المذبح الكبير، وقضيت المراسيم، وانتشر الناس في الأروقة، وكانت جدرانها مزدانة بالسيوف، تخليدًا لذكرى الشجعان الذين خلّصوا الهيكل مع يهوذا المكابي، وراح عيسى يغدو ويروح في رواق سليمان، والفَرِّيسِيون يرمقونه، ولما لم يقف يعظ الناس، ذهبوا إليه وقالوا له:

- إلى متى تُعلّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح، فقل لنا جهرًا.

- قلت لكم ولا تؤمنون، لأنكم لستم من خرافي، خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياةً أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطِفها أحدٌ من يدي، ربى([25]) الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحدٌ أن يخطف من يد ربي، أنا والآب واحد.

ثار الفَرِّيسِيون، إنه كَفَر وادّعى أنه إله، فحُقّ رجمه، فتناولوا حجارة ليرجموه، فالشريعة تقضي برجم من يدعي النبوة كذبًا، فما بالك بمن يدعي الألوهية، نظر إليهم في دهش وقال:

- أَرَيْتُكُم أعمالًا كثيرةً حسنةً من عند ربي، بسبب أي عمل منها ترجمونني؟

- لا نرجمك لعملٍ حسن، بل لأنك كفرت([26])، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا.

- أليس مكتوبًا في ناموسكم: «أنا قلت إنكم آلهة». قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله.

كان عيسى يتمثّل بالتوراة في كل أقواله، فما ادّعى أنه إله لمّا قال لهم أنا والآب واحد، أراد أن يقول لهم على طريقة داود أنه رسول الله، فقد قال داود في مزاميره على لسان الله تعالى:

أنا قلت إنكم آلهة.

وبنو العلي كلكم،

لكن تموتون مثل الناس،

وكأحد الرؤساء تسقطون.

إنه ليستشهد بكتابهم، وما أكثر اقتباساته منه، صرخ فيهم يومًا: «ابعدوا عني يا جميع فاعلي الإثم»، وما كان ذلك القول قوله، بل قول داود في مزاميره، وهو الآن يقتبس من داود قوله إن الله يقول لأنبيائه: إنكم كلكم أبناء العلي، ولكنكم لا تَخلُدُون، بل يحق عليكم الموت كالناس، والسقوط كالرؤساء، إن هي إلا عصمةٌ من الله واصطفاء.

لم يدّعِ عيسى الألوهية، بل قال كما قال داود: إن الله اصطفاه، وإذا كان قد قال لهم إنه ابن الله، فما أراد بذلك بنوّة حقيقية([27])، فيا طالما دعا الناسَ في أقواله بأبناء الله: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن»، «يأيها الأحباء نحن أبناء الله»، «وصلوا للذين يطردونكم... لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات». إنها أبوّة روحية تظلّل الجميع.

وما كانت تلك اللفظة جديدةً على مسامعهم، قال داود في مزاميره إنه ابن الله:

قال لي أنت ابني.

أنا اليوم ولدتك.

اسألني أعطيك الأمم ميراثًا لك.

تحطّمهم بقضيبٍ من حديد.

تكسِرهم مثل إناء من خزف.

لم يدع أن المعجزات التي أتاها من عنده، بل قال إنه لم يأتِ بآيةٍ إلا بإذن الله، «كل شيء قد دُفِع إليّ مِن ربي»، ولم يدَّعِ أنه إله، ولم يدَّعِ بنوّة حقيقية، بل بنوّة روحية شاركه فيها المؤمنون والأنبياء، فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده.

وأرخى اليهود أيديهم وهم يَعجبون، هذا الذي لم يتعلم في مدارس الربِّيين، ولم يجلس في أروقة الهيكل يصغي إلى شَمّاي وهِلّيل، أتاه من العلَم ما يفوق علمَ العلماء ورجال الدين، إنه على علمٍ بكتبهم وناموسهم، وله بيانٌ عظيم.

أحسّوا قهرًا، حسبوه كفر، وأقاموا عليه الحجة ليرجموه، وإذا به يبرهن لهم من ناموسهم أنه لم يدَّعِ الألوهية، بل استعار حديثه ممّن سبقوه، ليعلن أنه رسول رب العالمين.

واستأنف دعوته، وأعلن للملأ رسالته، فأعرضوا عنه وكذبوه، لم يصدقوا أن الله أرسله إليهم، ولمّا كانت شريعتهم تقضي بقتل الأنبياء الكذبة، هجموا عليه ليمسكوه، ولكنه كعادته أفلت من أيديهم ومضى، وتركهم في حيرةٍ ذاهلين.

سار عيسى يدثّره حزنٌ عميق، لم يبقَ أمامه إلا مغادرة أورشليم، فأعداؤه يطلبونه، ولكن إلى أين يتوجه؟ في الجليل رفضوه، وفي الناصرة رفضوه، وفي اليهودية رفضوه، وفي السامرة رفضوه، لم يبقَ أمامه إلا أن يلوذ بالبَرِّيّة، أن ينتهي إلى ما انتهى إليه يحيى، أن ينطلق صوب الأردن حيث بَشَّر يحيى باقتراب ملكوت الله.

خرج عيسى يحسّ غصّة، وفي صدره جمرة، وفي مقلتيه دموع، وفي فؤاده حزنٌ عميق، وابتعد عن أورشليم رويدًا رويدًا، حتى ابتلعه الليل السرمدي الطويل.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(قرآن كريم)

سحابٌ ثِقال في السماء يتلبّد ويزداد قَتَامًا، فيُدثّر الأردن ظلام، وهو هناك في البَرِّيّة يُعلّم تلاميذه، ويعظ الذين يدفعهم الشوق إلى الحجّ إليه، فيُصغون إلى حكمته، وتتفتّح قلوبهم لها، يؤمنون حينًا، حتى إذا عادوا إلى دُورهم انقشع سحر بيانه، وغمرتهم حياتهم الثقيلة، وجرفتهم في تيارها.

وهطلت الأمطار غزيرة، وهبّت الرياح عاتية، كان الوقت شتاءً، وسرعان ما أصبحت السماء صحوا وبزغت شمسها، أما سحاب دعوته فلم ينقشع، كان يتكاثف ويتجمع، ليحجب نور الحقّ أن يُحَصحِص ويتألق.

وجاءه رسول من مَرثا وأختها مريم المجدلية، يقول له: - هو ذا الذي تحبه مريض.

علم عيسى أن لعازر سقط مريضًا، فدعا تلاميذه، وقال لهم: - لنخرج إلى اليهودية.

فقال له تلاميذه في فزع:

- اليهود يطلبون أن يرجموك.

وخشي التلاميذ أن يخرجوا، فقال لهم:

- لعازر حبيبنا قد نام، وإني أذهب لأوقظه.

فقال له تلاميذه في بساطة:

- إن كان قد نام فهو يشفى.

لم يفهموه، وما فهموه قبل ذلك، قال لهم إن لعازر رقد رقْدة الموت، وإنه ذاهب ليحيّيه، وهم يحسبون أنه يتحدث عن رقْدة النوم، فقال لهم: - لعازر مات. لنذهب إليه.

- نظر بعضهم إلى بعضٍ، كانوا يخشون الخروج من البَرِّيّة، فاليهود يطلبونهم، وصمتوا قليلًا، فقام توما يقطع ذلك السكوت: - لنذهب لنموت معه.

وخرجوا إلى اليهودية، فجاءه الفَرِّيسِيون يسألونه عن الزواج ليُحرِجوه، وينفَضّ عنه هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون به، قالوا: - هل يحلّ للرجل أن يطلّق امرأته لأي سبب؟

- خلقهما الله ذكرًا وأنثى، وقال: يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويصبح الاثنان جسدًا واحدًا، لم يعودا بعد اثنين بل جسدٌ واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.

كان ذلك يخالف شريعة موسى، فقال الفَرِّيسِيون: - فلماذا أوصى موسى أن تطلّق بكتاب طلاق؟

- أذن لكم موسى أن تطلّقوا نساءكم لقساوة قلوبكم، وأقول لكم: إن من طلّق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوّج بأخرى يزني، ومن يتزوج من مطلقة يزني.

ظهر الدهش في وجوه تلاميذه، فما يقرره الساعة لا يُطاق، فمن الذي يُقدِم على زواج وهو لا يدري أيوفّق فيه أم يحالفه الإخفاق، ثم يُقال له: لا تترك زوجتك إلاّ بسبب الزنا، قد يحلّ الشقاق والنفرة بينه وبين تلك الزوجة، أيعيش في جحيم الحياة؟ وقد تسقط فريسةً لمرض عضالٍ فماذا يفعل، فقالوا له مستنكرين: - إن كان هذا أمر الرجل مع المرأة، فخير للمرء ألا يتزوج.

فقال لهم شارحًا رأيه:

- لا يقبل الجميع هذا الكلام، بل الذين أعطي لهم، يوجد خِصيان وُلِدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خِصيان خَصَاهم الناس، ويوجد خِصيان خَصَوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات، من استطاع أن يَقبَل فليَقبَل.

وفيما هو يتحدث إلى حوارييه، أقبل عليه أولادٌ يلتمسون منه البركة، فانتهرهم التلاميذ، فقال لهم: - دعوا الأولاد يأتون إليّ، ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات.

وانطلق في رحلته الدائمة، إلى بيت عنيا، بأرباض أورشليم، حيث دار حبيبه لعازر، إلى تلك الدار التي يتفيأ فيها ظلال الراحة والأمن، وفيما هو في طريقه، إذ قابله رجلٌ غنيٌ، فدنا منه، وقال له: - أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟

فقال له عيسى:

- لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحدٌ صالحًا إلا واحد، وهو الله، إن أردتَ أن تدخل الحياة، فاحفظ الوصايا.

- أية وصايا

- لا تقتل.. لا تزْنِ.. لا تسرق.. لا تشهد الزور.. أكرم أباك وأمك.. وأحب قريبك كنفسك.

- هذه كلها حفظتها منذ حداثتي، فماذا يعوزني بعد؟

- إن أردت أن تكون كاملًا، فاذهب وبِع أملاكك، وأَعطِ الفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء، وتعالى اتبعني.

أطرق الرجل، وعلاه وجوم، فأمواله كثيرةٌ ممدودة، وإنه لعزيزٌ عليه أن ينفق كلّ ماله في سبيل الله، فانسل مطأطئ الرأس حزينًا.

فقال عيسى لتلاميذه:

- عسيرٌ أن يدخل غني ملكوت السموات، إن مرور جملٍ من سَمِّ الخِيَاط، أيسر من أن يدخل غني ملكوت السموات.

وانطلقوا حتى لاحت لهم قمة جبل الزيتون، حيث يرقد خلفها بيت لعازر، وذهب الرسول إلى مَرثا وأخبرها أن عيسى قادم، فتركت المعزّيات والمعزّين الذين جاءوا للعزاء، فقد مات أخوها منذ أربعة أيام، وذهبت لاستقبال النبي، وبقيت مريم المجدلية في البيت، فما بلغها نبأ وصوله.

قابلته مَرثا، وقالت له:

- لو كنت ههنا لما مات أخي.

فقال لها في هدوء:

- سيقوم أخوك.

- فقالت في حزن:

- أعلم أنه سيقوم في اليوم الآخِر.

وذهبت إلى أختها، وأسرّت لها أن عيسى رسول الله قد حضر، وهو يدعوها، فما إن مسّ اسمه أذنيها حتى هبّت تهرول إليه، فحسب من كانوا في الدار أنها منطلقةً إلى القبر، تبكي هناك، فخرجوا في أعقابها.

قابلته مريم، وقالت له:

- لو كنت ههنا، لما مات أخي.

وانهمرت دموعها على خديها، فأثّرت فيه دموعها، فاضطرب شفقةً وقال: - أين وضعتموه؟

- تعال وانظر.

وعند القبر تجمّع اليهود الذين خرجوا خلف مريم، ونظر عيسى، فجرت دموعه الغالية، فهمسوا: - انظروا، كيف كان يحبه.

رنا إلى القبر مدّة، كان كهفًا عليه حجر، ثم قال: - ارفعوا الحجر.

فهُرِعَت إليه مَرثا منزعجة، وقالت:

- له أربعة أيام.

كانت تخشى أن تفوح رائحته، فقال لها:

- ألم أقل لك إن آمنتِ ترَيْن مجد الله؟

فرفعوا الحجر، ورفع عينيه إلى السماء، وقال في حرارة: - إلهي لك الشكر على ما منحتني، أبتهل إليك أن تستجيب دعائي، ليؤمنوا أنك أرسلتني.

وصرخ صرخة عظيمة:

- هلم اخرج.

وإذا لعازر يخرج ملفوفًا في أكفانه، والناس في دهش وذهول، فقال: - فُكّوه.

فأسرعت مَرثا ومريم إلى أخيهما، تفكان أربطته في انفعال، والدموع تغسل الوجوه، وذهب فريقٌ إليه خاضعًا يُظهِر إيمانه، واستكبر فريق، وأبى أن يصدّق ذلك الذي أيده الله بالمعجزات.

وذهب الذين كفروا إلى الفَرِّيسِيين، يخبرونهم بما رأوا، لعل عندهم له تأويلًا، فقالوا لهم إن هو إلا سحرٌ مبين، وصدورهم ضيّقة من الغيظ، وذاع أمر إحياء لعازر، فانطلق الناس إلى بيت عنيا يُعلنون إيمانهم برسول رب العالمين.

وحقد عليه الفَرِّيسِيون، وأفزعهم انشقاق الناس في أمره، فذهبوا إلى قيافا رئيس الكهنة يشكون إليه الفتنة الكبرى، فأطرق قليلًا، ثم قال: - خير لنا أن يموت واحد، من أن تَهلَك الأمة كلها.

حرّضهم على قتله، لينقذ الأمة من دعواه التي فرقت بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، فلو أنهم خَلَّوا بينه وبين الناس، لانقسموا إلى فريقين يتجادلون ويقتتلون، ولكانت ثورةً أهلية.

وعلم عيسى بما بيته الفَرِّيسِيون له بِلَيْلٍ، علم أن قيافا أحلّ لهم دمه، وأنهم يتربّصون به الدوائر، فخرج من بيت عنيا يترقب، وذهب إلى إفرايم ينتظر حلول الفصح بعيدًا عن الأنظار، حتى إذا وافى العيد، خرج إلى أورشليم، يهاجم الفَرِّيسِيين وهو آمن من مكرهم، فلن يستطيعوا أن يقتلوه بين الحجيج، خشية ثورة الجماهير، فالناس وإن لم يؤمنوا به، يعطِفون عليه، ويُصغون إليه، ولا يجدون في دعواه ما يوجب إهدار دمه، إنه يشرح لهم الناموس شرحًا أخاذًا جذابًا، ويضرب لهم أمثالًا تستهويهم، وما أشد إعجاب الناس بالحكمة، وإن لم يفهموا مغاليقها!.

-40-

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.
(قرآن كريم)

بحثوا عنه فلم يجدوه، فضاقت الدنيا في وجوههم، ونزل بهم همٌ ثقيل، لن يعرفوا طعم الراحة، ما دام يسعى على الأرض ينفث في الناس دعوته التي تُقوِّض سلطانهم، ولم يقدروا أن يداروا عداوتهم، فأعلنوا أنهم يطلبونه، وأصدروا أمرًا بتحريض من يعرف مكمنه أن يرشد إليه.

وبدأت قوافل الحجّاج تَفِد إلى أورشليم من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى ورومية واليونان، ليطهّروا أنفسهم تأهبًا للفصح، ومن إفرايم شاهد عيسى جموع الحجّاج مخترقة البَرِّيّة إلى بيت المقدس.

واقترب العيد فرأى أن يذهب إلى بيت عنيا، إلى بيت لعازر حيث الدعة والهدوء، ليستجمّ قبل أن يدخل أورشليم للكفاح المرير.

وخرج ومعه حواريوه، وانطلقوا في حذر، حتى إذا دخلوا بيت لعازر، راحت مَرثا تعدّ وليمة فاخرة للضيوف، كانت حريصة على إكرام النازلين عندها، بتقديم ألوانٍ من الطعام وصنوف، أما مريم فما عادت تحفل بالطعام وبالشراب، شَفَّت روحها، فاهتمت بغذاء الروح.

رأت عيسى قد اتكأ مع المتكئين، فأحضرت قارورة ناردين خالص، ودخلت وأكبّت على رجليه، وراحت تدهن قدميه بالطيب، وتمسحهما بشعرها، فعبق البيت بالروائح الزكية النفّاذة، والتفت الحواريون إلى مريم وفي عيونهم شيءٌ من الإنكار، فما كان لامرأة أن تلمس رجلًا غريبًا، لا أن تمسح بشعرها قدميه، ورأى يهوذا الإسخريوطي، وكان خازن الجماعة، أن في إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرًا، فقال:

- لو بِعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار، أنفقناها على الفقراء.

نظرت إليه مريم نظرة إنكار، وبان في وجهها ضيق، وساد المكان وجوم، ولمح عيسى ما في وجه المجدلية من انفعال، فقال:

- دعوها، لماذا تتعبونها، لقد أحسنت إليّ، الفقراء معكم في كل حين، أما أنا فلست معكم في كل حين.

وسكنت النفوس إلا نفس يهوذا، رأي في قول عيسى مجاملة لامرأة على حساب تعاليمه، فهو يدعو الناس إلى التقشف والزهد والخروج عن أموالهم

لله طيبةً نفوسُهم، ويدَعُ امرأةً تسكب الطيب على قدميه، دون أن ينهرها عن ذلك التبذير، ماذا عليه لو أرشدها إلى ما فيه خيرها وخير المساكين؟

واستولى الغضب على يهوذا واستبدّ به، وجيء بالطعام، وبدءوا يأكلون، وغضبُ يهوذا يأكلُه، وما أن انتهى الطعام حتى كان قلب يهوذا قد تغيّر على عيسى، وإن حاول أن يوهِم نفسه أن ما يحسّ إن هو إلا غضبٌ وقتيٌّ سرعان ما ينقشع.

وهمس الناس في أورشليم أن عيسى عاد إلى بيت عنيا، إلى لعازر الذي أحياه من الموت، فدفع حب الاستطلاع الناسَ إلى الذهاب إلى هناك، ليرَوْا الشاهد الحي على عظمة النبي الجديد، فانسلوا بين التلال، وقابلوا عيسى، وآمنوا به، وبلغ الفَرِّيسِيين خروج الجماهير إلى بيت عنيا لرؤية لعازر القائم من الأموات، فتجددت مخاوفهم، فذلك الرجل يفتن الناس، فاجتمعوا إلى قيافا رئيس الكهنة يتشاورون، ولما كان الاغتيال سلاح المغلوبين، قرروا أن يقتلوه.

كان قيافا رئيس الكهنة عاجزًا عن أن يقف في وجه مناوئيه، كان كل همّه أن يُرضي السلطة الزمنية، وأن يسير في رِكابها، يشاركها آثامها وخطاياها، ويقاسمها مغانمها وأسلابها، فإذا لاح في الأفق من يعكر صفو الليالي، أفتى بقتله، وما أيسر أن يشير الجبناء باغتيال مناوئيهم.

واجتمع الناس في الهيكل يصلون: «اسمع يا إسرائيل، إلهنا إله واحد».

وما قُضيت الصلاة حتى انتشروا في الأروقة يتهامسون، لم يرفعوا أصواتهم، كان حديثهم عن عيسى الذي أقام لعازر من الأموات، وكثُر الهمس، وسرى بين الحجّاج أن عيسى هو المسيح، وراح الناس يتساءلون:

- أيَقدُم إلى الهيكل في العيد؟

- وانتشر الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون يتجسسون، وحمل الهواء إلى مسامعهم همس الناس، فتحركت مخاوفهم، إذا حضر أصغت إليه الجموع، وعجزوا عن أن يمسوه بسوء، فمن يدري، قد تهبّ في أورشليم الثورة إذا قبضوا عليه وقتلوه.

وانتشر في صدورهم قلق، وانتابتهم حيرة، أُسقِط في أيديهم فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون؟ وراحوا يتساءلون:

- أيَقدُم إلى الهيكل في العيد؟

وفي طرقات أورشليم انطلق رجلٌ طويل القامة، ناحل الجسم، به انحناءة خفيفة، أسود العينين، تغطي وجهه لحية سوداء صغيرة، من يراه يحسبه عيسى، ولكنه لم يكن عيسى، بل كان يهوذا الإسخريوطي، في طريقه إلى بيت قيافا.

كان كل شيء ظلامًا، الطريق الذي يضرب فيه، وقلبه الذي يخفق بالغضب الأعمى البغيض، وصدره الذي كان مأوًى لخفافيش إحساساته المقيتة، ساءه أن يتنكر عيسى لتعاليمه، فأصغى لشيطانه ووهب له نفسه، وهو يحسب أنه ثار لدين الله، وأنه يصيخ إلى ضميره.

واستأذن في الدخول، فأذنوا له، فإذا به في قاعة واسعة، وجاء رؤساء الكهنة، وتحلقوا حول مائدة طويلة، وراح يهوذا يتحدث، وهم يصغون إليه، في وجوههم دهش وحيرة، لا يدرون أيصدقون ما يسمعون أم يتلقونه في حذر؟ جاء يهوذا الإسخريوطي، الحواري الصدّيق، يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذي آمن به وأحبه.

-41-

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(قرآن كريم)

تنفّست المدينة المقدسة، ودبّت فيها الحياة، وخرج الحجّاج إلى الأسواق يشترون العطور والهدايا، وانتشر الجنود الرومانيون في طرقاتها الضيقة، وراح سكان أورشليم يجوّلون عند مداخل المدينة، ويشاهدون وفود حجّاج الأقاليم، كانوا يُقبِلون فرحين مستبشرين، يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء والتهليل، وإذا ما لاحت لهم قباب الهيكل، راحوا يسبحون: احمدوا الرب لأنه صالح

لأن إلى الأبـــــــــد رحمـــــــته

احمـــــــــــــدوا إلـــــــــه الآلـــــــــــــهة

لأن إلى الأبـــــــــد رحمـــــــته

احمـــــــــــــدوا رب الأربـــــــــاب

لأن إلى الأبـــــــــد رحمـــــــته

وتدفقت المواكب تصبّ في أورشليم، مبتهجة بذكرى تخليص بني إسرائيل من عذاب فرعون المهين، وأقبل ركب الجليل، الرجال بشعورهم الطويلة يهزّون أعطافهم فرحًا وهم سائرون، كانوا في تقدمهم يرقصون، والنساء محجّبات على الخيل والبغال والحمير، والأولاد يهرولون، وكانت مريم بينهم، فهي تحجّ إلى الهيكل في كل عيد، أقبلت يداعبُها أمل ملاقاة ابنها في أورشليم.

وعبقت المدينة بالبخور، ولكن ما كانت رائحته خالصة، بل كانت مشوّبة بروائح العرق وروث الخيل والبغال والحمير والأغنام التي ماج بها الهيكل، فكانت رائحة تُضيِّق الأنفاس، وتقبض الصدور.

وراح الحجّاج يتهامسون، يتحدّثون عن عيسى الذي أحيا لعازر، وقال الذين ذهبوا إليه في جنح الليل إنه اليوم إلى المعبد قادم، فخرج الحجّاج يرصدون طريقَه يدفعهم حب الاستطلاع. كانوا يبغون أن يرَوْا ذلك الذي كثُر الحديث عن آياته، خرجوا وفي أيديهم سعف النخيل، وأغصان الليمون، وكان اليوم أحد.

وأقبل ركب عيسى، كان راكبًا جحشًا وحوله حواريوه، كان مهيبًا يشع من وجهه نور الإيمان واليقين، فلما رآه الناس استولت عليهم الحماسة، فراحوا يهزون في أيديهم الأغصان وسعف النخيل، وهُرِعَ إليه بعضهم يفرشون طريقه بثيابهم، وارتفعت أصواتهم بتسابيح اقتبسوها من مزامير داود: - أوصنا (خلصنا)، مبارك الآتي باسم الرب، أوصنا في الأعالي.

وانساب الركب تحوطه الجموع الهاتفة في طرقات أورشليم، فخفّ الحجّاج ينظرون، ويتساءلون: - من هذا؟

- عيسى النبي الذي من ناصرة الجليل.

رأى الفَرِّيسِيون استقبال الناس له، فأحسّوا كمدًا، كانوا يدبّرون قتله، فإذا بالجموع تلتف حوله، فلن يستطيعوا تنفيذ خطتهم إلا بعد انصراف الحجّاج المفتونين به إلى ولاياتهم، وانطلق الركب والفَرِّيسِيون يرقبونه، ونار الحقد تأكل أفئدتهم، وغمغموا في يأس: - هو ذا العالم قد ذهب وراءه.

وهبط عيسى عن جحشه، وتقدم إلى الهيكل، فألفى الصيارفة وتجّار الحمام والعجول والأغنام قد عادوا لاحتلال أروقته، فثار غضبه، طردهم قبل ذلك مرة، وطهّر الهيكل من أدرانهم، وإذا بهم يعودون إلى ما كانوا فيه، كان همهم أن يبيعوا الذبائح للحجّاج، وأن يحقّقوا أرباحهم، أما نظافة الهيكل فلم تكن موضوعًا ذا بال.

وفي ثورته قلب موائد الصيارفة، وكراسي باعة الحمام، وأخرج العجول والأغنام وهو يصيح: - مكتوب: بيتي بيت الصلاة، فجعلتموه مغارة لصوص.

حتى في ثورته لم ينسَ طبعه، لم يكلمهم بحديثٍ من عنده، بل استشهد بما هو مكتوب في ناموسهم، كانت كل أحاديثه اقتباسًا، ومع ذلك كان لها في نفوس سامعيه وقع عجيب.

ووقف يعظ الناس، وأصوات الأطفال تتجاوب في الهيكل: - أوصنا.. أوصنا.

غاظ ذلك الترحيب رؤساء الكهنة والكَتَبَة والفَرِّيسِيين، فقالوا له في غضب: - أما تسمع ما يقول هؤلاء؟

كانوا يحرضونه على أن يزجرهم، فمن هو حتى يخلصهم؟! ولكن عيسى قال في هدوء، مقتبسًا من المزامير: - أما قرأتم قط: من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحًا.

كان ذلك اليوم نصرًا، وبدا كأنما انقشع ليل دعوته السرمد، وفود تستقبله في حماسة استقبال الغزاة الفاتحين، وجموع تصغي إليه في خشوع، والفَرِّيسِيون والكَتَبَة والأعداء يصرفون الأنياب غيظًا. أشرقت شمس دعوته، ولكن ما أقصر ذلك الشروق.

كان الناس يعيرونه آذانهم وقلوبهم مغلقة، هتافاتٍ تنطلق من الحناجر والأفئدة صامتة، وحماسةٌ تتهلل بها الوجوه ونفوسهم لا تنفعل لها. كان ترحيبهم به ترحيب جماهير، وما كان ترحيب إيمانٍ ويقين.

ولم يشأ الفَرِّيسِيون أن ينقضي اليوم وهو يتألق في نصره، فراحوا يجادلونه ويحاورونه، محاولين أن يشككوا فيه الجموع، وكانت مناظرتهم له قاسية، تقطِر بالمرارة، ففطن عيسى إلى ما تطويه صدورهم من خيانة، فعزم على أن يخرج من أورشليم، لا يقضي ليلةً بين جدرانها.

وتقدم بعض الحجّاج اليونانيين إلى تلميذه فيليبس، وقالوا له: - يا سيد نريد أن نرى عيسى.

فأمهلهم حتى يسأله، وفي جنح الليل انسل هو وحواريوه إلى جبل الزيتون، ليمضوا ليلهم بعيدًا عن أعدائه وشانئيه.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(قرآن كريم)

على جبل الزيتون، وتحت الأشجار نام الحواريون. كان الليل هادئًا، والنجوم ساهرة، والكون هاجعًا غارقًا في الكرى، وعيسى ساجدًا يصلي لله ويدعوه، وقام ونظر إلى السماء وقد بلّلت عينيه الدموع، وإذا بجبريل يهبط إليه يبلغه وحي الله:

- ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

دثّره حزنٌ عميق، كان يبغي أن يتمّ رسالة ربه، وإذا بالوحي يخبره أن أيامه علي الأرض انقضت، لم يصدقه الناس ولم يؤمنوا به، وهو ذاهب إلى ربه، تاركًا للناس حوارييه، إنهم لم يفهموه يومًا، فكيف يدعون الناس إلى الله بعد موته؟ وفكر في تلاميذه، فزاد حزنه، كان أدرى بهم من أنفسهم، سيدبّ بينهم الشقاق، ويحلّ الخصام، وتضيع بينهم تعاليمه، لو مدّ الله في أجله لثبت أركان دعوته، ولتركها واضحة لا يكتنفها غموض، كانت مدة رسالته قصيرة، لم تكن كافية ليغرس في الناس أصولَ ما يدعو إليه، حتى حواريوه لم يتمكنوا من أن يعوا كل ما يقول.

وفاض ضوء النهار على جبل الزيتون، وعيسى في إطراقه الحزين، وجاء إليه فيليبس وأندراوس وبعض حوارييه، وقالوا له:

- يطلب الحجّاج اليونانيون أن يروك.

فقال عيسى في أسى:

- أتتِ الساعة التي يتمجّد فيها ابن الإنسان، الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة في الأرض وتَمُت، فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمرٍ كثير، اضطربت نفسي، ماذا أقول؟. إلهي نجني من هذه الساعة.

وصمت قليلًا ثم قال:

- إن ارتفَعْتُ عن الأرض اجذب إليّ الجميع.

فطن تلاميذه إلى أنه ينعي إليهم نفسه، فاضطربوا وقالوا:

- سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول: ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان؟ من هو ابن الإنسان هذا؟

لم يجبهم، بل قال:

- النور معكم زمانًا يسيرًا، فسيروا ما دام لكم نور، لئلا يدرككم الظلام، من يسير في الظلام لا يدري إلى أين يذهب، ما دام لكم النور آمِنوا بالنور، لتصيروا أبناء النور.

وذهبوا إلى أورشليم، وكانت تموج بالحجّاج، ودخلوا الهيكل وقام عيسى يعظ الناس:

- كان لرجل ابنان، فجاء إلى الأول وقال له: يا بني اذهب اليوم اعمل في كرمي، فقال: لا أريد أن أذهب، ولكنه ندم وذهب، وجاء إلى الثاني وقال له: يا بني اذهب اليوم اعمل في كرمي، فقال: هأنذا ذاهب، ولم يذهب، فأي الاثنين نفذ إرادة الأب؟

- الأول.

- الحق أقول لكم إن الخطائين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله، لأن يحيى جاءكم بالحق فلم تؤمنوا به، وأما الخطاءون والزواني فقد آمنوا به، وأنتم بعدَ أن رأيتم الحقّ لم تؤمنوا به.

وساد صمت قليل، ثم قال:

- اسمعوا مثلًا آخر، غرس ربّ بيتٍ كرمًا، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبني برجًا، وسلّمه إلى كرّامين وسافر، ولما قرُب وقت الحصاد أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذَ ثماره، فأخذ الكرّامون عبيده، جلدوا بعضًا، وقتلوا بعضًا، ورجموا بعضًا، فأرسل عبيدًا آخرين، ففعلوا بهم كذلك، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟

- يُهلكهم ويسلّم الكرم إلى كرّامين آخرين، يعطونه الحصاد في أوقاته.

فاستشهد بما جاء في المزامير:

- أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناءون صار حجر الزاوية، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم، ويُعطَى لأمةٍ تعمل ثماره([28]).

وضاق الفَرِّيسِيون به ذرعًا، فالجموع تتكاثف حوله، وتهتم بأمره، وهم يبغون أن يقبضوا عليه، ويتخلّصوا منه، ولكنهم يخشَوْن الجماهير التي تنظر إليه نظرتهم إلى نبي.

واستمرّ عيسى في وعظه وضربِهِ الأمثال.

- مَثَل ملكوت السموات كمَثَل ملكٍ أقام عرسًا لابنه، وأرسل عبيده يدعون المدعوين إلى العرس، فأبَوْا أن يأتوا، فبعث إليهم عبيدًا آخرين، وقال لهم: قولوا للمدعوين إني أعددت غذائي، وذبحت العجول الحنيذة، وجهزت كل شيء، تعالوا إلى العرس، فأبَوْا وذهب واحدٌ إلى حقله، وآخر إلى تجارته، وسبّ الباقون عبيده وقتلوهم، فلما سمع الملك بذلك غضب، وأرسل جنوده وقتل أولئك القاتلين، وأحرق مدينتهم، ثم قال لعبيده، العرس قائم، وليس هناك مدعوون، اذهبوا إلى مفارق الطرق، وادعوا كل من تجدونه، فخرج العبيد وجمعوا الأشرار والصالحين، فلما دخل الملك لينظر، رأى رجلًا في غير لباس العرس، فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا؟ فسكت، فقال الملك للخُدّام: شُدّوا وَثاقه، واطرحوه في الظلمة. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، كثيرون يُدْعَون، وقليلون هم الفائزون.

كان يذكر لهم أن من يأتي ملكوت الله دون أن يرتدي ثياب التقى، يُلقى في نار جهنم، وظلّ الناس يتطلّعون إليه ينتظرون منه المزيد، فضاق صدر الفَرِّيسِيين، فابتعدوا يتناجَون ويتشاورون، يفكرون في أن يحرجوه، وبعد تفكير وتدبير، أرسلوا إليه أحد أعوان هيرودس، فقال له:

- نعلم أنك صادق، وأنك تهدي إلى طريق الله بالحق، لا تخشى في الله لومة لائم، فقل لنا: أيجوز أن نعطي جزيةً لقيصر؟

ساد المكانَ صمتٌ كصمت الرُمُوس، وأرهفت الآذان، ألقى أعداؤه حبائلهم ينتظرون أن يسقط فيها، قال:

- لماذا تختبرونني يا مراءون؟!

والتفت إلى الملأ وقال:

- أروني دينارًا.

فقدموه له، فتناوله وقال:

- لمن هذه الصورة والكتابة؟

- لقيصر.

- أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

أصابهم غم، كانوا يعلّقون آمالا على هذا السؤال، فجميع اليهود يكرهون أن يؤدوا جزية الوثنيين، فذلك دليلٌ على أنهم أصبحوا أذلة، ولم يعودوا شعب الله المختار، كان أعداؤه يحسبون أنه سيحرمهم دفع الجزية للرومان، تملقًا للجماهير، فيرفعون إلى الحكام الأقوياء نبأ ثورته على السلطان، ويوقعون بينه وبين هيرودس العداوة والبغضاء، وهيرودس سفّاكٌ للدماء، لا يغفر لِمَن يهين صديقه قيصر العظيم، ولكن إقراره بدفع الجزية نقَض غزلهم، وما أقرها

التماسًا للعافية، فما أقصر أيامه على الأرض، ولكن لأنه لم يُرسَل مُشرِّعًا، ينظم قوانين التوريث، ويحدد العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، ويسنّ القوانين، بل أُرسل بشيرًا باقتراب ملكوت الله، الذي ستكون فيه شريعة الله هي القانون السماوي السائد في دنيا الناس.

-43-

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

(قرآن كريم)

الهيكل في فحمة الليل يتلألأ بالأنوار، فيبدو كعمودٍ من نورٍ هابطٍ من السماء، وعيسى وحواريوه على سفح جبل الزيتون يتمدّدون، حتى إذا غفلت أعين المدينة، ومشى الكرى إلى جفونها، انسلّوا في خفّة إلى بيت نيقوديموس، فهو يعدّ لهم وليمة قبل حلول العيد.

كان نيقوديموس ثالث أعضاء السنهدرين، سمع عيسى لمّا وعظ في الهيكل أول مرة، فتفتح له قلبه، فذهب إليه متسترًا بالليل وقابله، وأصغى إليه، ولم ينصرف من عنده حتى صدّقه وآمن به، ولكنه لم يُعلِن إيمانه على الملأ، بل كتمه في صدره خشية الناس.

وكان عيسى، كلما وفد إلى أورشليم، يذهب لمقابلته في سواد الليل، يتناجيان ويتحدثان في الدين، حتى إذا رقّ النقاب الأسود، وفضحت الشمس أنوار السرج، جلس نيقوديموس إلى أعضاء السنهدرين يتشاورون فيما يفعلون، ليتخلصوا من ذلك الذي جاء يستلّ منهم النفوذ، فإذا ما أحكموا خطّتهم أشار عليهم بما يَدَع للرسول فرصة الإفلات مما يديرون.

أنار الضوء المنبعث من الهيكل سفح الجبل، كان عيسى وسمعان ويوحنا ويعقوب -أحب تلاميذه إلى قلبه- يتسامرون، وكان الباقون يستلقون على العشب، يتطلّعون إلى السماء، واستلقى يهوذا الإسخريوطي وحده، بعيدًا عن الجميع.

انعكس على وجهه ما كان يجري في صدره، بان فيه قلق وحيرة واضطراب، إنه غريق لا يدري ما يفعل، تتجاذبه تيّارات، تطفو به إلى السطح حينًا، ثم تغوص به إلى القرار السحيق.

الأفكار تتزاحم في رأسه، والإحساسات تتدفّق فوارة في جوفه، والشك يعذّبه ويضنيه حتى ليكاد يقف مفزوعًا يصرخ في الفضاء، معلنًا الآراء العنيفة التي تأكل صدره وتطحنه وتقسو عليه، فيئن أنينًا مكتومًا يزيد ثورة نفسه، ويمزّق قلبه كسكين.

راح يفكر في ذلك الجالس بين تلاميذه في هدوء، وأخذ يسأل نفسه: من هو؟ أجاء لسعادتنا، ليُخلّص أنفسنا من آلامها، أم ليعذّبنا ويضني أرواحنا ويلقي في صدورنا بذور الشك القاسية؟ أجاء يُخرِج بني إسرائيل من الظلام إلى

النور، ثم يقودنا نحن -تلاميذه الذين ضحينا َبكل شيء في سبيله- من النور إلى الظلام البغيض؟ من هو؟ لست أدري، فالقلق يحيرني، والشك يكاد يقتلني، أهو المسيح؟ فإن كان المسيح فأين ذلك المُلْك الدائم إلى الأبد الذي يأتي به المسيح، ها هي ذي الأيام تمرّ ولا أمل ولا بصيص من نور، إنه يلقي المواعظ ويضرب الأمثال، والجموع تُحشر زمرًا، ثم لا شيء غير الإصغاء ثم الانصراف، دون أن يَنفُذ إلى القلوب الإيمانُ والتصديق! إذا كان هو المسيح فأين ملكه؟ سألوه عن دفع الجزية لقيصر فأقرّ دفعها، فمتى يبدأ مناوأة السلطان، ويسود سلطانه على الجميع؟ انتظر.. انتظر.. عيل صبري ولم يعد في قوس الصبر مِنْزَع، تبدّدت آلامنا سدى، وذهبت آمالنا شعاعًا.

انتظر.. انتظر.. انتظر، أمَا لهذا الانتظار من آخر؟ الوثنيون يسخرون بالله وهو صامت، لماذا لا يُنْزِل عليهم كِسَفًا من السماء؟ لماذا لا يقسو في مهاجمته إلا على الكَتَبَة والفَرِّيسِيين، لماذا يدعنا في حيرة؟ يقول إنه ما جاء لينقض الناموس، بل جاء ليكمله، ثم يقول مرة أخرى إن الخمر الجديدة لا توضع في زِقاقٍ عتيقة، لست أدري ماذا يبغي بنا، إني حائرٌ.. قلق.

إذا اتفقت مواعظه مع الكَتَبَة والفَرِّيسِيين اطمأن قلبي، وإذا عارضت آراؤه آراءَهم فيا للقلق الذي يساورني، ماذا دهاني؟ تَقوَّض عشّ الأمل الذي بنيته في صدري، فصار جوفي خرابًا ينعق فيه البوم.

وأراد أن يتخلص من ذلك الكابوس، فرفع رأسه ونظر، فخيّل إليه أن الأضواء تخفت، وأن الظلام يمدّ رداءه، فيحجب كل شيء. حتى الهيكل السابح في النور، بدا لعينيه سوادًا، ففزع فقد رانت على عينيه دُكنَة قلبه.

وحاول أن يطرد الأفكار التي كانت تلحّ عليه في عناد، يريد أن يركَن إلى الهدوء، ولكن هيهات، نجوم السماء توحي إليه بأفكار، وزئير الرياح ينقلب في أذنيه اعتراضات. تآمر الكون عليه، وراح يشدّ أزر نفسه الساخطة، خيّل إليه أن الريح تصرخ، فليأتِ ملكوتك، فليأتِ ملكوتك، فأخذ يفكر في ذلك الملكوت برغمه، أين ذلك الملكوت؟ ومتى يأتي؟ نبتهل إلى الله في كل صلاة أن يبعثه، ولم يستجب الله الدعاء، لماذا لا يحدّثنا عن ذلك الملكوت؟ إن كل ما قاله عن ذلك الملكوت أنه كلام الله، لماذا يتركنا في حيرة؟ إنني قلِق.. إنني حائر، الشكّ يَخُزُّني وخزًا ما أقساه!

ورنّت في أذنه أصوات: ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، من هو ابن الإنسان هذا؟ لم يَحِرِ جوابًا، بل تحدث عن النور والظلام، والسائرون في النور والظلام، وتركَنا حيارى، من هو ابن الإنسان؟ من هو ابن الإنسان؟ لا أدري، لا أدري إلا أن القلق يقتلني، والشكّ يَخُزّ قلبي بأصبعه الباردة.

إنني غريق أستسلم لليأس، ولكن لماذا ذلك الاستسلام؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت أنا يهوذا الإسخريوطي حواري الرسول، الذي أوحى الله إليه أن آمِن

بي وبرسولي؟ فعلت فعلةً منكرة، اتفقت مع أعدائه على أن أسلّمه، أنا يهوذا الإسخريوطي يسلّم نبيه؟ لا. لن يكون ذلك، لن يسلّم يهوذا الإسخريوطي نبيه.

ما هذا القلق؟ ما هذه الحيرة؟ يا للشكّ القاسي المرير؟ أريد أن أهدأ.. أن أستريح، رأسي يكاد أن ينفجر، قلبي يتمزّق، أنفاسي تضيق، ليتني أموت، أموت وأستريح.

وقام وركع ورفع وجهه إلى السماء، وانهمرت دموعه، وأحسّ أنها تنبع من فؤاده، وقال في حرارة صادقة:

- أبانا الذي في السماء، لماذا اخترتني لهذه التجربة، أبتهل إليك أن تُنير طريقي، إني أَخبِط في الظلام، لا أدري أين أسير. إني قلق. مُعذب. مُضنى، فأعد يا رب الهدوء إلى قلبي، والصفاء إلى نفسي، واهدني سواء السبيل.

يا رب رحمتك، فلئن لم ترحمني لأكونن من الهالكين.

وخرّ ساجدًا تمتزج دموعه بالتراب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

(قرآن كريم)

الهيكل يموج بالجموع، ووقف الناس حلقات يتحدثون، الصَدُّوقِيون في ثيابهم الغالية، وفي أصابعهم الخواتم، وعلى رءوسهم العمائم على هيئة أهرام، وعلى شفاههم ابتساماتٍ ساخرة، كانوا يتحدثون عن هزيمة الفَرِّيسِيين أمام معلّم الناصرة، قال لهم: ادفعوا الجزية: ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فلم يعترضوا، لأنهم لو اعترضوا عليه لفضحوا أنفسهم، وأعلنوا على الملأ عدم ولائهم للإمبراطور، ولم يعترضوا لأن علماءهم يقولون: «قانون الدولة شريعة»، فلم يكن أمامهم إلا تجرُّع الهزيمة صامتين.

وراح الفَرِّيسِيون يتحدثون، فيبدون حيرتهم، فهم لا يدرون من هو، ولا من أين جاء؟ كلما سألوه سؤالا ليحرجوه، ردّ كيدهم إلى نحورهم، وأجابهم جوابًا مفحمًا، فلا يملكون إلا الصمت والحيرة، إنه يحفظ الناموس، ويستشهد به، وما تعلَّم في مدارس الرِبِّيين، فعِلمه عجيبٌ يحيّرهم، ولولا الكبرياء لاعترفوا أن ذلك العلم من عند الله رب العالمين.

وتحدّث الناس عنه في خيبة أمل، جاءت الفرصة ليكسب قلوبهم، ولكنه تركها تفوت، لو قال: لا يجوز أن تُدفع جزية لقيصر، لدوّت حناجرهم في الهيكل تهتف له، ولأقرّوا جميعًا بزعامته. إنهم أبناء الله، شعبه المختار، فلا يليق أن يأتوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، لو أنه شقّ عصا الطاعة لأيّدوه، فهم يريدون من يخلّصهم من قوانين الرومان، ويعيدهم إلى ناموس الله، ولكنه لم يفعل، بل ثبّت الخزي والعار: أعطوا ما لقيصر لقيصر، أهذا قولٌ يقوله رسول؟ أكان موسى يقول ذلك لو وُجِه إليه نفس السؤال؟ أين يهوذا الجليلي، الذي أنزل النسر الرومانيّ عن الهيكل، ليقود ثورتهم، بدلَ ذلك النبي الجليلي، الذي يُهادن أعداء اليهود؟

تلفت الصَدُّوقِيون إرصادًا لمَقْدَمِه، كانوا يترقبون حضوره، ليسخروا منه ومن الفَرِّيسِيين، إنه يؤمن بالبعث بعد الموت، ويشاركه في ذلك الإيمان الفَرِّيسِيون، ولكنهم ما كانوا يصدّقون أن الأموات يَحْيَون، فما أشار الناموس

إلى ذلك الموضوع. أعدّوا سؤالًا يوجّهونه إليه عن البعث، سؤالًا يَقطِر سخريةً وزراية، سيجعلونه ومن لفّ لفّهُ من الفَرِّيسِيين أضحوكة الجميع.

وأقبل عيسى، فارتسمت الابتسامات في وجوه الصَدُّوقِيين، وتريّثوا، حتى إذا قام يدعو الناس، وخفّت الجموع إليه، اقتربوا منه في خيلاء، وقالوا:

- قال موسى: إن مات امرؤ ولم يُعقِب، تزوج أخوه امرأته، لينجب لأخيه نسلًا، فإذا كان هناك سبعة إخوة، وتزوج الأول امرأة ومات عنها دون أن يُعقِب، فتزوجها الثاني فمات دون أن يُعقِب، فتزوجها الثالث فالرابع حتى تزوجت جميع الإخوة ثم ماتت، فإذا قامت القيامة، فمن من أزواجها السبعة تتزوج؟

لمعت عيون الصَدُّوقِيين سخرية، وترقَّب الفَرِّيسِيون قوله، فيا طالما أفحمهم الصَدُّوقِيون بمثل هذه الأسئلة المعقدة، فهي وإن كانت تبدو سخيفةً تافهة، إلا أنها أسئلةٌ قائمةٌ تنتظر ردًا، وأرهفت الجماهير آذانها في شغف، وتطلّعت إليه تنتظر قوله.

لم يُطرِق ليفكر، ولم تظهر في وجهه الحيرة، بل قال في هدوء:

- تضِلّون، لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، في الآخرة لا يُزوَّجون ولا يتزوَّجون، بل يهيمون كملائكة الله في السماء.

أما البعث، أفما قرأتم ما قيل لكم على لسان الله القائل: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، ليس الله إله أموات بل إله أحياء.

تذكّر الناس ما قاله الله لموسى على الجبل: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق وإله يعقوب، إنه إله هؤلاء الأنبياء الأحياء عنده، هذا مكتوبٌ في الناموس، وهذا دليلٌ على الآخرة، فإذا كانوا لم يفطنوا إليه، فليس الذنب ذنب الناموس، بل عيب عيونهم المغلقة.

وفرح الفَرِّيسِيون، فها هو ذا يسوق الدليل الذي يؤيّدهم من الناموس، وارتفعت أصواتهم بالتهليل، حتى غطت أصوات الاعتراض المنبعثة من الصَدُّوقِيين الكافرين باليوم الآخِر ودنا فَرِّيسِي منه وسأله:

- ما أعظم وصية في الناموس؟

- إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى، والثانية هي: تحب قريبك كنفسك. ليس هناك وصيةً أخرى أعظم من هاتين.

- نطقت صدقًا، لأن الله واحدٌ لا آخر سواه، ومحبته من كل القلب، ومن كل الفم، ومن كل النفس، وكل القدرة، ومحبة الغير بالنفس هي أفضل من كل

الذبائح والقرابين.

فرَنَا عيسى إلى الفَرِّيسِي في عطف، وقال له:

- لست بعيدًا عن ملكوت الله ونظر إلى الجميع وقال:

- بهاتَيْن الوصيّتين يتعلّق الناموس كله والأنبياء.

هاتان الوصيتان هما رُكنا كل دين، الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، فما جاء رسولٌ إلا ليدعو قومه إلى الله الواحد القهّار لا يشرك معه إله آخر، والدعوة إلى المحبة والخير، إلى أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

إنها الدعوة الخالدة، دعوة نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيين، ودعوة عيسى المسيح، ودعوة من جاء يبشّر به، يدعو في صلاته أن تأتي أيامه، أيام الملكوت المرتقب.

وانصرف عيسى، وجلس أمام خزانة الصدقات وحواريوه حوله، وأقبل الناس يلقون النقود، فراح الأغنياء يضعون في زهوٍ مبالغ كبيرة، وجاءت امرأة فقيرة، ووضعت في هدوء فِلْسَيْن، فالتفت إلى تلاميذه وقال:

- هذه الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة، لأن الجميع ألقوا من فُضولِهم، أما هذه فقد ألقت من عَوَزِها، ألقت كل ما عندها.

-45-

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾.

(قرآن كريم)

انطلقوا صامتين، وإن كان كل منهم مشغولًا بأفكاره، عيسى حزينٌ لتلك العداوة وذلك العناد البادي من الفَرِّيسِيين، حاربوه في اليهودية، وحاربوه في الجليل، حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه، كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدّقوه، لو أتاهم بآية من الله، لتطمئن قلوبهم، ولكنهم ما كانوا يصدّقونه ولو انفتحت في السماء أبواب، وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمون، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يُشككوا الناس فيه.

ذهب إليهم وهو يطمع في أن يؤمنوا به، قبل أن يتوفاه الله ولكنهم لجّوا في العداوة والنكران، رفضوه وبالغوا في الرفض، حتى تقطّعت خيوط الأمل، فقام يصفعهم برأيه فيهم، ويغلق خلفه الباب، كان ثائرًا كبركان، حتى إن الجماهير حدّقوا فيه مذهولين، فما كان ينفث تلك الحمم عيسى الوديع، بل يحيى الثائر قام من الأموات.

وسار حواريوه ترنّ في آذانهم كلماته فيأخذون في التفكير، فما حدث اليوم في الهيكل هو فِراق ما بينه وبينهم، لن يكون هناك مجالٌ للتوفيق، كان تقريعه للفَرِّيسِيين قاسيًا، ولولا جموع الحجّاج، لهجموا عليه وقتلوه، راح يصرخ فيهم: «ويل لكم أيها الكَتَبَة والفَرِّيسِيون المراءون»، «ويل لكم أيها القادة العميان» هَتَك رياءهم أمام الناس، وتركهم في الهيكل عظامًا نخرة.

وخرجوا مطرقين، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل، والشمس ترسل أشعتها إليه، فتنعكس ذهبًا وهاجًا، كان منظرًا يملأ النفس روعة، فأراد أن يسري عن نبيه، فقال له:

- انظر، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية!

فقال له عيسى وقد أكفهرّ وجهه:

- أترى هذه الأبنية العظيمة! ستنقض، ولن يبقى حجر على حجر.

وعضّ يهوذا على نواجذه، ورفع يده إلى شعره يجذبه في حنق، فما بال كلمات عيسى تقطِر في هذه الأيام مرارة؟ أجاء إلى بني إسرائيل بالأمل، أم جاءهم بالنقمة والعذاب؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصُبّ عليه لعنته؟ إذا

كان الفَرِّيسِيون والكَتَبَة رفضوه، فقد ثار في وجوههم وألقمهم أكثر من حجر؟ وسقط يهوذا فريسةً للشك والقلق والحيرة.

وراحوا يرقَوْن جبل الزيتون، وعلى سفحه جلسوا، عيسى في إطراقه الحزين والشمس في الغروب، والشفق أحمر، ولكن كل شيء في عينيه ليلٌ سرمد، انقضَت أيام رسالته، وما أقل الذين آمنوا به، وما أندر من فهموه.

ودنا منه بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس، وسألوه عن القيامة، ومتى هي؟ فقال لهم:

- إذا سمعتم بحروبٍ وبأخبار حروب، فلا ترتاعوا، فهذا لا بد أن يكون، ولكن ذلك ليس المنتهى، فستقوم أمةٌ على أمة، ومملكةٌ على مملكة، وتقع زلازل ومجاعاتٍ واضطرابات. هذه هي مبدأ الأوجاع.

انظروا إلى نفوسكم، سيسلّمونكم إلى المجالس، وتُجلدون في المجامع، وتُوقَفون أمام ولاةٍ وملوكٍ من أجل شهادةٍ لهم، وينبغي أن يكرز (يعظ) ببشارة الملكوت في جميع الأمم، فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به، بل تكلموا بما يوحى إليكم، لأنكم لستم المتكلمين بل الروح القدس.

فمتى نظرتم رجفة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس، فليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال، ولا ينزل مَن على السطح ليأخذ من بيته شيئًا، ولا يرجع مَن في الحقل ليأخذ ثيابه، وويلٌ للحَبَالى والمرضِعات في تلك الأيام.

إن قال لكم أحدٌ هو ذا المسيح هنا، أو هو ذا هناك فلا تصدقوه، فسيقوم مُسَحَاءُ كذبة، وأنبياء كذبة، يأتون بآياتٍ وعجائب ليضلّوا المختارين أيضًا، لو أمكن، فانتظروا، هأنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء.

تُظلِم الشمس بعد ذلك الضيق، وتُمحى آية القمر، وتهوي النجوم، وتتزعزع قوات السماء([29]) أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، علمها عند الله.

انظروا واسهروا وصلّوا، لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. اسهروا لأنكم لا تعلمون متى يأتي ربّ البيت، أمساءً أم صباحًا؟ أم يأتي بغتة فيجدكم نيامًا. ما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا.

انفعلوا جميعًا للحديث، أهو حديث وداع، أهو إنذاره الأخير، وراحوا جميعًا يفكرون، فما كان لهم إلا التفكير، وهاجت وساوس يهوذا، وثارت نفسه، ما بال عيسى يتحدث عن قيام الأبناء على الآباء، وجلد حوارييه في المجامع، ما بال بشاراته انقلبت حزنًا ورعبًا؟ أين مُلْك المسيح الذي سيدوم إلى الأبد، ومتى هو ذلك اليوم الذي تُظلِم فيه الشمس، وتتساقط من السماء النجوم؟

إنه يحسّ كأنما صار ريشة تعابثها الرياح، لماذا يعذّبهم بأحاديثه المغلفة بالغموض؟ لماذا لا ينير لهم الطريق، إنه يَخبِط في الظلام، لا يجد من يهديه.

يا رب، قليلٌ من النور، انتشر في كهف صدره ظلامٌ ثقيل، فران على البقية الباقية في قلبه من الإيمان والتصديق، الشكّ يَحُزُّه ويعذبه، أقلعت الطمأنينة، وتركته للقلق والاضطراب، ليته يستطيع أن يكفر به ويستريح.

-46-

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

(قرآن كريم)

قاعةٌ واسعةٌ مدّت فيها الموائد، وجلس حولها الكَتَبَة والفَرِّيسِيون، أعداء الأمس، وحلفاء اليوم، ألّفت بينهم المشاركة في بغض عيسى، ذلك الخطر المترجح فوق رءوسهم، سخر منهم في المَجْمَع أمام الوفود، وسخريته قاسية مريرة، أمضى من السيف.

كلماته التي ألقاها في وجههم ترنّ في آذانهم، فتُفجّر المقت في أجوافهم، وجعل دماء الحقد تتدفق فوّارة في عروقهم، كانت كلماته كجمراتٍ من نارٍ أحرقت نفوسهم، وتركت كبرياءهم رمادًا.

تقريعه لهم لا يزال يرنّ في جنبات الهيكل، وقد حُفِر في أذهان الملأ، وسيصبح قصة إذا ما انقضى العيد وعاد الناس إلى ولاياتهم، في الجليل وفي اليهودية وفي الأردن وفي مصر وفي سورية وفي بابِل وفي اليونان، سيردّدون سخريته بهم «على كرسيّ موسى جلس الكَتَبَة والفَرِّيسِيون. فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون، فهم يقولون ولا يفعلون... يعملون كل أعمالهم لوجه الناس، يعرضون عصائبهم، ويعظّمون أهداب ثيابهم.. ويل لكم أيها الكَتَبَة والفَرِّيسِيون المراءون، لأنكم تطوفون البرّ والبحر لتهدوا واحدًا، ومتى هديتموه قدتموه إلى الجحيم».

كانت سهام تهكمه فتّاكة، كفيلة بأن تهدم أمة، فلو أنهم صبروا عليه حتى يوم العيد، لقام بين الجموع يرشقهم بسهام نقدِه، ويركبهم بسخريته، فتضيع هيبتهم، ويهون على الناس أمرهم. الأرض تميد تحت أقدامهم، فإذا لم يثبّتوها بدمائه، انشقت وبلعتهم، وإنه لأيسر عليهم أن يقتلوه من أن يزول سلطانهم.

لما التأم جمعهم، راحوا يتباحثون، كان قتله رأي الجميع، ولكنهم اختلفوا في التنفيذ، إذا تركوه حتى انقضاء العيد أفسد عليهم الناس، وإذا قتلوه في العيد، فقد تثور الجموع، فالجماهير متقلبة، ترضى اليوم وتغضب غدًا، وتُبرم أمرًا وسرعان ما تَنقُضُه، وتُزهِق روحًا ثم تبكي على الشهيد، فمن يدري إذا ما قتلوه أن يُعلِن الثورة من لم يؤمنوا به!

كان الكَتَبَة والفَرِّيسِيون يتدبرون، وكان يهوذا الإسخريوطي منطلقًا بقامته الطويلة وشعره الأسود، وعينيه القلقتين في شوارع أورشليم، يكاد ينفجر من

الحنق، فقد حدث اليوم ما أشعل في نفسه الثورة، فتأججت قويةً عاتية، حتى فاقت كل ما سبقتها من ثورات.

ثار يوم سكبت مريم المجدلية قارورةً نادرةً من الطيب لتدهن بها قدميه، ولم يرشدها -وهو الرسول المتقشف- إلى طريق الخير، إلى أنها لو تصدّقت بثمنها لكان ذلك أذكي وأطيب.

وحنق لما رآه يتوعد -وهو رسول الرحمة- الهيكل المقدس، كان يهوذا يحبّ الهيكل، فهو أمل بني إسرائيل، فحرك غضبه أن يرى سيده يصبّ عليه اللعنة.

ولكن ما حدث اليوم فجّر مِرجل غضبه، وأججِ نار قلقه، فعيسى استقر في بيت عنيا، وراح يمضي يومه في بيت مريم، رَكَن إلى الهدوء ولم يخرج إلى الهيكل، يدعو الناس إلى ربه، كأنما غسل يديه من رسالته.

ليته يخرج ويثور في وجوه الجموع الجاحدة الكافرة، ليته يأتي هنا بآية، كتلك الآيات التي أتى بها في الجليل، ليته يفعل شيئًا بدل ذلك الهدوء البغيض، فيهوذا من كل قلبه يتمنى أن يقوم عيسى بعملٍ يدعّم رسالته، يمحو طبقات الشك التي تراكمت في جوفه، حتى كادت تخنق ما في فؤاده من إيمانٍ وتصديق.

ولمحه أترابه، فيهوذا من اليهود، وليس كباقي الحواريين من الجليل، فخفّوا إليه، وراحوا يسخرون من معلّمه، ومن تعاليمه، ومن الملكوت الذي يبشر به فأحسّ كأن سخريتهم خناجر تمزق قلبه، وتزيد نار غضبه اندلاعًا.

وقفزت إلى رأسه فكرة، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة، أو إذا كان قد استسلم لليأس، فسيضطره إلى العمل، سيحرض أعداءه عليه، سيرشدهم إلى مقرّه حتى يعود إلى الكفاح، فالاحتكاك بالأعداء كفيلٌ بإذكاء روح المقاومة فيه.

سيرشدهم إليه ليُخرجه من عزلته، فقد ينتصر عليهم في العيد، وتؤمن به الوفود، فيكون ذلك قبس النور الذي يبدّد الليل السرمد، ويمهد الطريق إلى مُلْك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء.

لو آمن الناس به في العيد، لانقشعت عن عيني يهوذا الغِشاوة، وتبخّر الشك القلِق الحائر الجوال في نفسه، فذلك الإيمان يحيي الأمل في إمكان تأسيس مملكة المسيح، التي جاءت بها البشارات.

وقام في نفسه اعتراض، إنه يسلّم سيده إلى أعدائه إذا أرشدهم إليه، وما كان يحبّ أن يمسّوه بسوء، إنه شك فيه، وانتابه قلق، ولكن ذلك ما كان ليدفعه إلى تسليمه.

وكان يعدل عن تلك الفكرة، ولكن ذهنه أمدّه بما يؤيده فيما ذهب إليه، إنه لو أرشدهم إلى عيسى لجدّد شباب الدعوة، فلا خوف عليه منهم، فيا طالما

حاولوا أن يمسكوه، ولكنه كان يجتاز في وسطهم كالطيف، فلن يستطيعوا أن يمسّوه بسوء.

كان يهوذا يتخبط، لا يدري حقيقة عواطفه، كان يشكّ فيقلق ويثور، وكانت تهبّ عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته، فكان قلقًا مضطربًا، كل ما يبغيه أن يُعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء.

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكَتَبَة والفَرِّيسِيون مجتمعين، وقعد بينهم يصغي إلى آرائهم، كادوا يُجمِعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجّاج إلى دورهم، ثم ينقضون عليه ويقتلوه، ولكنه قال لهم إن خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد، في مكانٍ خلاء، بعيدًا عن محبيه، وأعجبتهم الفكرة، وافقوا عليها، وخرج يهوذا، وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح الدائمة، بداية النور الذي يفضح ظلام قلبه.

-47-

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

(قرآن كريم)

جلس عيسى صامتًا مطرقًا، ولاح في وجهه حزن، وراحت مريم المجدلية ترنو إليه، فتستشعر أسًى، ولكنها ما كانت قادرة على أن تكلمه، كانت تحترم صمته، ولا تجرؤ أن تُخرجه من أفكاره، وإن كانت في قرارة نفسها تحسّ أنها أفكار حزينة، مغرقة في الحزن.

وجلس لعازر والحواريون صامتين، يترقّبون أن يقول عيسى شيئًا، فشمس عيد الفصح تدرج لتحتل كبد السماء، وأحسّ عيسى أن عيونهم مصوّبة إليه، فرفع رأسه وقال لبطرس ويوحنا:

- اذهبا وأعدا لنا الفصح([30]) لنأكل.

- أين تريد أن نعدّه؟

- إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسانٌ حاملٌ جرة ماء، اتبعاه إلى البيت حيث يدخل، وقولا لرب البيت: يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي؟ سيريكما علية كبيرة مفروشة، فأعداه هناك.

وخرج بطرس ويعقوب، وغادرا بيت عنيا، ودرجا في طرقات جبل الزيتون فلاح لهما الهيكل يتألق في الشمس كالذهب، وانطلقا إلى أورشليم، والشمس عاليةٌ في السماء، ولا ظلّ لشيءٍ على الأرض، فقد كان الوقت ظهرًا.

ولمحا رجلًا يحمل جرة ماء، وما أندر أن يحمل رجل جرة، فذلك عمل النساء، فانطلقا في أثره حتى إذا دخل بيتًا دخلاه، وحدّثا صاحبه، فإذا به صديقٌ من أصدقاء المسيح، وعرفا مكان الاجتماع، ثم ذهبا إلى الهيكل ليقدما النحائر.

أخذت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي، وقرعت طبول الهيكل الفضية إيذانًا ببدء النحر، فتدفق اليهود يسوقون ذبائحهم أمامهم، وغصّ الرواق بالإسرائيليين، ووقف على الدرج الكهنة اللاويون يقرعون الطبول، إعلانًا للمدينة المقدسة أن ذبائح الفصح تُذبح، وراح الحُجّاج يصعدون الدرج اثنين اثنين، ويقدّمون قرابينهم لتُنحر، ويتلقى كاهنٌ دماءها في فلجانة ذهبية،

وتنتقل الفلجانة من كاهن لكاهن حتى تصل إلى الكاهن الأكبر، الواقف أمام المذبح المقدس، فيلقي بالدم فيه.

وذبح بطرس ويوحنا الذبائح، وعادا إلى مكان الاجتماع يعدّان الفطير، وحملا الفصح، وانتظرا وفود المسيح وإخوانهم.

وغابت الشمس وراء جبل الزيتون، وخرج عيسى وحواريوه من بيت عنيا، وذهبوا إلى المدينة المقدسة، كانت شوارعها غاصّة بالجماهير، فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد، كانوا يُهْرَعون إليه إذا قام في الهيكل يدعوهم إلى الله، أما إذا سار بينهم ما كانوا يميّزونه من آلاف الجليليين الغادين والرائحين في المدينة.

دلفوا إلى مكان الاجتماع، فإذا موائد الفصح مُدّت، وإذا الأرائك صُفّت، فذهبوا يتكئون، فحاول كل من الحواريين أن يجلس إلى جوار المسيح، وارتفعت بينهم المشادات، كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله، فزاد ذلك الشقاق في حزنه، فحواريوه لم يفهموه، ولم تؤثر فيهم تعاليمه.

جاءته يومًا سالومي أم يعقوب ويوحنا، تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه في ملكوته، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، كانت تحسَب أن ملكوته عالمًا كائنًا فوق السحاب، فأرادت لابنيها السلطان، وما جاءته من تلقاء نفسها، بل دفعها إلى ذلك أحب حوارييه إليه، وها هم أولاء في ساعاته الأخيرة يتنافسون، كأنما يتنازعون ميراث ملكٍ أو سلطان.

وأراد أن يضع حدًا لنزاعهم، فقال لهم:

- اشتهيت أن أكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضي.

فصمتوا، وأخذوا يأكلون، ثم تناول كأسًا وقال:

- خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأني أقول لكم إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله.

وفرغوا من الطعام، وقام عيسى يغسل أيديهم([31])، فتعاظموا ذلك، وتكارهوه، وقال بطرس في إنكار:

- أنت تغسل يدي؟! أبدًا.

- لا تعلم الآن ماذا أصنع، ولكن ستفهم فيما بعد.

- لن تغسل يدي أبدًا.

- ألا من ردّ عليّ شيئًا الليلة مما أصنع فليس مني، ولا أنا منه.

فقال بطرس:

- هاك يدي ورجلي ورأسي.

فلما فرغ من ذلك، قال لهم:

- أمّا ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام، وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعضٍ نفسه، كما بذلتُ نفسي لكم.

الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبدٌ أعظم من سيده، ولا رسولٌ أعظم من مُرسِله.

الحق الحق أقول لكم: الذي يَقبل من أُرسله يَقبلني، والذي يَقبلني يَقبل الذي أرسلني.

وصمت عيسى قليلًا، ثم قال:

- أنتم الذين ثَبُتّوا معي في تجاربي، ستكونون معي في ملكوت الله. تأكلون وتشربون على مائدتي، وتجلسون على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.

اطمأن يهوذا إلى أفكاره التي احتلت رأسه، فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة، ويعده بكرسي يدين سبطًا من أسباط بني إسرائيل، فلو كانت تلك الأفكار فاجرةً شريرة، لحرمه من ملكوت الله، فقوَّى ذلك القول عزمه، فاستأذن من المسيح في أن يذهب لقضاء حاجة، فقال له عيسى:

- ما أنت فاعله فافعله سريعًا.

فخرج يهوذا وانطلق إلى الهيكل، ليخبر أعداء المسيح عن مكانه، ليخرجه من عزلته، لينفث فيه روح المقاومة والجلاد، ليجدّد شباب الدعوة، انطلق وهو يحسّ في أعماقه أن المسيح يبارك خطواته.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(قرآن كريم)

كان الحزن مخيمًا على جوّ الاجتماع الأخير، عيسى يعظهم ويحدثهم عن موته، وعن القادم بعده، وهم في حيرة لا يفهمون، راح يقول لهم:

- لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمِنوا بي، في بيت الله منازل كثيرة، قلت لكم: إني ذاهب لأعدّ لكم مكانًا، فإن مضيت وأعددّت لكم مكانًا، آتي وآخذكم إليّ، فحيث أكون تكونون، وحيث أذهب تعلمون الطريق.

فقال له توما:

- يا سيد، لا نعلم أين تذهب، فكيف نعرف الطريق؟

- أنا هو الطريق والحق والحياة، لا يأتي أحد إلى الله إلا بي. لو كنتم عرفتموني لعرفتم الله أيضًا.

قال له فيليبس:

- يا سيد أرنا الله وكفانا.

- الذي رآني فقد رأي الله، والكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، ولكن يوحيه الله إليّ.

إني ذاهب إلى الله، فإن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط)([32]) آخر يمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه، لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم.

الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل لله الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا معكم، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذي سيرسله الله، فهو يعلّمكم كل شيء، ويذكّركم بكل ما قلت لكم.

قلت لكم: أنا ذاهب ثم أعود إليكم، فلو كنتم تحبونني كنتم تفرحون، لأني ذاهب إلى الله، والله أعظم مني.

فقال له سمعان بطرس:

- يا معلم، إني مستعد أن أمضي معك إلى الموت([33]).

فنظر عيسى إليه في إشفاق، وقال له:

- أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مراتٍ أنك تعرفني.

وحدث هرجٌ في المكان، حتى في لحظاته الأخيرة يختلفون، فقال لهم:

- قوموا ننطلق من ههنا.

فقاموا وخرجوا إلى المدينة المحتفلة بالعيد، كان القمر يرسل أشعته الفضية، فيكسي المدينة العتيقة ثوبًا قشيبًا، وتلألأ الهيكل في الفضاء مزهوًا، وساروا حتى إذا بلغوا جبل الزيتون، راحوا يصلّون خاشعين، ويبتهلون إلى الله:

أحببت، لأن الله يسمع تضرعاتي،

لأنه أمال أذنه إليّ،

فأدعوه مدة حياتي،

اكتنفتني حبال الموت،

أصابتني شدائد الهاوية.

كابدت ضيقًا وحزنًا.

وباسم الرب دعوت.

آه يا رب. نجّ نفسي.

وجلسوا على سفح الجبل، وراح يوصيهم:

- هذه وصيتي، أن يحبّ بعضكم بعضًا، كما أحببتكم. ليس هناك حبٌ أعظم من أن يضع المرء نفسه لأجل أحبائه، أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به. بلّغتكم كل ما أوحى الله إليّ، أوصيكم أن يحب بعضكم بعضًا.

اذكروا الكلام الذي قلته لكم، ليس عبدٌ أعظم من سيده، إن كانوا قد اضطهدوا فسيضطهدونكم، وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم، ولكنهم يضطهدونكم من أجلي، لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني.

لو لم أكن قد جئت ودعوتُكم إلى الله، ما كانت لهم خطيّة، أما الآن فلا عذر لهم، الذي يبغضني يبغض الله، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطيّة، أما الآن فقد رأوا آيات ربي، وكفروا بالله ورسوله.

ومتى جاء (الفراقليط) الذي سيرسله الله، روح الحق الذي من عند الله ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضًا، لأنكم معي من الابتداء([34]).

قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا، سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله([35])، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفوني، كلّمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أني قلت لكم، ولم أقل لكم من البداية لأني كنت معكم.

أما الآن، فإني ماضٍ إلى الذي أرسلني، ولا يسألني أحدٌ منكم أين تمضي، ملأ الحزن قلوبكم، لأني قلت لكم هذا ولكن أقول لكم: إنه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأني إن لم أنطلق لا يأتيكم (الفراقليط): ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، لي أمورٌ كثيرة لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمعه يتكلم به([36]).

بعد قليلٍ لا تبصرونني، ثم بعد قليلٍ أيضًا ترونني، لأني ذاهب إلى الله. فراح تلاميذه يتهامسون:

- ما هو هذا الذي يقول لنا، بعد قليلٍ لا تبصرونني، ثم بعد قليلٍ أيضًا ترونني، لأنني ذاهب إلى الله؟ ما هو هذا القليل الذي يقول عنه، لسنا نعلم بماذا يتكلم؟

وفطن المسيح إلى حيرتهم، فقال لهم:

- أعن هذا تتساءلون في ما بينكم، لأني قلت: بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضًا ترونني؟ الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون، والعالم يفرح. ثم أنتم ستفرحون، سيتحول حزنكم إلى فرح.

لم يفهموا مرمى حديثه، سيفرح الناس لمّا يرون على الصليب رجلًا يحسبونه المسيح، وسيحزنون هم ويبكون، ولكن حينما يعرفون أن الذي صلب كان غيره، سيتحول حزنهم إلى فرحٍ شديد.

واستأنف حديثه، وقال لهم فيما قال:

- هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت، الآن تتفرقون، كل واحدٍ إلى خاصته وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي لأن الله معي، قد كلمتكم بهذا، ليكون لكم سلام، سيكون لكم ضيق في العالم، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.

رفع عيسى عينيه إلى السماء وقال:

- يا رب، قد أتت الساعة، كتبتَ عليّ أن أشرب هذه الكأس، فلتكن مشيئتك.

يا رب! هذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، وعيسى المسيح الذي أرسلته([37]).

الآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك، لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم، وهم قَبِلوا وعلموا يقينًا أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت الذي أرسلتني. يا رب، لم يعرفك العالم أمّا أنا فقد عرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني.

ولفّ الحزن جبل الزيتون بغلالةٍ سوداء، لم يقوَ ضوء القمر أن يفضحها، فقام عيسى وسار صوب وادي قدرون، وسار تلاميذه مطرقين صامتين وصوته يرن في آذانهم:

- أنا قد غلبت العالم.

-49-

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

(قرآن كريم)

«وتآمر الرؤساء معًا على الرب وعلى مسيحه، قائلين: «لنقطع قيودهما، ولنطرح عنا ربطهما». الساكن في السماوات يضحك. الرب يستهزئ بهم»

مزامير (2 : 2-4)

أشجار الزيتون الضخمة تحجب ضوء القمر عن وادي قدرون، فيلف المكان ظلامٌ دامس، والسكون عميقٌ يبعث في النفوس رهبة، وعيسى وحواريوه ينسابون كأطياف، وإن كانت خطواتهم ثقيلة حزينة، فعيسى يحسّ أن أيامه على الأرض انقضت، بعد أن أوحى الله إليه أنه متوفيه ورافعه إليه، والحواريون يستعيدون أقواله ويفكرون فيها، ويمعنون في الفكر، فلا يهتدون إلى شيء. «خرجت من عند الله، وأيضًا أترك العالم وأذهب إلى الله»، «أنا معكم زمانًا يسيرًا، ثم أمضي إلى الذي أرسلني، ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» ماذا يقصد بهذا؟ وكيف لا يستطيعون أن يذهبوا حيث يكون هو؟ وكيف يذهب إلى الله؟ أقوال غامضة لم تقدر عقولهم على كشفها.

وابتعدوا عن أسوار المدينة العتيقة، وهم يفكرون في أقواله: «كلكم تشكّون فيّ هذه الليلة» كيف يشكّون فيه وقد آمنوا به وصدقوه، إن إيمانهم به عميق، فهم يؤمنون أنه رسول الله، فلن يشكّوا فيه أبدًا.

ودخلوا ضيعة جشيماني، وكانت ليوسف الرامي، وهو صديق من أصدقائه، وكان ينفرد فيها بحوارييه كلما جاءوا إلى أورشليم. كان القمر يرسل أشعته. فيبدو العشب أخضر زاهيًا، والضوء يتخلل أشجار الزيتون، فتتبعثر في ظلها دنانير فضية، كانت ليلة رائعة ولولا الحزن المنبعث في أجوافهم، والرهبة المسيطرة عليهم، لكانت ليلةً موحيةً بالأفكار والأمثال.

والتفت إلى حوارييه، وقال بصوتٍ حزين:

- اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك.

وانطلق وأخذ معه بطرس وابني زَبَدِي يعقوب ويوحنا، حتى إذا ابتعد عن باقي حوارييه، ظهر في وجهه الأسى، وجزع من الموت، فالتفت إلى أحب

تلاميذه إليه وقال:

- نفسي حزينة حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي.

وجلس بطرس ويعقوب ويوحنا، وتقدم خطواتٍ ليصلي لله، وما مسّت أجسام أحب حوارييه إليه الأرض حتى راحوا في سبات.

وخرّ عيسى ساجدًا، وراح يدعو الله:

- إلهي، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت.

وظل في صلاته وابتهالاته ودمعه سَرُوب، ثم قام وذهب إلى تلاميذه الذين دعاهم ليسهروا معه، فألفاهم نيامًا، فجعل يوقظهم ويقول:

- سبحان الله، أما تصبرون لي ليلة واحدة، اسهروا وصلوا، أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف.

وجلس معهم قليلًا، فأحسّ رغبة في الصلاة، فقام وتركهم، وما خلا بنفسه يدعو الله حتى عادوا للنوم.

وخرّ ساجدًا، وراح يدعو الله:

- إلهي: كُتب على أن أشرب هذه الكأس، فلتكن مشيئتك.

واستمرّ في دعائه، ثم جاءهم فوجدهم نيامًا، فأيقظهم، فقالوا له:

- والله ما ندري ما لنا، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه. فقال في أسى:

- يذهب الراعي، وتتفرق الغنم.

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه حتى ثقلت جفونهم فناموا، وظل في خشوعه، فأرهفت حواسه، ومسّ أذنيه صوتٌ خافتٌ أخذ يتّضح، إنه وقع أقدامٍ مقتربة، فقام ينظر فإذا أضواءٌ ومصابيح ومشاعل، وغمر الضوء المكان، فهبّ الحواريون مرعوبين.

وتقدم الجنود الرومانيون، يحملون سيوفهم، وحولهم خُدّامٌ من عند رؤساء الكهنة والفَرِّيسِيين، فتقدم المسيح منهم، وقال لهم:

- من تطلبون؟

- عيسى الناصري.

لم يكونوا يعرفونه، أُرسلوا ليقبضوا على رجلٍ لم يروه قبل ليلتهم، فقال لهم عيسى:

- إني أنا هو.

فخفق قلب يهوذا في جوفه، ترى أيقبضون عليه، وينقضي مُلك المسيح، ويظل هو في شكّه وقلقه، أم يمرّ من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادي، ويخرج من استسلامه ويأسه، ويستأنف جهاده وكفاحه، وفي ذلك تجديد شباب الدعوة، التي لم تتفتح براعمها؟!

رجع الجنود إلى الوراء، وسقطوا على الأرض، فانشرح صدر يهوذا، إنه يحس في تلك اللحظة ذلك الظلام الذي تجمع في صدره ينقشع، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها.

نظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون، وقال لهم في تحد:

- من تطلبون؟

- عيسى الناصري.

- قلت لكم إني أنا هو، فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون.

وشهر بطرس سيفًا، وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه، فقال لبطرس:

- اجعل سيفك في غمده.

فوضع بطرس السيف في قِرابه، واتسعت عيون التلاميذ رعبًا، فقال لهم عيسى:

- اذهبوا.

فانطلقوا فرارًا لا يلوون على شيء، وتركوا رسولهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، تحت أشجار الزيتون يحيط به جنودٌ رومانيون غلاظ، مدججون بالسلاح، وبقي يهوذا يترقَّب، خافق القلب مرعوبًا، فلو أن الرومانيين ألقوا القبض على عيسى، لقتل يهوذا الشك والقلق.

وتقدم عيسى خطواتٍ، فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض، وانطلق عيسى من بينهم دون أن يروه، وذهب ليختفي، ويتحقق قوله لتلاميذه: «بعد قليلٍ لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضًا ترونني».

أحسّ يهوذا نورًا ينسكب في جوفه، وهزّته موجة من الفرح، عاد إلى الحواري الذي أوحى الله إليه أن آمِن بي وبرسولي إيمانه الكامل، وغُسلت روحه، وتخلصت من شوائب الشك، كما يتخلص الثوب من أدرانه إذا غسل بالماء.

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين، ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفًا في الظلام وحده، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى، وأراد أن يقاومهم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه، ولكنهم انهالوا عليه بالسباب، وأوسعوه ضربًا، ثم شدّوا وثاقه، فتيقن أن الله أنزل به ذلك البلاء، ليجازيه على شكّه الذي

نبت في جوفه، بعد أن أوحى إليه الإيمان، فلزم الصمت، وعزم على ألا ينبِس بكلمة، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر، ويستحق أن يجلس مع المسيح في مملكة الله، ويدين أسباط إسرائيل الاثني عشر، كما قال المسيح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.
(قرآن كريم)

أضواء المشاعل تتراقص، فالهواء يعبث بها، فتضطّرب الأنوار الساقطة على الوجوه، فتبدو السحن غريبة، وأصدر قائد الجنود أوامره بالسير فساروا ويهوذا في وسطهم بقامته الطويلة، مطرقًا، كل من يراه يحسبه عيسى، وسار على البعد بطرس يرصد ما يفعلونه بِمَن حَسِبَه سيده، الذي تركه أحب الناس إليه في أيدي أعدائه، وولّوا فرارًا.

غادروا الضيعة، وانطلقوا في وادي قدرون، لا يُسمع إلا وقع أقدامهم، وقد استسلم يهوذا لقضاء الله، ولم يرتجف ولم يحزن، بل لفّته طمأنينة، بعد انقشاع ضباب الشكّ الذي تلبد حول إيمانه وتصديقه.

سيصبر يهوذا([38]) حتى الموت، ليكفّر عن الوساوس التي نبتت حينًا في جوفه، فما كان له أن يتزعزع، وقد شرح الله صدره للإيمان، استكان لضعفه، وترك الشيطان يمسّه، فحُقّ عليه أن يتحمل العذاب ليتطهر، ويستحق أن يجلس مع المسيح في مملكة الله، ورنّ في أذنيه قول المسيح: «الحق أقول لكم: أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسيّ مجده، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًا، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» فأحسّ يهوذا كأن قوةً علويةً تثبته، فهو أحد الاثني عشر الموعودين المبشرين بالمجد والعظمة، وما كان لمثله أن يتردى في الظلام.

مسّه طائف من الشيطان، ولمّا كان من المؤمنين تذكر، فانجابت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو مبصر، فقرّر أن يتحمّل عن سيّده العذاب والاضطهاد.

كان الليل قد انتصف، وكانت المدينة المقدسة غارقة في ضوء القمر، وأنوار الهيكل تنفذ من الكوّات كإشعاعات قطعة من الماس، والجنود الرومانيون ويهوذا يدرجون في طرقات أورشليم التي سادها الصمت العميق.

ودلفوا إلى الهيكل، وساروا إلى بيت رئيس الكهنة، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول، وأقبل بطرس الذي كان على البعد يقتفي آثارهم، وأراد أن يدخل، فرمته المرأة بنظرة فاحصة، ثم قالت: - ألست أنت أيضًا من تلاميذ هذا الإنسان؟

فاضطرب بطرس وقال:

- لا لست من تلاميذه.

ساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة، تضيئها المشاعل، وقد جلس في نصف دائرة فَرِّيسِيون وكَتَبَة، ورأس الاجتماع شيخٌ كبير، أبيض الشعر، هو حَنَّان، صِهر رئيس الكهنة قيافا، وساد الاجتماع قلقٌ، كانوا يخشون في أعماقهم أن يَنزل عليهم غضبٌ من السماء، وإن أخفوا ذلك وتظاهروا بالعبوس والتقطيب.

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعًا، وأن يصدروا حكمهم بموته، ثم يفرّوا من ذلك القلق الساري في المكان، فقال له حَنَّان: - من هم تلاميذك؟ وما هي تعاليمك؟

فصمت يهوذا ولم يَحِر جوابًا، فصاح به حَنَّان: - تكلم.

ولكن يهوذا لم يحرّك ساكنًا، فتقدّم أحد الخدم، ولطم يهوذا لطمةً قوية، وقال له: - جاوب رئيس الكهنة.

وبقي يهوذا ساكنًا لا يَنبِس بكلمة، وراح حَنَّان يُلقي عليه أسئلته، ويهوذا غارق في الصمت.

ودخل بطرس إلى الردهة الطويلة، كانت الليلة شديدة البرودة، فأوقد الجنود الرومانيون نارًا يصطلونها، فاقترب بطرس من النار، ووقف ينعم بالدفء، إذ وقف هناك في القاعة القريبة مِن مَن يَحسَبُه سيده، يحاكم أمام أعدائه، ويحاسب حسابًا عسيرًا.

ورنا أحد الجنود إلى بطرس مليًا، إنه هو ذلك التلميذ الذي رفع سيفه، وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة، فاقترب منه، وقال له: - ألست أنت أيضًا من تلاميذه؟

فاضطرب بطرس وقال:

- لا لست من تلاميذه.

واقترب منه خادمٌ من خُدّام رئيس الكهنة، وقال له: - لا. إني لا أعرفه.

- ألم أركَ معه في البستان؟

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التي كانوا يذكونها، فانسلّ هاربًا، مغادرًا الهيكل، لينجو بنفسه.

لم يتكلم يهوذا، فضاق به حَنَّان ذرعًا، وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهنوت، ليرى رأيه فيه، فانطلقوا به في جوف الليل، حتى إذا وقف أمام قيافا، ظلّ في صمته العميق.

كان قيافا يرى أنه خيرٌ للأمة أن يموت واحدٌ من أن تقوم بسببه حربٌ أهليةٌ بين بني إسرائيل، كانت غايته أن يقتله ويستريح، فراح يسأله وهو مطرق،

مستمسك بالصمت، فأحسّ ضيقًا، وأراد أن ينتهي منه، فأرسل يستدعي -وهو رئيس الكهنوت- شهود زورٍ يشهدون عليه، فلم يجد، وأخيرًا أقبل شاهدان وقالا: - هذا قال إني أقدر أنْ أنقض هيكل الله، وفي ثلاثة أيام أبنيه.

فقال له قيافا:

- أما تجيب بشيء؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك.

لو كان المقبوض عليه عيسى، لقال إنه قال ذلك، فما كان لنبيٍ أن يَكفُر بأقواله، ولكنه كان يهوذا، لم يشأ أن يكذب في لحظاته الأخيرة، فظلّ ساكتًا لا ينطق بكلمة، نفد صبر رئيس الكهنة، فقال له: - أستحلفك بالله أن تقول لنا: هل أنت المسيح؟

لم يشأ يهوذا أن يكذب، فقال له:

- أنت تقول ذلك.

ثم صمت قليلًا وقال في حماسة من يؤمن بكل كلمة ينطق بها.

- من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسًا على يمين القوة، وآتيًا على سحاب السماء.

فمزّق الكهنة ثيابه، فما أضاء ذلك القول شيئًا، إنه قول يقوله أي مؤمن بالمسيح، وأراد قيافا أن ينهي هذه المحاكمة، فقال: - لقد كفر فما حاجتنا إلى شهود، ها قد سمعتم كفره.

والتفت إلى الفَرِّيسِيين والكَتَبَة والصَدُّوقِيين، وقال لهم: - ماذا ترون فيه؟

وهل كان يرى أعداء المسيح غير موته، فقالوا: - إنه مستوجب الموت.

حكموا على يهوذا بالقتل، وهم يحسبون أنه المسيح، ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين، وابتسموا في راحة، ولكن «الساكن في السماء يضحك، الرب يستهزئ بهم».

وانقضى الليل، وصاح الديك، فتذكر بطرس قول عيسى له: إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك، فهام على وجهه يبكي وينتحب. حتى كادت كبده تتصدع من البكاء.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾([39]).

(قرآن كريم)

خرج إلى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل، فقام إليه الخدم والجنود يبصقون في وجهه، ويلطمونه ويصفعونه، ويركلونه، ويسدّدون اللّكمات إلى وجهه، ويضحكون مستهزئين، ويهوذا يتحمّل إهاناتهم في صبرٍ عجيب، كان يخفّف من آلامه أنه يتلقى الاضطهاد عن سيده الذي هداه إلى النور.

وساقوه إلى غرفةٍ يحبسونه حتى طلوع النهار، وانعقاد السنهدرين، فما كانت تجري المحاكمات القانونية إلا في وضح النهار، وأدخلوه ودخلوا وأغلقوا الباب خلفهم، وأخذوا يصفعونه ساخرين، ثم قفزت إلى أذهانهم فكرةٌ يقطعون بها الوقت حتى طلوع النهار، فحجبوا عينيه، وتقدّم إليه واحد منهم، ولطمه، وقالوا هازئين:

- تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟

وجلجلت ضحكاتهم المقيتة تمزّق السكون، واستمروا في عبثهم وقسوتهم، ويهوذا صابر، فمهما اشتدت آلام الجسد، فهي أهون من عذاب الروح.

وانقضى الليل، وأشرقت الشمس، وانعقد السنهدرين، من الفَرِّيسِيين الذين هتك المسيح رياءهم، ومن الصَدُّوقِيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين، ورأس المجتمعين قيافا، رئيس الكهنة المتظاهرين بالتقوى، الضالع مع الهيروديين في الفسق والفساد، وكان بينهم نيقوديموس، ثالث أعضاء المجلس، الذي آمن بعيسى وأخفى إيمانه.

كان نيقوديموس مضطربًا لا يقوى على أن يرفع عينيه، كان يفكر في إنقاذ من آمن به، وكان يخشى أن تفضحه خفقات قلبه، لذلك راح يعبث بأصابعه، يحاول أن يواري ما به.

وجيء بيهوذا، ومَثُل أمام أعضاء السنهدرين، وقد غير الاضطهاد هيئته، وما وقعت عينا نيقوديموس عليه حتى أحسّ يدًا تعصر قلبه، وانقبض، كانت آثار التعذيب قاسية، فاستشعر كأن خنجرًا يحزّ فؤاده، وطأطأ بصره حتى لا تظهر على وجهه انفعالات نفسه وقال له قيافا:

- إن كنت المسيح فقل لنا.

ماذا يقول لهم يهوذا؟ إذا قال لهم إنه المسيح كَذَب، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه، فقال هم في سخرية:

- إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني.

وصمت قليلًا، وحسب أن الله رفع عيسى، فقال:

- منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله.

- فصاح قيافا:

- ما حاجتنا إلى شهود، سمعنا اعترافه.

وأمر بإخراجه، وراح أعضاء السنهدرين يتشاورون، ولم يقل شيئًا يستحقّ عليه القتل، لم يدَّعِ الألوهية، فلو أنه ادَّعاها لما كانوا في حاجة إلى التفكير في تهمةٍ تغيّر صدر بيلاطس عليه، إنهم يريدون أن يتخلصوا منه ومن تأليب الشعب عليهم. هذه هي المسألة.

وفكروا فيما يتهمونه به، إنه عمل في السبت وخرق الناموس وهذا يستوجب القتل، ولكنه أثبت في كل مرة أنه كان يعمل الخير في السبت، وأفحمهم وألقمهم أكثر من حجر، واتهموه أنه ادَّعى أنه إله، فأثبت لهم أنه استعار التشبيه من مزامير داود، وأنه لم يقصد به الألوهية، بل الاختيار والاصطفاء، كان هدفهم قتله، فليقولوا لبيلاطس أنه يدعو الناس إلى الثورة، وإلى الامتناع عن دفع الجزية، فلو أنهم رفعوا إليه ذلك لوافق على قتله.

خرج يهوذا إلى الجنود الغلاظ، فعادوا يبصقون في وجهه، ويسبونه، ويصفعونه ويلطمونه، وانضم إليهم بعض الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين ينتقمون لسهام السخرية المريرة التي رشقها عيسى في أبدانهم.

وقام رؤساء السنهدرين، وانطلقوا إلى قصر بيلاطس الهائل، وكان قريبًا من الهيكل، ويهوذا مشدودٌ وثاقه، وحوله الجنود الرومانيون، ودلفوا إلى القصر العظيم، واستأذن قيافا رئيس الكهنوت في الدخول على الحاكم، فلما أذن له، قال:

- جئنا بعيسى، ذلك الذي أضلّ كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة، من الجليل حتى أورشليم، ولم يكتفِ بدعواه، بل راح يُفسد الأمّة، ويحرّض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر، زاعمًا أنه المسيح ملك اليهود، كان بيلاطس يحبّ عيسى، سمع بآياته وتعاليمه، فمال إليه قلبه، وإن كتم ذلك عمّن حوله، فطلب أن يُدخلوه، فلما دخل يهوذا انفرد به، وقال له:

- سلَّمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يديّ، فقل الحق لأقيم العدل، لأني قادرٌ على أن أُطلقك، وقادرٌ على الأمر بقتلك.

فقال يهوذا:

- إذا أمرت بقتلي ترتكب ظلمًا كبيرًا، لأنك تقتل بريئًا.

واستمرّ بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، وقال:

- أية شكاية تقدّمونها على هذا الإنسان؟

- لو لم يكن خطيرًا ما دفعنا به إليك.

وراحوا يكيلون إليه التهم، ويهوذا صامتٌ لا ينبس بكلمة حتى تعجب. كانت اتهاماتهم تقطر عداوة، وإن كانت بعيدة عن الحق، فلم يجد فيها بيلاطس الوالي، ما يستوجب القتل.

لم يطمئن ضمير بيلاطس إلى تأييد حكم السنهدرين، فطِن إلى أنهم يريدون قتله غيرةً منه، كانوا مُرائين، ففضحهم أمام الشعب الغافل، ولو تركوه يسعى في الأرض لفضّ الناس من حولهم.

وفطِن رؤساء الكهنة أن بيلاطس يفكر في إطلاقه، فقالوا له:

- إذا تركت هذا الجليلي فلست محبًا لقيصر، كل من يدعو نفسه ملكًا يقاوم قيصر.

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلي، قفزت إلى رأسه فكرة، فقال:

- هل الرجل جليلي؟

- نعم.

- أرسلوه إلى هيرودس([40])، فهو من رعاياه، ليرى فيه رأيه.

وخرج الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون، وانطلقوا إلى هيرودس، فقد كان في أورشليم في العيد، وتنفّس بيلاطس الصعداء، حسب أنه استراح من الحكم في هذه القضية، التي لا يستريح ضميره إذا بتّ فيها بما يرضي أعضاء السنهدرين وشيوخ إسرائيل، الواغلين في العداوة والبغضاء.

-52-

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

(قرآن كريم)

خرجت الشمس من أكمامها، وأرسلت أشعتها إلى أورشليم التي لم تغمض لها عينٌ طوال الليل، كان أهلها يحتفلون بالعيد، ورجال الدين فيها من فَرِّيسِيين وصَدُّوقِيين وناموسيين يحيكون مؤامراتهم، ليقتلوا عدوّهم، مكروا ومكر الله، ففرّ عيسى من أعدائه، وسقط يهوذا في أيديهم، ليطهّر الاضطهاد نفسه من أدران الشك التي رسبت في جوفه، فما كان له أن يشكّ بعد أن شرح الله صدره للإيمان، وليتحقق قول المسيح: «كلكم تشكون في هذه الليلة».

شبه([41]) لهم، فلم يعرفوه، وراحوا يحاكمونه وهو صامت، إذا تكلّم يكشف سيده أو ينطق كذبًا، فلاذ بالسكوت، فما كان له أن يكذب وهو في تطهيره، ليتحقّق وعد المسيح له بأنه من تلاميذه الذين سيجلسون معه في ملك الله.

سار رجال السنهدرين وجنود الرومانيين ويهوذا بينهم، ولمحته الجماهير التي كانت تخفّ إليه، فأسرع الرجال والنساء يسبّونه، ويبصقون في وجهه، ويؤذونه وهو مطرقٌ ساكن، وارتفع صوت يقول:

- إنه رجل صالح، لا يستحق هذا.

فزمجرت الأصوات، وارتفعت الاعتراضات:

- إنه أضلّنا، لو كان نبيًا لأيّد رسالته بالآيات.

وافق على أن تُدفع الجزية لقيصر، وما كان لنبيٍ أن يُرشد قومه إلى وضع نير الرق في أعناقهم.

- أين هذا الذي يدّعي النبوة من يهوذا الجليلي، الذي ثار ليحرّرنا من الرومانيين، فما كان لأبناءِ الله أن يكونوا تحت حكم الوثنيين عبدة الأوثان.

- يا قوم إنه رجلٌ صالحٌ يدعو إلى الله.

وثار في وجهه الناس، فصمت وانسلّ بعيدًا، قبل أن يبطِشوا به.

وبلغ رجال السنهدرين قصر هيرودس أنتيباس، كان الجنود الرومانيون يغدون ويروحون أمامه وفي أيديهم الرماح، كانوا يقومون بالحراسة، فوالي الجليل وَفَد إلى أورشليم في العيد، يقدّم القرابين إلى الهيكل إرضاءً لرعاياه

اليهود. فهو حريصٌ على أن يظهر أمامهم في مسوح الرهبان، وإن كانوا يتهامسون بأحاديث الليالي الصاخبة التي يقضيها في قلعة ماكيروس.

جلس هيرودس يستقبل الصباح، وأرخى لخياله العنان، سمع وهو في أورشليم بالعداوة القائمة بين نبي الناصرة ورجال الدين، فتحرّكت مخاوفه، فأوهامه تلحّ عليه أن ذلك النبي ما هو إلا يحيى، قام من الأموات يثأر لقومه، إن شبح يحيى يطارده ويؤرقه ويصرخ به في سكون الليل، فيطير من عينيه الرقاد، بلغ سمعه همس الناس أن الله نصر جيوش الحارث والد زوجته التي فرت منه لما تزوج من هيروديا، على جيوشه، انتقامًا لدماء نبيه الزكية. فزاد ذلك في مخاوفه، وبات في قلقه يترقّب ساعة الانتقام.

ودخل عليه حاجبه، وقال له إن رؤساء السنهدرين يلتمسون مقابلته، فأذِن لهم بالدخول، وهو يَعجَب، فما كانوا يَفِدون إليه في العيد، فطالما جاء قبل ذلك حاجًا إلى أورشليم، ولطالما ساق أمامه الهدي، وذبحه في المذبح قربانًا إلى يهوه إله إسرائيل، ولم يخِفّوا لاستقباله، وإن كانوا يسارعون إلى بيلاطس ممثل الرومانيين.

أقبل قيافا ورئيس الصَدُّوقِيين ورئيس الفَرِّيسِيين، وقالوا:

- جاء من الجليل من يزعم أنه نبي، وراح يفسد الناس، ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر، وقد حاكمه السنهدرين، وأصدر حكمه بقتله، ولمّا كان من رعاياكم، فقد أرسلنا الوالي إليكم.

خفق قلب هيرودس، كان يطمع في أن يرى عيسى، ليقضي على وساوسه التي تقلقه، ولكنّ عيسى رفض أن يذهب إلى ذلك الثعلب في قصره، وها هي ذي الفرصة قد سنحت ليراه ويحدّثه، ويطلب منه أن يأتي بآية من آياته، وإنها لتسلية في العيد، أن يشاهد هيرودس الآيات!

وجيء بيهوذا مشدودًا وثاقه، فرماه هيرودس بنظرة سريعة فاحصة، فسكنت الطمأنينة قلبه، لم تكن في وجهه صرامة يحيى، فملامحه لا توحي بما كانت توحي به ملامح النبي الخشن من رهبة، كانت نظرة يحيى تزلزل هيرودس، وتذيب جبروته.

وقف يهوذا خافض الرأس، وإن كانت السكينة تعشّش في فؤاده، وهيرودس يديم إليه النظر، ويصغي إلى الفَرِّيسِيين والصَدُّوقِيين الذين كانت الاتهامات تتدفق من أفواههم تَقطِر عداوةً ومقتًا. وقال هيرودس للماثل أمامه:

- ما تقول أنت؟

لم يَحِر يهوذا جوابًا، وسلّم أمره لله، وترقّب قضاء الله في صبرٍ عجيب، فقد أُضيء أمامه الطريق، ووضح السبيل.

قال له هيرودس:

- زعمت أنك رسول الله، فإن أردت أن يصدّقوك فأتِ بآية إنا منتظرون، لم يفتح يهوذا فمه، ولم ينطق حرفًا، وانقشعت مخاوف هيرودس، وعاد إلى طبعه، فراح يسخر من يهوذا، وبعث إلى رجال بلاطه يشاركونه في الزراية بالرجل، والتهكّم عليه، فقد وجدوا فيه مادةً لعبثهم البغيض.

وصاح صائح:

- إنه مجنون.

وجلجلت ضحكات الزراية والاستخفاف، وأراد هيرودس أن يُرَفِّه عن بلاطه في العيد، فأمر بإلباس الرجل ثياب المجانين.

- أخذ الجنود يهوذا، يصفعونه ويلطمونه ويخزُّونه بأطراف حرابهم، وهيرودس ورجاله يقهقهون، كأنما سُلِب منهم كل شعور، حتى رجال الدين، أعضاء السنهدرين شاركوهم في الهَذَر المقيت.

وجيء بيهوذا وقد أُلبِس ثوبًا أبيض لامعًا، فرنَّت قهقهات العابثين، وتطايرت في القصر ألفاظ الاستخفاف والمجون، وارتسمت ابتساماتٌ عريضةٌ في وجوه الفَرِّيسِيين المتزمتين، ولم يروا فيما يجري أمامهم في العيد خرقًا لناموس، يستأهل العبوس والتقطيب.

أين عيسى ليسخر من ريائهم، ويمرّغ كبريائهم في الأوحال أمام ذلك الوالي الغليظ القلب؟ أين عيسى ليصفعهم بقوارعه، ويجعلهم ينكمشون في الأركان؟ أين ذلك الذي دمغهم بالعار على مرّ الزمان؟ إنه لم يكن هناك في ذلك القصر العابث، بل كان هناك يهوذا الغارق في صمته، التائب من ذنبه، يتحمّل ذلك الاضطهاد، ليتم له التطهير.

كانت الجفوة قائمة بين بيلاطس وهيرودس، كان كل منهما ينتظر عقب أن عُيِّن حاكمًا على ولايته، أن يبدأ صاحبه بزيارته، ولكن لمّا لَم تتم تلك الزَوْرة تغيّرت النفوس، ولكن بدا اليوم انجياب تلك السحابة، أرسل بيلاطس إلى هيرودس ذلك الجليلي، ليرى أمره فيه، فرأى هيرودس أن يردّ له مجاملته، بأن يعيد له الرجل يتصرّف فيه، فأمر أعضاء السنهدرين أن يعودوا إلى بيلاطس، وكتب له:

- أقِم العدل في بيت إسرائيل.

-53-

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

(قرآن كريم)

كانت كلوديا بروكيولا، زوجة بيلاطس الحاكم الروماني في أورشليم، في شرفة القصر تشاهد المدينة المقدسة في عيد الفصح، الرجال في ثياب الصلاة ينطلقون إلى الهيكل، والنساء في الثياب الزاهية الجديدة، أسدلن على وجوههن نُقُبًا كثيفة، والأطفال ينطلقون مرحين، في أيديهم قطعٌ من فطير الفصح.

نظرت كلوديا صوب القصر القريب، النازل به هيرودس حاكم الجليل، فلمحت على البعد السنهدرين من فَرِّيسِيين وصَدُّوقِيين يسوقون أمامهم فريستهم، وحوله الجنود تحلّقهم جمهرةٌ من خُدّام الهيكل واللاويين والمتطفلين، فخفق قلب كلوديا في شدّة، وأحسّت انقباضًا. لم يحكم هيرودس في أمره بل أعاده إلى زوجها ليتصرف فيه.

رأت كلوديا في نومها حلمًا حول ذلك الرجل، حلمًا أفزعها وأقلقها، حلمًا أُوحي إليها فيه، إن ذلك الرجل بريء لا يستحق القتل، وقد تألمت في نومها من تلك الرؤيا، ولما استيقظت ظلّت منقبضة، وحاولت أن تُرَفِّه عن نفسها بالتطلع إلى الناس في العيد، ولكن رؤيتها لذلك الجمع جدّدت قلقها، فبعثت إلى زوجها: - إياك وهذا البارّ، فقد تألمت في الحلم كثيرًا من أجله.

فكر بيلاطس في أمر ذلك النبيّ الجديد، إن تعاليمه لا تُغضِب الرومانيين، تدعو إلى حب الأعداء، ودفع الجزية، وإعطاء ما لقيصر لقيصر، لا تُثبِّت روح التمرد والثورة، بل روح الاستكانة والخضوع.

إذا اتُهم بأنه ملك اليهود، فقد أعلن أن مملكته ليست مملكة أرضية، إن هي إلا مملكة سماوية، وما كان بذلك ينافس طيبروس أو أحفاده في سلطانهم، ما قاده رؤساء الكهنة إليه إلا ليكون أداة تنفيذٍ لمآربهم، يريدون أن يقتلوه، ليتخلّصوا من سخريته.

مَن أتباعُه حتى يفزع بيلاطس منه؟ حفنة من الصيادين الفقراء، وبعض النساء المستضعفات، أهؤلاء هم رعاياه في مملكته، أهؤلاء هم الذين يثيرهم على طيبروس والإمبراطورية الرومانية؟ إن هي إلا عداوة محليّة بينه وبين الفَرِّيسِيين المتعجرفين، والصَدُّوقِيين الرافلين في الغرور، ألبسوها ثوب الإعدام، ولكن بيلاطس قد عزم على أن ينقذ الرجل، ويخلي سبيله.

جرت العادة أن يُطلِق الشعب في العيد سراح أحد المسجونين، وفي يد بيلاطس أسيران، ذلك الذي جاء به رجال الدين، وباراباس الثائر سفاك الدماء، فإذا ما خَيَّر الشعب فيمن يطلق لهم سراحه، فلا شكّ أن الجماهير ستطلب الإفراج عن النبي الناصري.

عاد رؤساء السنهدرين إليه برسالة هيرودس، فطلب الرجل الحائر، فلما دخل يهوذا عليه، أحسّ إشفاقًا نحوه، كان مجهدًا مكدودًا، وما كان وجهه ينم عن ثورةٍ أو شر، كان مطرقًا في استسلام، كأنما ألقى للأقدار مقاليده.

وعاد بيلاطس يحاور ذلك الذي أرسلت إليه كلوديا أنها رأت في المنام أنه بريء، فلم يقسُ عليه ولم يشتد، ثم خرج إلى الجموع الزاخرة التي حضرت في ساحة القصر، وأطل عليهم، وقال لهم: - قدَّمتم إليّ هذا الإنسان كمَن يفسد الشعب، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم، ولم أجد في هذا الإنسان علّة مما تشكون به عليه، ولا هيرودس أيضًا، لأني أرسلتكم إليه، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل، فدعوه لي أؤدبه، وأطلق سراحه.

ما كان هذا ما يبغي الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون والكَتَبَة والصرّافون وباعة الأغنام والحمام في الهيكل، فارتفعت أصواتهم: - اقتله، اقتله.

وراح قيافا وحَنَّان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب، فراحت الحناجر تهتف بالوالي الروماني: - نريد قتله.. نريد قتله.

- لم يفعل ما يستوجب القتل.

- اقتله، اقتله.

وصمت بيلاطس قليلًا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التي حركها أعضاء السنهدرين، واستجاب لها خُدّام الهيكل، والجماهير التي تنتقل إليها عدوى الثورة، أو عدوى الرضا، دون أن تدري لماذا ترضى ولماذا تثور!

وخفتت الأصوات، وبدأ بيلاطس يتكلم، فتعلّقت به العيون، وأرهفت له الآذان، قال: - إننا نطلق لكم في العيد أسيرًا، فمن تريدون أن نُطلِق لكم في هذا العيد، باراباس أم عيسى الذي يُدعى المسيح؟

فهتف الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون وتجار الهيكل: - باراباس.

وانطلقت العدوى إلى الجماهير، فراحت تردّد: - باراباس.. باراباس.

تضايق بيلاطس، كان يطمع في أن يؤيده الشعب ضد أعضاء السنهدرين، كان ينتظر أن ترتفع الأصوات طالبةً إطلاق سراح ذلك الذي لم يرتكب إثمًا، مَن كان كل ذنبه أن حسده رجال الدين، فإذا بالجماهير ببغاوات تردّد ما تُلقَّن.

وأراد أن يثير حماسة الجماهير، أن يزيل الغشاوة التي أسدلها على العيون الفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون، فأتى يهوذا مشدودًا وثاقه، وقال لهم: - فماذا أفعل

بهذا؟

كان يحسب أن رؤيته تعيد إلى الناس رشدهم، ولكن خاب ما حسبه، فقد ارتفعت أصوات الأعداء مجلجلة: - ليُصلَب.

وتجاوبت الأصوات وراحت ترنّ في القصر:

- ليصلب، ليصلب.

فقال بيلاطس في يأس:

- أي شيء فعل؟

- اصلبه.. اصلبه..

- لم يفعل ما يستوجب الصلب.

- اصلبه.. اصلبه..

- أؤدبه وأطلقه.

- خذ هذا وأطلق لنا باراباس.

- باراباس.. باراباس.

- اصلبه.. اصلبه..

- نريد باراباس.. باراباس.. باراباس.. باراباس.

- اصلبه.. اصلبه..

رأى بيلاطس الفتنة تتحرك، غلا مرجل غضب الجماهير، وما هي إلا إشارة من رجال السنهدرين الحانقين، حتى يندلع لهيب الثورة، فقال لهم: - خذوه أنتم فاصلبوه، فإني لا أجد ما آخذه به.

فصرخ رجال السنهدرين:

- لنا ناموس، وحسب ناموسنا هو يستحقّ الموت، لأنه جعل نفسه ابن الله.

يا للرياء، إنهم يدعون أنفسهم شعب الله المختار، أبناء الله، وقد حاولوا أن يتّهموه بالمروق لمَّا قال إنه ابن الله، ولكنه أثبت لهم أنه استعار ذلك من كتبهم، من مزامير داود، وأنهم جميعًا «أبناء العلي يُدعَوْن». أثبت لهم أنه لم يدَّع الألوهية. وأثبت لهم أنه ابن الله مثلهم جميعًا، وأنه عبده ورسوله ومصطفاه، فلماذا يحاولون الآن أن يُلصِقوا به تهمةً سبق أن برءوه منها؟ وهل كان بيلاطس الروماني الوثني يفهم كثيرًا أو قليلًا في مثل هذه الأمور؟ أرادوا أن يوهموه أنه ارتكب إثمًا كبيرًا في حق ناموسهم، ليُرغموه على التصديق على صلبه، فما كانوا قادرين على أن يَصلبوه ما لم يوافق على ذلك الحاكم الروماني، صاحب الكلمة والسلطان، قال لهم بيلاطس لعلهم يوافقون: - أجلده، ثم أُطلق سراحه.

- اصلبه، إنه يستحق القتل حسب ناموسنا.

لم يستطع أن يثنيهم عن عزمهم، وبدا الشرّ يطلّ بخطمه، فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه أمام الجميع. وقال: - إني بريءٌ من دم هذا البار.

فصاح الكَتَبَة والفَرِّيسِيون والصَدُّوقِيون وتجار الأغنام والحمام والصرّافون، وخُدّام الهيكل، والشعب المخدوع: - دمه علينا وعلى أولادنا.

وخرج باراباس إلى الجماهير فانطلقت هتافات الفرح، وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا، ليُعذِّبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه، وصدق عيسى، فالناس يفرحون، وتلاميذه يذرفون الدمع الهتون.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. (قرآن كريم)

جنود الرومانيين يقودونه إلى جوف القصر، يسخرون منه، ويبصقون في وجهه، ويلطمونه ويصفعونه ويضحكون، كانوا في أعماقهم يكرهون اليهود، فأتيحت لهم فرصة التنفيس عن البغض المكتوم.

وبدأ جَلد يهوذا، فخفّ جميع جنود القصر ينظرون في سرور، كان حدثًا جديدًا في حياتهم الرتيبة، فهُرِعوا يتسلون منشرحين، ترنّ ضحكاتهم مدويّة، كلما عابثه جندي أو لطمه، أو استخف به أو ركبه بمجونه الطليق.

وخُلِعت عنه ثيابه، وشُدّ إلى عمود، فأصبح ظهره العاري مكشوفًا، وجاء جلاد، وكان وجهه جامدًا كأنما نحت من صخر، وفي يده سوط ذو ثلاث شعب من الجلد، في نهاياتها قطع من رصاص، ورفع الجلاد يده، وأهوى بالسوط على ظهر يهوذا يمزقه، فلم ينقبض قلب جنديٍّ واحد، بل انبسطت الأسارير.

وانهالت الضربات، ويهوذا يئن كوحشٍ جريح، وفاضت التهليلات في المكان، تبلّدت الإحساسات، وطغت وحشية البشر، حتى فاقت ضراوة الحيوان، وتطايرت السخريات، وانطلقت التهكمات، فتلقفها الجنود مسرورين، كما يتلقف الأطفال هدايا العيد.

تمزق ظهر يهوذا، ولف سوطٌ على وجهه فقطعه، وجاءته ضربةٌ على رأسه فراح في غيبوبة، فلم يعد يحسّ مما حوله شيئًا، وتمّ جَلدُه، فهُرِعَ إليه بعض الجنود يُقلِّبونه، فألفَوا أنفاسه تتردّد، فأحسّوا رضًا، لا لأنهم أشفقوا عليه أن يموت، ولا لأنهم جزعوا لموته، بل لأنهم سيجدون فيه تسليتهم، حتى يسلموه إلى من يصلبونه.

وصاح صائح:

- صمتًا يا رفاق، إنكم بين يدي ملك اليهود.

وقال آخر:

- ألبسوه ثياب مُلكِه وتَوِّجُوه.

فأسرع الجنود إليه، ولفّوه في ثوبٍ قرمزي، ثم ضفَّروا إكليلًا من الشوك، وتَوَّجُوه به، ووضعوا في يده قصبة، رمزًا للصولجان، واصطفّ الجنود، وراحوا

يمُرّون أمامه، وينحنون في سخرية، كما تنحني الرعايا أمام الملك، ويقولون في زراية: - السلام عليكم يا ملك اليهود.

ولم يكتفوا بعبثهم القاتل، بل كانوا يأخذون القصبة من يده، ويضربونه بها على رأسه، ويتصايحون فرحين، كان بينهم كحملٍ بريء وقع بين براثن وحوش، أو كفأر صغير تنهشه عشرات القطط.

دار رأس يهوذا، وفاضت آلامه، وزادت حتى غاب عن حسّه، فلم يعد يستشعر العذاب، كانت تدثّره غيبوبة رحيمة تفقده الشعور.

واقتيد يهوذا إلى بيلاطس، حيث كان قيافا وحَنَّان وأعضاء السنهدرين يرقبون فريستهم، ودخل يهوذا والدم يجري على وجهه، وينبثق من ظهره، يجرّ رجليه، يكاد يسقط من الإعياء.

نظر بيلاطس إلى رجال الدين المتنمّرين، إلى حَمَلَة الشريعة الذين طَمَس الله قلوبهم، وأعماهم الحقد البغيض، إلى المجرمين الحقيقيين، الذين لو أصاخ إلى صوت ضميره لدمغهم بالافتراء والكذب، ولكنه كان يخشى منهم، فهم القوة المحركة للشعب الأعمى، إنهم قادرون على أن يرسلوا إلى قيصر في رومية الوفود، يلتمسون منه أن يخلعه، وأن يأتيهم بوالٍ جديد، ففضّل السلامة على أن يلقي سمعه لصوت الضمير، قال: - خذوا مَلِكَكُم واصلبوه.

أحسّوا في صوته رنّة زراية، فقالوا له: - ليس لنا ملكٌ إلا قيصر.

وقام رؤساء الكهنة وعيونهم تلمع بالقسوة، وانطلقوا وجنود الرومان يدفعون أمامهم يهوذا المحطم، كان يريد أن يموت ويستريح، لم يعد يخشى الموت، فبعده العزّ والسيادة على أسباط بني إسرائيل.

وارتفع صوت بيلاطس:

- خذوا هذه، وضعوها على الصليب.

فالتفت قيافا وحَنَّان وأعضاء السنهدرين، فوقعت عيونهم على رقعة كُتِب فيها: «عيسى الناصري، ملك اليهود». فثارت دماؤهم في عروقهم، إن ذلك الوالي الروماني يسخر منهم، ولا يكفّ عن سخريته، فقالوا له: - لا تكتب «ملك اليهود»، فذاك قال: أنا ملك اليهود.

فقال لهم بيلاطس:

- ما كتبت قد كتبت.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾([42]).

(قرآن كريم)

رَكْب الموت في طريقه إلى جلجثا: قائدٌ رومانيٌ يعتلي صهوة حصانٍ أبيض، وثلاثة رجالٍ يحملون صلبانهم، وحفنة من الجنود الرومانيين حولهم، وجمعٌ من الناس ينطلقون في أثرهم ليشاهدوا الصَلْب، تزجيةً للوقت في العيد.

كانوا ثلاثةً يئنون تحت ثقل الصليب، يهوذا ولصَّين حُكِم عليهما بالصلب معه، وكان يهوذا أكثرهم ضعفًا. كان مجهدًا محطمًا، مزقته السياط والمحاكمات، في وجهه جروح، وفي ثوبه دمٌ جف، فألصق الثوب بالجسم، وساقاه تتثنيان تحته، يحسّ كأنما يكاد يهوي من الإعياء مغشيا عليه.

كانت أورشليم تموج بآلاف الحجّاج من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى واليونان، فألقوا نظرة عابرة على موكب الموت، وعادوا يستأنفون ما كانوا فيه من مرحٍ وحبور، فما تجشّموا عناء السفر جلبًا للأحزان، بل للحجّ والترفيه.

وفي إثر الموكب الحزين، سارت نسوةٌ محجّبات يذرفن الدموع، فهنّ أرقّ قلبًا من الرجال الذين آمنوا به، فلمّا أحسّوا الخطر انفضّوا من حوله، وقست القلوب. سمعوه في الهيكل وهلّلوا له، فلما دنت الساعة الفاصلة بخلوا عليه حتى بالدموع.

دبّ الوهن في جسد يهوذا، فسقط وصليبه فوقه، ولولا الأنفاس الضعيفة المتردّدة، لحسبوه قد مات، فصرخ به رجال قيافا وحَنَّان أن يقوم، وأن يحمل صليبه، ولكنه كان عاجزًا عن النهوض.

وأقبل سمعان القيرواني من حقله، ورأى جمعًا ينطلق خارج المدينة: جنودًا رومانيين، وصلبانًا ونساءً على البعد يبكين، فذهب يشاهد ما يجري في الطريق، فلما رآه القائد الروماني، قال له، وهو يشير إلى الصليب الساقط فوق يهوذا:

- احمل هذا.

وذهب سمعان يفعل ما أمر به القائد، فما كان لامرئ أن يرفض أمرًا صدر إليه من قائدٍ روماني، ولكن رجال قيافا وحَنَّان اعترضوا على ذلك الأمر

وقالوا:

- لا بد أن يحمل هو صليبه حتى النهاية. هذا هو الناموس.

كان القائد يبغي أن ينتهي من عمله، فما كان يهمّه كثيرًا أو قليلًا أن تطبّق حرفيّة شريعة لا يؤمن بها، فلم يلتفت لاعتراضهم، وحمل سمعان الصليب، ومال اثنان على يهوذا وعاوناه على النهوض، وانطلق ركب الموت في الطريق.

وكان بين النسوة امرأتان، أحسّتا في قلبيهما وَقدة نار، وراحت دموعهما الحارة تجري، فلا تريان إلا ما هما فيه من حزنٍ عميق، كانتا العذراء أم المسيح، ومريم المجدلية، التي أخرجها من الظلمات إلى النور، ولولا تلك الدموع التي غامت بها العيون، ولولا الحزن الثقيل الذي نزل بهما، ولولا اليأس الذي ذهب بنفسيهما شعاعًا، لفطِنَتا إلى أن ذلك المُجهَد المكدود، الرازح تحت عبء الصليب غير عيسى الحبيب.

وبلغوا المكان، وثُبِّتت الصلبان في الأرض، وجيء بالرجال الثلاثة، وخلعوا عنهم ثيابهم، فأشاحت النسوة بوجوههن، وقلوبهن منقبضة، وأحسّت مريم خناجر تطعنها في فؤادها، وعلا النشيج والنحيب.

ورُفع الرجال، وفي وسط أكُفِّهم دُقّت مسامير لتثبيتهم في خشب الصلبان فأحسّت النسوة كأن المطارق تدقّ قلوبهن، فتُمزِق نياط أفئدتهن، ودُقّت مساميرَ أخرى في الأقدام، فكادت مريم أم المسيح تنهار، وكتمت مريم المجدلية صرحة مفزوعة كادت تفرّ من قلبها المطعون.

وصدق المسيح. كان بنو إسرائيل في العيد يمرحون ويفرحون، إذ كانت أمّه وأحبابه وأصحابه في جلجثا في حزنٍ تخِرّ من ثقله الجبال، حزنٌ أسدَل أغشيةً قاتمةً كثيفةً على العيون، فلم تعد ترى إلا السواد.

وراح الوقت يمرّ وئيدًا بغيضًا، ويهوذا على الصليب يئن من العذاب، وقد ثُبِّتت فوق رأسه الرقعة التي كتب فيها «عيسى ملك اليهود» ورجال قيافا وحَنَّان يرمقونها في غيظ شديد، كانوا يحسّون في تلك اللحظة الرهيبة أن سخرية بيلاطس بهم تلطِمهم وتُكَدِّر صَفو المشهد الذي عملوا له، وترقبوه طويلًا.

وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى، فراحوا يقولون:

- خلَّص آخرين وعجز عن أن يخلِّص نفسه.

- إن كان هو المسيح ملك إسرائيل، فلينزل الآن عن الصليب، لنرى ونؤمن به.

ولو تهتَّكت الأغشية عن عيونهم، ولو أرهفت آذانهم، والتقطت سخرية القدر بهم، لتيقنوا أن ذلك المصلوب ليس هو، وأنه خلَّص آخرين وخلَّص نفسه، ولكن كان في عيونهم عمى، وفي آذانهم وَقْر، وما كان الله يريد لهم الهداية وقلوبهم أعشاشٌ للنفاق والرياء والكفر.

وراح الجنود الرومانيون يسخرون بيهوذا وهو على الصليب، التقطت آذانهم ما يهمس به أعداؤه، فقالوا له:

- إن كنت أنت المسيح فخلِّص نفسك.

فقال له المصلوبان معه:

- إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا.

ولكنه لم يكن المسيح، كان يهوذا يتجرّع الكأس المريرة، ليشفي روحه مما علَق بها من وساوسٍ وشكوك، فلم يخلِّص نفسه ولم يخلِّصهما.

غابت الشمس، وزحف الظلام، والرجال الثلاثة على الصلبان يتعذّبون، يتفصّد منهم العرق، ويلتقطون أنفاسهم في جهد، يئنّون من الآلام القاسية المريرة، وهتف يهوذا في صوت واه.

- أنا عطشان.

كان هناك إناءٌ مملوءٌ خلًا، فغمسوا إسفنجة فيه، ورفعوها إليه، فلما أخذ يهوذا الخلّ، ألقى رأسه على صدره. دبّ فيه ضعفٌ شديد، فلم يعد قادرًا أن يرفعه، وصدق عيسى، فقد قال في العشاء الأخير: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم، حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت ربي»([43]). فهو لم يشرب الخلّ على الصليب، بل شربه يهوذا، فالخلّ من نتاج الكرمة، وما كان لرسولٍ أن يقول كذبًا.

وضجّ يهوذا من آلامه، وتذكّر أن الله يعذّبه بشكِّه الذي خالط إيمانه، فحقد على نفسه وصرخ:

- إيلي إيلي لم شبقتني؟! (إلهي إلهي لماذا تركتني).

لم يقل: أبي.. أبي لم تركتني؟ فما كان يهوذا تعوَّد أن يدعو الله «بأبي».

ساءه أن يتركه الله يتردى في الشكّ حينًا، كانت تجربةً قاسية، دفع ثمنها غاليًا صابرًا، وفي لحظاته الأخيرة وهن فصرخ معاتبًا، ولولا سكرات الموت ما نبس بكلمة.

أفزعت تلك الصرخة المدويّة في الظلام الواقفين يترقبون النهاية، وقال بعضهم:

- إنه ينادي إيليا.

وتحركوا في فزع، فقال آخرون:

- انتظروا لنرى هل يأتي إيليا يخلِّصه.

ومزَّق الصوت قلوب النساء، فارتفع في سكون المكان نشيجٌ ونحيب، زاد في قلق أعصاب الخائفين المترقبين حدوث معجزة، ولكن المعجزة لم تأتِ فما كان صاحب المعجزات هناك.

وصرخ يهوذا صرخةً أخرى، أعقبها صمتٌ مطبق، فقد أسلم الروح. مات الموتة الأولى، ولم يذُق بعدها الموت، فقد خَلُص من أدران الشك، ليحيا مع المسيح إلى الأبد.

استحقّ يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه، يدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر. كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بني إسرائيل يبشّرون باسمه، ويدعون الناس إلى ملكوت الله، وكان من الذين أوحى الله إليهم أن آمِنوا بي وبرسولي، وكان من المبشَّرين بالجنة، مسَّه طائف من الشيطان، فلما تذكّر إذا هو مُبصر، فقدَّم نفسه راضيًا عن سيده ليتطهر، فتاب الله عليه، فقد تاب توبةً لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم.

تضايق رؤساء السنهدرين من الانتظار الطويل، أرخى الليل سدوله، ومشى الوصب في أبدانهم، بعد السهر في تدبير مؤامراتهم، فأرسلوا إلى بيلاطس يستأذنونه في كسر سيقان المصلوبين والتخلص منهم، فقد كان بعضهم يستمرّ أيامًا قبل أن يلفظ آخر أنفاسه، وعاد الرسل من عند بيلاطس بالإذن بذلك، فأخذ الجنود مطرقة ثقيلة، وكسَّروا سيقان اللصين، وذهبوا إلى يهوذا، فألفَوه قد فارق الحياة.

وأراد أحد الجنود أن يتحقّق من موته، فطعن جنبيه بحربة، ولما رأى رجال الدين، أن المصلوب قد انتهى، غادروا المكان يحسّون كأنما انزاح كابوسٌ عن صدورهم، وانداحت في أفئدتهم نشوة الظفر، حسبوا أنهم قتلوا عيسى، وتخلّصوا منه، وخَلا لهم وجه بني إسرائيل، يمتصون أموالهم باسم الدين، فمن ذا الذي يُبَّصرهم بعده أن الله غني عن عباده، وأنه لا ينال من لحوم الأضحيات ودمائها، ولكن ينالُه التقوى منهم، وما دار بخَلَد أعضاء السنهدرين أن الله سَخِر منهم، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم، «الساكن في السموات يضحك، الرب يستهزئ بهم».

انطلق رجال الدين وقد حقَّت عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ويحسبون أنهم مهتدون، وبقي المصلوب في الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات، وأما حواريو المسيح فقد ولَوا الأدبار مفزوعين، ولو أنهم فهموه، لما شكّوا فيه، ولتيقّنوا أنه لم يُصلَب، بل صُلِب غيره، فقد قال لهم: «كلكم تشكون فيّ الليلة»، و«طوبى لمن لا يعثر فيّ». ولو أصاخوا لرنّ في آذانهم قوله، مؤكدًا نصره على أعدائه من صَدُّوقِيين وفَرِّيسِيين:

- إني قد غلبت العالم.

-56-

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

(قرآن كريم)

انسحب الجنود الرومانيون ورجال السنهدرين وخدمة الهيكل يحملون مشاعلهم في أيديهم، وخلَّفوا المصلوبين في الظلام الدامس الثقيل، ومريم المجدلية وأختها مَرثا وسالومي أم يعقوب ويوحنا وحفنة من النسوة المؤمنات يبكين في حرارة، حتى تكاد أكبادهن تتصدّع من البكاء، كان الأمل في معجزة تنقذ المصلوب يراود أخيلتهن حتى اللحظات الأخيرة، ولكن لما طعنه الجندي الروماني بحربته تبخّر الأمل، وجرت دموع اليأس. نفذ القدر، وحمَّ القضاء وأسلم المصلوب الروح، دون أن تنقذه السماء، فما كان المصلوب رسول الله، وما كان صاحب المعجزات.

كان يقف على البعد رجلان، يرصدان ما يجري في جلجثا، وفي قلبهما حزنٌ عميق، كان أحدهما نيقوديموس، ثالث أعضاء السنهدرين الذي تخلف عن الاجتماع الأخير، الذي حُكِم فيه بالقتل على من حسبوه المسيح، لأن الإيمان عرف طريقه إلى قلبه.

ساد الظلام جلجثا، فزاد انقباض نفسيهما، فالرومانيون يُخلِّفون أجساد المصلوبين تنهشها الكلاب، وتتخطفها طيور السماء، فعزّ عليهما وهما من اليهود الذين يحفلون بدفن الموتى في مقابر فاخرة، أن يُترك جسد من حسبوه المسيح في الخلاء، ففكرا في أن يستأذنا بيلاطس في مواراته في التراب.

وكان الثاني يوسف الرامي وكان أكثر جرأةً من نيقوديموس، فانطلق في الظلام، حتى إذا بلغ أورشليم أغذّ السير إلى قصر بيلاطس، لا يخشى غضب الوالي الروماني، فيا طالما غضب على من جاءه يلتمس منه ما يريد يوسف أن يلتمسه.

دخل على بيلاطس، فألقاه في إيوانه، فتقدم منه وقال:

- جئت ألتمس يا مولاي الإذن لي بدفن عيسى.

- تعجب بيلاطس وقال:

- أمات هكذا سريعًا؟

كان المصلوبون يقاسون عذاب الصلب يومًا أو يومين. أما هذا المصلوب فلم يستغرق بعض يوم، فلم يصدق بيلاطس، وبعث إلى قائد المائة يسأله، فلما أكّد له موته، سمح ليوسف بدفنه.

ذهب يوسف واشترى كتانًا، وذهب نيقوديموس وجلب مائة رطل من مرّ وَعود، وفي فحمة الليل في جلجثا لاح قبس نور المشعل الذي يحمله نيقوديموس القادم بالطِيب، وما هي إلا لحظات حتى لاح نورٌ آخر يجاهد أن يزحزح طبقات الظلمات، كان النور المنبعث من مشعل يوسف الرامي، القادم بالأكفان والتصريح بدفن المصلوب.

هبّ يوسف ونيقوديموس ينزعان المسامير الطويلة المثبتة لقدميه، وجيء بسلّم وارتقاه أحدهما، وأخذ ينزع المسامير من كفيه ويسند الجسد بكتفيه، وهُرِعَت النسوة يعاونَّه على إنزال المصلوب، وحُملت الجثة بينهم، وانطلقوا إلى حديقة قريبة، كانت ملكًا ليوسف الرامي، وكان بها قبرٌ فاخرٌ أعدّه يوسف لنفسه.

وذهب يوسف وأحضر ماء، وراح هو ونيقوديموس يغسلان الجثة، ويزيلان منها آثار الدم، وتقدّمت مريم المجدلية ومَرثا وسالومي، ونزعْن عن رأسه تاج الشوك الذي توَّجه به الرومانيون مستهزئين، وأخذْن يُحنِّطن الجثة بالحَنوط الذي جاء به نيقوديموس، ولما غطّى به الجسد، تقدّم يوسف وقبَّل جبهته، وتقدّم الجميع يقبِّلونها، مريم في نشيج ونحيب، والنسوة في بكاء وعويل، والرجلان صامتان، وإن كان الحزن يمزّق فؤاديهما، ووَقْدةٌ من النار تلسع حلقيهما، والدموع تزيد نفسيهما أسًى ولوعة.

وجيء بالكتان وأدرج الجسد فيه، وقام يوسف ونيقوديموس يقرآن في صوتٍ حزينٍ صلاة الموتى، ولما انتهت الصلاة، حمل الجسد المدرج في الأكفان، ودُلّي في قبره، وَوُوري بالتراب، وانصرف الجميع في جوف الليل البهيم مطرقين.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

(قرآن كريم)

نور الفجر لم يبدّد بعد ظلام الليل، وبدأت زقزقة العصافير تُعكِّر السكون المسيطر على حديقة يوسف الرامي، التي قُبِر فيها يهوذا، وأخذ شبحٌ يدنو في الظلام مطرق الرأس، كانت مريم المجدلية متّشحة بالسواد قادمة في البكرة، تذرف على القبر الدموع، تقدّمت في خطواتٍ ثقيلة، حتى إذا بلغت القبر ألْفَت الحجر مرفوعًا عنه، فخفق قلبها، وانتابتها رهبة، وراحت تركض تُنقِّب عن الحواريين، الذين هاموا على وجوههم حذر الموت.

وعادت وفي رفقتها سمعان بطرس ويوحنا، وقالت لهما:

- أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه([44]).

كانت تحسب أن المصلوب هو المسيح، فلما سُرقت الجثة انتابها همٌ ثقيل، وجرت دموعها غيظًا، ونظر يوحنا إلى القبر فوجده خاليًا، ودخل بطرس باندفاعه المعهود، فلم يجد الجثة فاضطرب، ودخل يوحنا، فلمّا لم يجد شيئًا غاص قلبه حزنًا، وبقيا صامتين لحظات، ثم خرجا مطرقَّيْن، وانصرفا وقد خلَّفا مريم المجدلية تذرف الدمع الهتون.

فرّ عيسى في الليل من الجنود الرومانيين بعد أن ولّى حواريوه الأدبار، ووقع يهوذا في أيديهم، فلما صُلِب وهدأت نفوس أعضاء السنهدرين وأتباعهم، واطمأنوا إلى أنهم تخلّصوا من عدوهم، خرج عيسى من مخبئه، وهبط من جبل الزيتون إلى وادي قدرون، ثم انطلق إلى حديقة يوسف الرامي، إلى قبر يهوذا. الحواري الذي دفع حياته ليتطهّر من أدران الشك الذي راوده.

لمح عيسى مريم المجدلية مُطأطِئة الرأس، وقد انخرطت في البكاء، فاقترب منها، وبلغ أذنيها وقع أقدام، فالتفتت، ووقع بصرها عليه، على عيسى الذي يكاد كبدها يتصدّع من البكاء عليه، ولكنها لم تعرفه([45])، حتى مريم شكّت فيه.

- يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟

وانسكب في أذنيها صوته، صوته الذي طالما جلست الساعات تصغي إليه منتشية، ولكنها لم تميّزه، لم تميّز وجهه، ولم تميّز صوته، بل حسبته البستاني فقالت له في توسل:

- يا سيد، إن كنت أنت حملته، فقل لي أين وضعته وأنا آخذه.

كانت مريم تحسبه البستاني، حمل الجثة إلى مكان آخر وأخفاها، حتى مريم المجدلية شُبِّه لها، مريم التي كانت دارها بصيص الأمل في الليل السرمد، الواحة الوارفة في صحراء دعوته القاسية، مريم التي أحبته حبًا طاهرًا سما على كل حب لم تعرفه ولم تعرف صوته، وحسبته البستاني، فما أيسر أن يختلط الأمر على رجال السنهدرين الذين لم يروه إلا عرضًا، وعلى بيلاطس وهيرودس الذين لم يقابلاه أبدًا.

وارتفع صوت عيسى مرة ثانية:

- يا مريم.

والتفتت مريم، وأنعمت النظر، وهتفت:

- ربوني (أي يا معلم).

وهُرِعَت إليه، تمرر يدها في دهش على وجهه وعلى يديه، كانت على يقين أنه صلب، فظنت أن الماثل أمامها روح، فجعلت تتحسَّسه، فقال لها:

- لا تلمسيني، لأني لم أصعد بعد إلى ربى([46])، ولكن اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم.

وهُرِعَت مريم إلى الحواريين في مرح وفرح، تخبرهم أنها رأت السيد([47])، وأنه أخبرها أنه ذاهب إلى ربه، وأن الله يرفعه.

وسار عيسى يتلفّت، لا خوفًا من أعدائه، فقد سَخِر الله منهم، بل تلفُّت المودِّع للدنيا، وفيما هو في سيره، إذ لمح اثنين من تلاميذه، فأسرع إليهما، وانطلق معهما في الطريق يحادثهما ويحاورهما ولم يعرفاه([48])، ولم يفطنا إلى أنه عيسى، حتى تلاميذه شُبِّه لهم، قال لهما:

- ماذا تتطارحان؟ وما هذا العبوس؟

فأجابه أحدهما:

- أأنت غريب؟ ألم تعلم ما حدث في أورشليم في هذه الأيام؟

كان يأمل أن يعرفاه، وكان يحب أن يعرف كيف فهم تلاميذه ما جرى من حوادث، وهم بعيدون عن مجراها، هائمون على وجوههم حذر الموت، فقال له:

- ماذا حدث؟

- حوادث عيسى الناصري، الذي كان نبيًا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله والشعب، وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه، وكنا نرجو أن يكون المزمع أن يفدي إسرائيل.

لم يقولا: عيسى الناصري ابن الله، ولم يقولا عيسى الناصري الرب، بل قالا عيسى الناصري النبي، الذي أسلم للكهنة والحكام، فضايق عيسى أنهم لم يفقهوا شيئًا، ولم يفهموا قوله في تلك الليلة التي قال فيها: «كلكم تشُكّون فيّ هذه الليلة»، و«طوبى لمن لا يعثر فيّ». ولكن كلهم شُبِّه لهم فيه، فقال لهما:

- أيها الغبيّان وقصيرا الإيمان.

واقتربوا من القرية التي كان التلميذان منطلقَيْن إليها، فتظاهر عيسى أنه مستأنف سيره، فقالا له دون أن يعرفاه:

- امكث معنا، مال النهار، ولاحت بشائر الليل.

فدخل معهما، وجيء بالطعام، فتناول الخبز، وباركه وكسره، وقدمه لهما. ولما انتهى الطعام، خرج عيسى وتلميذاه في حيرة لا يدريان أكان هو عيسى أم غيره؟!

أرخى الليل سدوله، فاجتمع الحواريون يتهامسون في دارٍ بعيدة عن عيون اليهود، كانوا يذكرون أن مريم رأت المسيح، وأنه أخبرها أنه صاعدٌ إلى ربه، وصدَّق بعضهم ذلك القول، ورفض بعضهم الآخر أن يصدِّقه، حسبوا أن أوهام مريم صوّرت لها ما قالت، فقد كانوا جميعًا يحسبون أن عيسى صُلِب وقُبِر، ولو دار بخَلَدهم أنه فرَّ من الجنود الرومانيين، وأن غيره صُلِب عنه، لكان تصديقه يسيرًا.

وفيما هم في حوارهم، دخل رجلٌ وقام في وسطهم، فنظروا إليه، فخفقت قلوبهم رعبًا، كان عيسى بقامته الطويلة وعينيه السوداوين منتصبًا، وأراد أن يُعيد إليهم طمأنينتهم، فقال لهم في صوت هادئ:

- سلامٌ لكم.

لم يصدّقوا أعينهم، وحسبوه خيالًا، فهُرِعوا إليه يتحسَّسونه، فلما تيقّنوا أنه المسيح، فرحوا وتحقّق قوله لهم: إنه عمّا قليل لا يرونه، ثم عمّا قليل يبصرونه، وإن العالم يفرح وهم يحزنون، ثم ينقلب حزنهم فرحًا.

وراحوا يتحدّثون، فتيقّن أنهم لم يفقهوا شيئًا، فغادرهم وخرج، وانساب في سكون الليل وحده، إنه خارجٌ كما خرج موسي، خارجٌ على ألّا يعود، ذاهبٌ إلى ربه ليتوفاه ويرفعه إليه.

ذهب عيسى مطرقًا، فلا بني إسرائيل اصطلحوا، ولا تلاميذه استطاعوا أن يفهموا أسرار ملكوت الله على الوجه الصحيح، ذهب ويتردّد في أذنيه قوله: «ولكن متى جاء ابن الإنسان فلعلّه يجد الإيمان على الأرض». ذهب ليرفعه الله إليه، ويرسل إليهم «الفراقليط» الذي بشّرهم به ليمكث معهم إلى الأبد، «الفراقليط» روح القدس ليعلّمهم كل شيءٍ ويُذكِّرهم بكل ما قاله، ويشهد له أنه عبد الله ورسوله، «ويرشدهم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به» وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

ذهب ليأتي ذلك الذي «جعله الله عهدًا للشعب ونورًا للأمم، ليفتح عيون العمي، ليخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة» ذلك الذي «يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم» ومن بشّر موسى به، وقال عنه إشعيا على لسان الله عز وجل: «هو ذا عبدي الذي أعضّده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه، فيُخرِج الحق للأمم، لا يصيح ولا يُسمع في الشارع صوته.. لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته».

ذهب عيسى وما وضع الحق في الأرض، كسره أعداؤه، أما الآخر عبد الله ومختاره فلا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، حتى يسود الدنيا ملكوتُ الله.

وبلغ عيسى ظلام الليل الثقيل، ليرفعه الله إلى العزة والمجد والخلود.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – رابط الانضمام إلى الجروب

Link – رابط القنــــاة

الفهرس

إهداء
-1-
-2-
-3-
-4-
-5-
-6-
-7-
-8-
-9-
-10-
-11-
-12-
-13-
-14-
-15-
-16-
-17-
-18-
-19-
-20-
-21-
-22-
-23-
-24-

-25-
-26-
-27-
-28-
-29-
-30-
-31-
-32-
-33-
-34-
-35-
-36-
-37-
-38-
-39-
-40-
-41-
-42-
-43-
-44-
-45-
-46-
-47-
-48-
-49-
-50-
-51-
-52-

-53-
-54-
-55-
-56-
-57-
الفهرس

Notes

[←1]

ذكرت في إنجيل توما وإنجيل الطفولية، ولم تذكر في الأناجيل الأخرى لأنها وقعت قبل إيمان الحواريين بعيسى.

[←2] معنى إنجيل: بشارة بالسعادة الحقيقية.

هذا الحديث من إنجيل برنابا.

[3←]

[←4]

كان بنو إسرائيل يطلقون على الشعوب الأخرى «الأمم» للتحقير كما كان العرب يطلقون عليهم «العجم».

[5←]

يلاحَظ أنه يطلق على الله «أباكم» بمعنى «ربكم» وعلى ذلك فلفظة «أبى» بمعنى «ربي».

[6→]

آب بمعنى الله واستعملها عيسى بمعنى رب.

[←7]

لوقا (8: 10 - 65).

[←8]

تثنية (18: 18).

[9←] تكوين (25: 13).

[10←]
إشعيا (إصحاح 42).

[←11]

يلاحظ أن عيسى عليه السلام يستعمل دائما لفظة أب بمعنى رب.

[←12]

آب (غير أب) بمعنى الله.

[←13]

هذا الحوار من إنجيل برنابا.

[14←]

في التوراة: خذ ابنك بكرك إسحاق.

[←15]

إن كل الآيات المضادة لهذه الآيات إما محرفة أو زائدة، ويؤيد ذلك ما جاء في «قاموس الكتاب المقدس» للدكتور جورج بوست الأمريكي، فقد ذكر أن خاتمة الإصحاح السادس عشر (مرقص 16 : 9-20) لم تكن في نسخ إنجيل مرقص القديمة، بل أضيفت إليه فيما بعد.

[←16]

جاء في إنجيل متَّى: فأتت وسجدت له قائلة: يا سيدي أعني. فأجاب وقال: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب، فقالت: نعم يا سيدي والكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيمٌ إيمانك. ليكن لكِ كما تريدين، فشُفيت ابنتها من تلك اللحظة.

وأربأ أن يكون هذا قد صدر عن الرسول الكريم، فما يصدر هذا القول من إنسانٍ ذي قلبٍ كبير، وإذا كان المسيح قد قال ذلك كان وصمة لكل من اتبعوه من غير بني إسرائيل.

[←17]

يلاحظ أن زكريا لم يقتل، وقيل إنه يقصد زكريا آخر غير النبي، ولو كان ما قيل صحيحًا لوجب أن يقول «إلى دم يحيى»، فيحيى آخر من قُتل، والظاهر أن هذه العبارة زائدة.

[18←]

المقصود أن الختان من الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، لا من الكهّان الآباء، كما فهم بعضهم، فحرّموا الختان.

[←19]

الآب غير الأب: بمعنى الله.

[←20]

يلاحظ أن لفظة «أب» وتستعمل بمعنى رب.

[21←]
جاء في إنجيل يوحنا: جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص، ولا يُعقل أن المسيح عليه السلام يقول إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ويحيى جميعهم لصوص.

[←22]

الآب = الله.

[←23]

أوَّل بعضهم هذا المثل بأنه دلالة على أن مدة بعثته ثلاث سنين.

[←24]

قامت حول هذه الجملة مناظرات كثيرة، قال رؤساء الكنيسة في روما إنها تفضيل لحياة الفكر على حياة العمل، وقال آخرون إن القصد منها أن المرء لا يحتاج إلى أكثر من نوع واحد للغذاء، ومن يدري فقد يقوم من يقول إنها دعوة إلى التوحيد!

[←25]

ذكر في إنجيل يوحنا «أبي». وآب بمعنى الله، وآب و: Vater, father تشبه فاطر.

[←26]

الكلمة «تجدف» والتجديف بمعنى الكفر بنعمة الله، لا الكفر إطلاقًا.

[27←]

أوريغين Origenus هو أول من درس في فكرِ الكنيسة (الأبوّة والبنوّة) الإلهية، وهو راهب مصري عاش في القرن الثاني الميلادي، وكان خصيًا متأثرًا بالديانات الفرعونية.

[←28]

جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. و﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

[←29]

ذكر بعد ذلك في الأناجيل: «لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله» ولمّا كان ذلك الجيل قد مضى ولم تتحقق النبوءة، ولمّا كنت لا أعتقد أن نبيًا يُخبر خبرًا ثم لا يَصدُق، حذفْتُ النبوءة، واعتبرتها زائدةً، وقد فعل مثل ذلك تولستوي في إنجيله الذي نسّقه من الأناجيل، فقد حذف كل ما ظنه زائدًا.

أُلِّفت كتبٌ كثيرةٌ لإزالة الاعتراضات التي قامت حول هذه النبوءة، ولم تصل هذه الكتب إلى شيء، بل زادت الأمر تعقيدًا.

[30←]
في الأناجيل اضطراب حول هذا اليوم، حتى إنه لا يمكن الجزم أكان هذا العشاء فصحًا حقيقيًا أم ما يشبه الفصح!

[←31]

ذكر في الأناجيل أنه قام يغسل لهم أرجلهم، وأنه خلع ثيابه وائتزر بالمنشفة.

[32→]

فراقليط لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعزّي)، وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) ووضع الأب عبد الواحد داود الأشوري العراقي في كتابه (الإنجيل والصليب)، الكلمات اليونانية التي في التوراة والإنجيل بمعنى أحمد وإسلام.

[33←]

ذكر في إنجيل لوقا: إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن، وقد حذفتُ «السجن» لأن الحديث حديث وداع، ويدور حول الموت.

[←34]

لم يشهد أن عيسى رسول الله إلا القرآن والحواريون والموحدون الأوائل.

[←35]

في سنة 325 بعد الميلاد اجتمع مؤتمر نيقية، وكان مكونًا من ألف راهب، لحلّ مشكلات الدين، والفصل فيها. حاول «آربوس» رئيس الموحدين البرهنة على أن المسيح «عبد الله» وحاول «أثناسيوس» الشمّاس السكندري أن يبرهن (التثليث) وكان متأثرًا بالديانة المصرية القديمة. اعترف بعبودية المسيح ثلثا المؤتمرين، ولكن قسطنطين، وكان قد تنصر وكان حديث عهدٍ بالوثنية انضم إلى الأقلية الداعية إلى التثليث، وقتل الموحدين، وهو يحسب أنه يؤدي خدمة لله. وأحرقت جميع الكتب الداعية إلى التوحيد، ولم تبق إلا الكتب التي أقرها مؤتمر نيقية.

[←36]

قال الله تعالى في القرآن مخاطبًا النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

[←37]

هذا النص جاء في إنجيل يوحنا ويشبه قول المسلمين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن عيسى رسول الله.

[←38]

كتب نقّاد الغرب ينقدون الاختلافات الكبيرة في «محاكمة المسيح وموته وقيامه» الواردة في الأناجيل، وترجع الاختلافات إلى أن متَّى ولوقا ومرقص ويوحنا لم يعاينوا شيئًا منها بل تلقفوا أخبارها من أفواه العامة واستمدوا بعض المعلومات من مخيلاتهم.

[←39]

قال سيلسوس Celsus من علماء القرن الثاني للميلاد، ونقل عنه أكهارن من علماء ألمانيا «بدّل النصارى أناجيلهم ثلاث مراتٍ أو أربع مرات، بل أكثر من هذا تبديلًا، كأنما مضامينها بُدّلت».

[←40]

ذُكِر خبر إرساله إلى هيرودس في إنجيل يوحنّا فقط، ولم تتفق رواية مع أخرى في الأناجيل الأربعة بشأن هذه المحاكمات وهذا دليلٌ ظاهرٌ على أنهم تلقفوا أخبارها من أفواه العامة.

[←41]

ذكر «جاي وفرير» مؤلفا كتاب «أصول الطب الشرعي» حادثة استحضرا فيها 150 شاهدًا لمعرفة شخص يدعى «مارتن جير» فجزم أربعون منهم أنه هو هو، وقال خمسون غيره، والباقون تردّدوا جدًا، ولم يمكنهم أن يُبدوا رأيًا، واتضح أن هذا الشخص غير مارتن، بعد أن عاش مع زوجة مارتن وأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات.

[←42]

ذكر جورج سايل مترجم القرآن إلى الإنجليزية، في سورة آل عمران صفحة 38 أن السيرنثيين Cerinthians، والكربوكراتيين Carpocratians وهم من أقدم فرق النصارى قالوا إن المسيح نفسه لم يُصلب، وإنما صُلِب واحدٌ آخر من تلاميذه يشبهه شبهًا تامًا. وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصًا آخر صُلِب بدل المسيح.

[43←]

ذُكرت في إنجيل متَّى: «في ملكوت أبي» وسبق أن قلت إن أبي يقصد بها ربي.

[44←]

هذه رواية إنجيل يوحنا، والأناجيل الأخرى متضاربة متناقضة في هذا الموضوع، ويذكر جورج بوست الأمريكي في قاموس الكتاب المقدس، أن الجزء الخاص بهذا الموضوع في إنجيل مرقص لم يكن في نُسخ إنجيل مرقص القديمة، بل أضيف إليه فيما بعد.

[←45]

يوحنا: (14–20)

[←46]

ذكر في يوحنا 20: 71 أبي.

[←47]

في ترجمة جمعية التوراة الأمريكية «رب» بدل سيد ويُلاحظ أن هذه الجمعية تترجم كلمة «مار» اليونانية بـ«رب» إذا كانت عن عيسى وبـ«سيد» إذا كانت عن غيره!

[←48]

لوقا 34: 13 – 25